تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان بن جابر عثمان الجحدهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الإمام الذهبي

شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

❖ الرئيسي ـ حولي ـ شارع المثنى ـ مجمع البدري

ص. ب: ١٠٧٥. الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

❖ فرع حولي ـ شارع المثنى ـ تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

❖ فرع المباركية ـ مقابل مسجد ابن بحر ـ ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

❖ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس ـ ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

❖ فرع المصاحف ـ حولي ـ مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

❖ فرع الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E – mail: z.zahby74@yahoo.com

تعليقات على كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان بن جابر عثمان المحلاهم التويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

الترات الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد فقد أذنت للشيخ الدكتور سلامة بن جابر المجلاد بطباعة كتابي التعليقات على كتاب الفرقان لابن تيمية رجاء الاستفادة والأجر وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

٢٦/٦/١٤٢٨هـ

وَاللَّهُ ﷻ قَدْ وَصَفَ الْمَلَائِكَةَ فِي كِتَابِهِ بِصِفَاتٍ تُبَايِنُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ[١].

الشرح:

[١] تقدم أن الشيخ ﵀ ذكر عن الفلاسفة أنهم يقولون: إن الملائكة لا حقيقة لها في الوجود، وإنما هي خيالات يتخيلها الناس، فهي القوى الذهنية، يتخيلها النبي، وإنها جاءت إليه، وإنها حدثته، والشياطين كذلك إنما هي القوى الشريرة التي تحضر في ذهن الإنسان، هكذا قول الفلاسفة في الملائكة والشياطين؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ويفسرون الأشياء بأفهامهم، فالشيخ يرد عليهم، ويقول: الملائكة خلق من خلق الله، لهم وجود في الكون، ولهم صفات في القرآن، وصفهم الله ﷻ، فهم ليسوا قوى ذهنية أو أفكارا، وإنما هي مخلوقات، كما أن الله خلق بني آدم، خلق أيضا الجن، والشياطين، قد خلق الملائكة، عوالم خلقها الله ﷻ: عالم الملائكة، عالم الشياطين، وعالم الإنس، وعالم الجن، عوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله ﷻ، الله وصف الملائكة بأنهم عباد، وأنهم عنده ﷻ في السماوات، وأنهم يتنزلون بأمره في الأرض؛ منهم من ينزل بالوحي، ومنهم من ينزل بإحصاء أعمال بني آدم وكتابتها، ومنهم، ومنهم... أصناف، ولهم أوصاف، وهم عالم من عالم الغيب، لا يعلمه إلا الله ﷻ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩]. [١].

الشرح:

[١] النصارى يقولون: إن عيسى ابن الله، المسيح ابن الله، ومشركو العرب يقولون: الملائكة بنات الله، فنسبوا له البنين والبنات ﷻ، والفلاسفة يقولون ما ذُكر آنفا؛ من أنهم قوى ذهنية أو نفسية، هذه أقوالهم في الملائكة، الله ﷻ رد على المشركين وعلى النصارى، قال ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وهذه الآية ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، قالوا - أي: المشركون والنصارى -: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾؛ منهم من يقول: المسيح. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، والولد يشمل الذكر والأنثى، يسمى ولدا، الله ﷻ نزه نفسه عن ذلك؛ لأن الولد جزء من الوالد، يشبه الوالد، الله لا شبيه له، والوالد يكون محتاجا إلى الولد، الله غني عن خلقه ﷻ، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد، ووصف الملائكة بأنهم ليسوا بنات الله، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، وإنما هم عباد مكرمون، عباد من عباد الله، مكرمون كرمهم الله في طاعته،

وجعلهم في السماء، وأعطاهم صفات ليست لغيرهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٧ - ٢٨]؛ الملائكة، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ خائفون ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فنزه الملائكة عن كل أقوال المشركين والفلاسفة، وأعطاهم أوصافا عظيمة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم: ٢٦]. [١].

الشرح:

[١] يعني: كثير، (كم) بمعنى: كثير؛ لأن (كم) تأتي خبرية، فهي هنا خبرية، وتأتي استفهامية: كم عندك من الكتب؟ مثلا، هذه يقال لها: استفهامية، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: كثير، الملائكة في السماوات تنزل إلى الأرض بأمر الله ﷻ: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦]، إلا بإذن الله ورضاه عن المشفوع - كغيرهم؛ كالأنبياء والأولياء والصالحين -، لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ورضاه عن المشفوع فيه؛ بشرطين: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، هذا فيه شرط الإذن من الله في الشفاعة: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ [النجم: ٢٦]، هذا أيضا شرط: الرضا والإذن، ويرضى عن المشفوع فيه، أما الكافر، فلا تنفعه الشفاعة، وإنما الشفاعة تنفع المؤمنين المستحقين للعذاب، يشفع فيهم، فيسلمون من العذاب، ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: ٢٦]؛ يعني: بالشفاعة ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، ويرضى عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل الإيمان، أما الكفار، فالله ﷻ قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، هذه شروط الشفاعة. والشاهد فيه: وصف الملائكة بأنهم في السماء، وأنهم كثيرون، وأنهم متأدبون مع الله، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. [١].

الشرح:

[١] وفيهم الملائكة؛ لأن الملائكة عُبِدُوا، واتُّخِذُوا شركاء لله ﷻ، فهناك من يعبد الملائكة، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ يعني: وزن ذرة، أصغر شيء، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ لا يملكون استقلالا، ولا يملكون بالاشتراك، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ما لله ﷻ منهم من معين، لا يحتاج إلى أن يعينه أحد ﷻ، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، قالوا: هذه الآية قطعت عروق شجرة الشرك من أصلها(١)؛ لأن المدعو من دون الله إما أن يكون مالكا لما يطلب منه، أو يكون شريكا للمالك، أو يكون قريبا من المالك بوزارة أو باستشارة - كما عند الملوك المستشارين والوجهاء -، أو شفيعًا، آخر شيء يكون شفيعا، يشفع لصاحب الطلب عند الله، فنفى هذه الأمور كلها، لا أحد يملك شيئا من السماوات، ولا من الأرض، ولا أحد يشارك الله ﷻ في السماوات والأرض، ولاأحد يكون وليًّا لله وظهيرا له، يشير عليه، ويؤثر عليه؛ لأنه ليس بحاجة إلى الأعوان:

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٢٦).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، ليس له ولي من الذل، الناس يتخذون أولياء؛ لأنهم محتاجون إليهم، الله لاحاجة له، لكن له أولياء بمعنى محبوبين يحبهم، ويحبونه؛ من الولاية، هذا موجود، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ما بقي إلا الشفاعة، هذه أيضا ما تحصل إلا بإذنه، بخلاف الملوك في الدنيا والسلاطين، فإن الشفعاء يشفعون عندهم، ولو لم يأذنوا، أما الله ﷻ، فلا أحد يجرؤ أن يشفع عنده إلا بإذنه، إذًا لم يبقَ للمشركين تعلق، ولا برهان، ولاحجة في من يدعونهم: ليسوا مالكين، وليسوا شركاء، وليسوا وزراء لله ﷻ، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، بخلاف المخلوقين؛ فإنهم تحصل عندهم الشفاعة، ولو لم يأذنوا، ولو لم يرضوا حتى، لكنهم يضطرون لقبول الشفاعة؛ لأنهم محتاجون إلى الشفيع هذا، فهذه أبطلت الشرك من أصله. والشاهد منها: أن الملائكة من جملة من يدعوهم المشركون، وهم لا يملكون شيئا، ولا يشاركون الله، وليسوا وزراء وأعوانا لله ﷻ، ولا يشفعون عنده إلا بإذنه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. [١].

الشرح:

[١] وهذه الآية أيضا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، كله ملك الله ﷻ، كل ما في السماوات، وما في الأرض، فهو ملك لله، لا أحد يملك مع الله شيئا، إلا من ملَّكه الله مُلْكًا مؤقتا، ثم يُنزع منه الملك، ويُعطى لغيره، ما أحد يستمر في هذه الدنيا يملك، يُؤخذ منه الملك، ويُعطى لغيره من السلاطين والأمراء، ما يستمرون: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ من المخلوقات، فإذا كانوا مملوكين لله، فكيف يُدعَون مع الله ﷻ؟! ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾؛ يعني: الملائكة؛ لأنهم عند الله في السماء عندية إكرام وتقريب من الله ﷻ، عنده يعني: في السماء، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾، وهم الملائكة: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، مع أن لهم مكانة مرتفعة عند الله ﷻ، ومع هذا ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، هم عباد، فكيف يدعون مع الله، وهم عباد؟! ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، لا يكفرون، ولا يملون من تواصل العبادة؛ فهم دائما يعبدون الله ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٩]، لو قدر أن أحدا من الملائكة - وحاشاهم - قال: إني إله، لعذبه الله أشد العذاب؛ لأنه منازع لله ﷻ، ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

هذا ظلم؛ لأن الشرك هو أعظم الظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، هذه أوصاف الملائكة، وهذه الأوصاف تدل على أن الملائكة ذوات موجودة، ليست أفكارا ذهنية، أو قوى؛ كما يقوله الزنادقة.

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جَاءَتْ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي صُورَةِ الْبَشَرِ، [١].

الشرح:

[١] الملائكة - أيضا - مما يدل على أنهم موجودون، وأنهم ليسوا أفكارا وقوى ذهنية، إنما هم ذوات مخلوقة، في الحديث خلق الله الملائكة من النور(١)، جاؤوا إلى إبراهيم يتشكلون؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملك على صورته وخلقته، فيأتون إلى البشر في صور مألوفة عند الناس، في صور أشخاص، الله أعطاهم القدرة على التشكل، فجاؤوا إلى إبراهيم لما أنزلهم الله لإهلاك قوم لوط، مروا على إبراهيم في صورة أضياف، فظن إبراهيم أنهم أضياف، فأعد لهم القِرى، جاء بعجل حنيذ مشوي؛ ليأكلوا؛ يحسبهم أضيافا؛ لأنه كريم ﷺ، كان يضيف الأضياف، ويُقري الأضياف، فبادر ﷺ لهم بالقِرى، لكن لما رآهم لا يأكلون؛ لأن الإنسان إذا لم يأكل من طعامك، تخاف أنه يريدك بسوء، أما إذا أكل، فإنك تأمن منه، فلما رآهم لا يأكلون، أوجس منهم خيفة، فطمأنوه، وأخبروه بمهمتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٣]، إلى آخر الآيات، طمأنوه، وأخبروه بمهمتهم، الشاهد منها أن الملائكة يأتون في صور بشر، ولو كانوا أفكارا أو قوى نفسية، ما أتوا في صور بشر.

---

(١) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ من نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ من مَارِجٍ من نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

وَأَنَّ الْمَلَكَ تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا ، [١].

الشرح :

[١] وكذلك الملك - وهو جبريل عليه السلام - جاء إلى مريم، وهي قد انعزلت عن قومها، واتخذت من دونهم حجابا، وتفرغت للعبادة، لعبادة ربها، واحتجبت عن الناس، جاءها الملك في صورة إنسان: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: ١٧]، ما جاءها بصورة جبريل عليه السلام؛ لأنها ما تطيق رؤيته، بل جاءها في صورة بشر سوي، متكامل الأعضاء، متكامل الخلقة؛ بشرا سويا؛ من أجل تأنس معه، ولا تنفر، ثم إنه قال لها ما قال، وانتهى الأمر بأن نفخ فيها من الروح التي يحملها من الله ﷻ، فحملت بعيسى عليه السلام، فهل الأفكار والقوى النفسية تأتي هكذا؟! هذا دليل على أن الملائكة ذوات، ولهم وجود في الخارج، وليس في الأذهان فقط.

وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ[1]، [١].

الشرح:

[١] كذلك كان يأتي إلى نبينا محمد ﷺ في صورة رجل في الغالب، وعنده أصحابه يرونه، يرون الرجل، ولا يدرون من هو، يأتي، ويكلم الرسول ﷺ، وهم يسمعون، ويخرج على أنه رجل؛ لأنهم لا يطيقون رؤيته، ولم يره ﷺ على صورته الملكية إلا في مرتين؛ مرة في الأرض رآه في الأفق المبين - يعني: في الجو على صورته -، ورآه ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، رآه مرتين، وما عدا هاتين المرتين يأتيه في صورة رجل، وكان جبريل عليه السلام يتصور في صورة دحية الكلبي، كان رجلا حسن الصورة، جميل المنظر، وهو صحابي جليل رضي الله عنه.

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي من كبار الصحابة لم يشهد بدر وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد اليرموك، وبقي إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، وحدث بأحاديث عن رسول الله ﷺ. انظر: الاستيعاب (١/ ١٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٠).

وَفِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ، وَيَرَاهُمْ النَّاسُ كَذَلِكَ(١) [١].

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرِيلَ عليه السلام بأنه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] [٢].

الشرح:

[١] وأحيانا يأتي في صورة أعرابي لا يعرفونه، إذا جاء في صورة دحية، ظنوا أنه دحية، لكن أحيانا يأتي في صورة أعرابي، ولا يعرفونه؛ كما في حديث جبريل عليه السلام: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ فدخل علينا رجل كذا، وكذا..»(٢).

[٢] وصفه في آخر سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٣ - ٢٤]، فوصف جبريل بأن الرسول ﷺ رآه بالأفق المبين، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [التكوير: ١٩]؛ يعني: القرآن، نزل به

---

(١) من ذلك ما رواه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١): «أَنَّ جِبْرِيلَ أتى النبي ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ فقال النبي ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ من هذا؟ أو كما قال قالت: هذا دِحْيَةُ؛ فلما قام قالت: والله ما حَسِبْتُهُ إلا أياه حتى سمعت خُطْبَةَ النبي ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ». وعند مسلم (١٦٧) بلفظ: «وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام فإذا أَقْرَبُ من رأيت بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ».

(٢) من ذلك ما رواه مسلم (٨) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ....».

جبريل على الرسول ﷺ، فهو قوله؛ يعني أنه بلغه إلى الرسول ﷺ، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ يعني: جبريل رسول بين الله وبين محمد ﷺ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ٢٠]، قوة جبريل عليه السلام هائلة، حتى أنه حمل قرى قوم لوط على طرف جناحه، فقوته هائلة، ولما صاح في ثمود، هلكوا عن آخرهم، صيحته صاعقة، فأهلكهم عن آخرهم، فقوته لا توصف لشدتها: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ جبريل عليه السلام عند ذي العرش؛ يعني: له مكانة عند الله في السماء، قريب من الله ﷻ، (مكين) يعني: له مكانة عند الله، كلها أوصاف مدح لجبريل عليه السلام، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، تطيعه الملائكة، ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: هناك في السماء، ﴿أَمِينٍ﴾؛ أمين على الوحي، لا يزيد فيه، ولا ينقص، بل يبلغه كما تحمله عن الله ﷻ، فهو أمين الوحي عليه السلام.

وهو ﷺ في بطحاء مكة رفع رأسه، فرآه في الأفق المبين[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١) عن أبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] إِلَى [ص: ٨] قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]».

ووَصَفهُ بِأَنَّهُ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ٥-١٨]. [١].

الشرح:

[١] هذا في سورة النجم، وصفه بـ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ يعني: جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ يعني: هيئة، المِرة: الهيئة الحسنة، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا﴾؛ دنا جبريل عليه السلام من محمد ﷺ، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: عبد الله، وهو محمد ﷺ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾؛ ليلة المعراج، هذه المرة الثانية، والشاهد من هذا أن جبريل عليه السلام يرى في الخارج، وليس هو في الذهن، وإنما هو يرى في الخارج، ويأتي، ويدخل، ويخرج، والملائكة جاؤوا إبراهيم، دخلوا وخرجوا، ليسوا صورًا ذهنية، أو تخيلات؛ كما تقوله الفلاسفة.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾؛ استوى يعني: ارتفع.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ قرب جبريل عليه السلام من محمد ﷺ في الأفق، لما عرج بالرسول ﷺ.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ؛ أوحى جبريل ﷺ، أو أوحى الله إلى محمد بواسطة جبريل ﷺ ما أوحى من كلامه ﷻ.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ؛ الرسول ﷺ إنما أخبر عما رأى، ولم يكذب في قوله ﷺ.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ ؛ تمارونه: تجادلونه، وتوهمونه.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ؛ يعني: انحرف، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ؛ يعني: تعدى المكان المخصص له ﷺ، فهو لم ينحرف، ولم يتعد.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عن النبي ﷺ إِنَّهُ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، يَعْنِي: الْمَرَّةَ الْأُولَى بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، وَالنَّزْلَةَ الْأُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَوَصَفَ جِبْرِيلَ عليه السلام فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ(٢)، وَأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ(٣)، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، فسماه الروح الأمين على ما يؤتمن عليه، وهو الوحي، لا يزيد في الوحي، ولا ينقص، ولا تقربه الشياطين.

[٢] وصفه بأنه الروح الأمين؛ كما في سورة الشعراء، ووصفه بأنه روح القدس، يعني: الطهر؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهذا يدل على أن الملائكة لهم ذوات، ولهم وجود يرى، ويشاهد، رآه محمد ﷺ على صورته، ورآه الناس في صورته التي ظهر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (٢٨٧) (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾ [النجم: ١٣] فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

(٢) كما قال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء: ١٩٣].

(٣) كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

عليهم بها، فلو كان قوى نفسانية، لما ظهر، ويتكلم أيضا، ويخاطب: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، ...»، إلى آخر الحديث[1]، هل هذا قوى نفسانية؟ الصحابة يسمعون هذا، ويرون الشخص.

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٦).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ، [١] وَأَنَّهُ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ [٢].

الشرح:

[١] جبريل عليه السلام هو أعظم مخلوقات الله الأحياء العقلاء.

[٢] الجوهر المراد به: ما يقابل العرض؛ لأن الأشياء: إما جوهر، وإما عرض، فالجوهر هو الشيء الذي يرى، ويشاهد؛ الجسم، وأما العرض، فهو الذي يقوم بغيره، وليس له جسم، إنما يقوم بغيره؛ كالألوان: البياض، السواد، الحمرة، هذه تسمى بالعروض، جمع عرض؛ أي: الذي يعرض، ويزول، فالعرض هو الذي لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره، وأما الجوهر، فهو الذي يقوم بنفسه. فهو قائم بنفسه، وليس عرضا يقوم بغيره؛ مثل: الأفكار التي تكون في الذهن، تعرض وتزول، الأفكار والهواجس هذه عوارض، ليس لها جسم، وليس لها ذوات.

لَيْسَ خَيَالًا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ، كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ الْمُتَفَلْسِفَةُ [١] وَالْمُدَّعُونَ وِلَايَةَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ. [٢].

الشرح:

[١] ليس خيالا؛ كما تقوله الفلاسفة. مع كذبهم وفجورهم يدعون أنهم أولياء الله، وأنهم أفضل من الأنبياء، الفلاسفة يدعون أنهم أفضل من الأنبياء، وأنهم أدركوا أسرار الكون، وأنهم، وأنهم، أعجبوا بأنفسهم، ولم يشعروا بأنهم خلق قاصر عاجز، لا يعلمون إلا ما علمهم الله ﷻ؛ فهم يدعون لأنفسهم الكمال، يدعون لأنفسهم العلم، ويدعون لأنفسهم الاطلاع وإدراك الحقائق، وأنهم، وأنهم. . . .

[٢] لأن الأنبياء يأخذون بالواسطة عن الله، وهم يأخذون عن الله مباشرة، فهم أفضل من الأنبياء بزعمهم، الأنبياء إنما يأخذون عن غيرهم، وهم يأخذون بدون واسطة، يدركون الأشياء، أعجبوا بأنفسهم إلى هذا الحد، فصاروا يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ويقولون: إن الولي - يعنون أنفسهم- أفضل من النبي.

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

هذا من شعرهم، قبحهم الله!!

وَغَايَةُ حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ إِنْكَارُ أُصُولِ الْإِيمَانِ؛ [١] بِأَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ جَحْدُ الْخَالِقِ، [٢] فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودُ الْخَالِقِ، [٣].

الشرح:

[١] ينكرون أركان الإيمان: الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل؛ لأنهم يدعون أنهم أفضل من الرسل، ومن الأنبياء، وأيضا اليوم الآخر لا يؤمنون به، يأتي كلامهم فيه، يؤولونه على ما يريدون.

[٢] انتهى بهم الأمر إلى القول بوحدة الوجود(١)، وأن الكون ليس فيه انقسام بين خالق ومخلوق، بل هو الله كله، ويقولون: التوحيد هو أن لا تقسم الكون إلى خالق ومخلوق، بل تجعل الكون كله هو الله، فما عبدت من أي شيء، فأنت عبدت الله، فالذين يعبدون الأصنام، والأوثان، والجن والإنس، يعبدون الله؛ لأن الله هو الوجود المطلق، سبحانه عما يقولون!

[٣] ولذلك يسمون بأهل وحدة الوجود؛ لأن الوجود لا ينقسم إلى رب ومخلوق، كله هو الرب، وهذا هو التوحيد عندهم، والذي يقسم الوجود إلى خالق ومخلوق يقولون: هذا مشرك. يسمونه مشركا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤- ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين، وانظر كلام شيخ الاسلام ﷺ في: أمراض القلب وشفاؤها (ص ٦٤)، والاستقامة (١/ ١٢٣)، والتحفة العراقية (ص ٦٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٣، والفرقان (١٠٦، ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٦٦، ٥/ ١٢٦).

وَقَالُوا: الْوُجُودُ وَاحِدٌ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ، [١] كَمَا تَشْتَرِكُ الْأَنَاسِيُّ فِي مُسَمَّى الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانَاتُ فِي مُسَمَّى الْحَيَوَانِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يَكُونُ مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا إِلَّا فِي الذِّهْنِ، [٢] وَإِلَّا فالحيوانية الْقَائِمَةُ بِهَذَا الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَرَسِ، وَوُجُودُ السَّمَوَاتِ لَيْسَ هُوَ بِعَيْنِهِ وُجُودُ الْإِنْسَانِ، فَوُجُودُ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ لَيْسَ هُوَ كَوُجُودِ مَخْلُوقَاتِهِ. [٣].

الشرح:

[١] الموجودات كلها تشترك في مسمى الوجود، وأنها موجودة، وهذا في الذهن، أما في الخارج فإنها تنقسم إلى أقسام: خالق، ومخلوق، والمخلوقات تنقسم إلى عوالم وأصناف، هم لا يرون تعددًا ولا انقسامًا.

[٢] كل الأشياء موجودة، لكن الله ﷻ له وجود خاص به، والمخلوقات لها وجود خاص بها، وإن كانت كلها تشترك في اسم الوجود في الذهن، هذا في الذهن.

[٣] الآدميون والبهائم كلها تشترك في اسم الوجود، كل منها موجود تشترك في اسم الوجود، لكنها تنقسم: هذا فرس، وهذا حمار، وهذا بعير، وهذه شاة، وهذا كلب، وهذا أسد، وهذا إنسان، وهذا ملك، وهذا جني؛ متفاوتة في وجودها، فالكون منقسم إلى أقسام - ما عدا الله ﷻ -، فإنه

أجسام، مخلوقات في العالم العلوي والسفلي، هم يقولون: لا، لا يوجد انقسام، كله هو الله.

وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ قَوْلُ فِرْعَوْنَ الَّذِي عَطَّلَ الصَّانِعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنْكِرًا هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ؛ لَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ لَا صَانِعَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ وَافَقُوهُ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ زَعَمُوا بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَكَانُوا أَضَلَّ مِنْهُ، [١].

الشرح:

[١] وحقيقة قولهم أنه ليس هناك رب؛ مثل قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، هذا مذهب الفلاسفة تماما: جحود الخالق ﷻ، لكن يقولون: فرعون صار مشركًا؛ لأنه أقسم، قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، مع أن كل الموجود هو الرب، فهو أنكر عليه موسى عليه السلام هذا التقسيم بزعمهم، انظر: كيف يجعلون موسى عليه السلام من أهل وحدة الوجود، أنكر عليه هذا التقسيم، ولو أنه قال: الوجود كله واحد، لصار موحدا، ولما أنكر عليه، وهذا قول ابن عربي(١)، وقول أتباعه من فلاسفة الصوفيين: ابن الفارض(٢)، . . . .

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي طاف البلاد وأقام بمكة مدة وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا فيها ما يعقل وما لا يعقل وما ينكر وما لا ينكر وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩).

(٢) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة والتي ينعق فيها =

والعفيف التلمساني[١]، وغيرهم، هذا قولهم: وحدة الوجود. و(عطل) يعني: جحد الله ﷻ، (الصانع) يعني: عطل الخالق. زعموا أن الكون كله هو الله، فصاروا أضل من فرعون؛ لأن فرعون ما ادعى أن الكون كله هو الله، بل قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فميز نفسه عنهم، وهم لا يميزون بين خالق ومخلوق، وبين رب وعبد، ما يميزون بين هذا وهذا.

= بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

(١) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الشاعر المطبق، وقد نسب إلى عظائم في الأقوال، والاعتقاد في الحلول والاتحاد، والزندقة، والكفر المحض على طريقة ابن عربي، توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، والنجوم الزاهرة (٨/ ٢٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٤١٢).

وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا هُوَ أَظْهَرُ فَسَادًا مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا عُبَّادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ [١] وَقَالُوا: لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ صَاحِبَ السَّيْفِ، وَإِنْ جَارَ فِي الْعُرْفِ النَّامُوسِي كَذَلِكَ قَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، أَيْ: وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةٍ مَا فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيته فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْحُكْمِ فِيكُمْ. [٢].

قَالُوا: وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ أَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ وَقَالُوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]. [٣].

الشرح:

[١] هذا نتيجة القول بوحدة الوجود؛ أن كل من عبد شيئا، فإنما عبد الله، لأن الكون كله هو الله، فالإنسان والحيوان والصنم، والحجر، والشجر هو الله بزعمهم، تعالى الله عما يقولون.

[٢] هو أخطأ عندهم من هذه الناحية؛ أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، مع أن الكون كله هو الرب، ما يختص بفرعون، لكن لما غلب، وصار عنده قوة، وأعجب بنفسه، ادعى لنفسه أنه هو الرب.

[٣] انظر تحريف القرآن! السحرة تابوا إلى الله، وخروا سجدا لما ظهرت لهم معجزة موسى عليه السلام، وبرهان موسى عليه السلام وصدقه، تابوا إلى الله، وألقي السحرة ساجدين، قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، لما هددهم فرعون بالقتل والصلب، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ

أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢ - ٧٣]، أنت تقتلنا في هذه الدنيا، تصلبنا، لكن مآلنا إلى الله ﷻ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٤]، فهذا الكلام منهم أنهم مؤمنون بالله ﷻ وبما قاله موسى وهارون ﵉، لكن الفلاسفة يقولون: لا، هم لما عرفوا أن فرعون صادق، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، عرفوا أنه صادق، ففوضوا إليه الأمر، وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، هذا تحريف لكلام الله ﷻ فكأنهم رضوا عن فرعون، وعرفوا أنه صادق، فقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾؛ لأنك أنت الرب.

قَالُوا: فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وَكَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ(١)، [١] ثُمَّ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، [٢] فَجَعَلُوا أَهْلَ النَّارِ يَتَنَعَّمُونَ كَمَا يَتَنَعَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، [٣].

الشرح:

[١] لما قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، معناه أنهم صدقوا أنه هو ربهم الأعلى، تعالى الله عما يقولون.

[٢] انتهى كلامهم في الرب ﷻ.

الشيخ يريد أن يبين كفرهم بأركان الإيمان، الإيمان بالله انتهى منه، وأنهم يرون أن الله هو الكون كله، وكذلك أنكروا حقيقة اليوم الآخر، فقالوا: إن اليوم الآخر عبارة عن أحوال تتغير فقط. ما عندهم أن اليوم الآخر فيه بعث للناس من القبور، وجزاء وحساب، وجنة ونار، ما عندهم هذا.

[٣] جعلوا أهل النار يتنعمون بالنار، ولا تؤلمهم، يتنعمون بها؛ كما يتنعم أهل الجنة بالنعيم عندهم.

---

(١) هذا الكلام لابن عربي قاله في فصوص الحكم (١/ ٢١٠) بلفظ قريب منه.

فَصَارُوا كَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، [١] مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ خُلَاصَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ مِنْ أَهْلِ وِلَايَةِ اللَّهِ، [٢] وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ مِنْ مِشْكَاتِهِمْ. [٣].

الشرح:

[١] هذه حقيقة الفلاسفة؛ أنهم كافرون بالله، وكافرون بالملائكة؛ لأنهم يقولون: لا يوجد ملائكة، ولا يوجد رب، الكون كله هو الله، وليس هناك رب مستقل، وهم كافرون باليوم الآخر؛ لأنهم يقولون: ليس هناك جنة ولا نار، كلهم سواء في النعيم، أهل النار يتنعمون، وليس هناك عذاب.

[٢] يدعون لأنفسهم أنهم أكمل الناس إيمانا وعقولا، وأنهم انتهى بهم الأمر إلى التوحيد، وهو الوحدة. فالذي لا يقول بوحدة الوجود مشرك، والذي يقول بوحدة الوجود هذا هو الموحد عندهم.

[٣] من مشكاتهم؛ هم الذين يدلون الأنبياء؛ لأنهم أعرف من الأنبياء.

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ إِلْحَادِ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ ادِّعَاءً لِوِلَايَةِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وِلَايَةً لِلشَّيْطَانِ، نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ. [١].

وَلِهَذَا عَامَّةُ كَلَامِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَالَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] رحمه الله! لما كان الكتاب في بيان الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن هؤلاء يدعون أنهم أولياء الله، وأخص أولياء الله، بيَّن رَحِمَهُ اللهُ أنهم أولياء الشيطان، وليسوا أولياء لله، فأكذبهم، ودحض أقوالهم وشبههم.

[٢] لا بد من بيان ضلالهم؛ لأنه موجود، ضلالهم موجود، وكتبهم موجودة، هذا موجود في كتب ابن عربي، التي يسميها (الفتوحات المكية)، وفي الفصوص (فصوص الحكم)، وهي تطبع الآن، وتحقق، وتنشر في الناس، وتباع في المعارض على أن ابن عربي هو في أرقى درجات العلم والإدراك، فيخشى أن هذا يلتبس على الجهال؛ ولهذا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وضح هذا الأمر، وبيَّنه.

وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ»: بَابُ أَرْضِ الْحَقِيقَةِ، وَيَقُولُونَ: هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ. [١] فَتُعْرَفُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هِيَ خَيَالٌ وَمَحَلُّ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ لِلْإِنْسَانِ الْأُمُورَ بِخِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، [٢] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩] [٣].

الشرح:

[١] صاحب الفتوحات المكية هو ابن عربي، ليس ابن العربي بالألف واللام؛ هذا من علماء التوحيد؛ المالكي ابن العربي، وله مؤلفات مفيدة جيدة، أما ابن عربي بدون (أل)، فهذا هو الملحد ابن عربي الطائي، وهذا يقال له ابن العربي المالكي.

[٢] كل الخيالات عندهم ليس لها حقائق ولا ثبوت، وإنما هي ضلالات وكفريات، يدعي أنها أكمل درجات العلم والإدراك.

[٣] ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾، هؤلاء هم أولياء الشياطين، هم أولياء الشيطان؛ لأنهم أعرضوا عن ذكر الرحمن؛ فتولاهم الشيطان، ودخل بهم في هذه المهامه المهلكة والضلالات والظلمات -والعياذ بالله-.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: يعمى بصره عن ذكر الرحمن، ولم ينظر فيه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ عقوبة له، فمن أعرض عن الله وعن محمد رسول الله، تولاه الشيطان: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾؛ عقوبة، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، لا يفارقه قرينه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، الشياطين يصدون هؤلاء، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وهذا من تمام العقوبة، الإنسان إذا أخطأ، وصار يشك أنه أخطأ، يمكن أن يراجع نفسه، ويتوب، هذا أخف من الذي يرى أنه على حق؛ لأن الذي يرى أنه على حق، لا يرجع، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الشياطين، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ من أجل أن يستحكم الضلال عليهم، نسأل الله العافية!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾، هذا في الدنيا، فإذا جاء يوم القيامة، يقول هذا الإنسان للشيطان الذي أضله في الدنيا: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ يعني يوم القيامة، ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، بل العادة في الناس أنه إذا وقع الضرر على الجميع، يخف، لكن في الآخرة لا، كل يرى أن العذاب كله عليه، دون غيره ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ما يخفف عنكم هذا يوم القيامة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، [١].

الشرح:

[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، الشرك ما يغفر إلا بالتوبة والدخول في الإسلام، بخلاف الذنوب التي دون الشرك؛ فإنها راجعة إلى المغفرة، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ من الذنوب التي دون الشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فالله ﷻ أخبر عن هؤلاء: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾؛ لأنهم يقولون: الملائكة بنات الله، فهم يعبدون الإناث بزعمهم، وأيضا أسماء الأصنام كلها إناث: اللات، العزى، مناة، أسماء إناث كلها: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٢]، فهذا مآلهم - والعياذ بالله - لما

تركوا القرآن، وتركوا اتباع الرسول ﷺ، وذهبوا مع أفكارهم وعقولهم، تولاهم الشيطان، يسول لهم، ويملي لهم، ويزن لهم الأمور، فصار مآلهم هذا المآل القبيح، هؤلاء أولياء الشيطان، انظروا أين ينتهون، هذا الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في الدنيا والآخرة، فكيف يقال: إن أولياء الرحمن وأولياء الشيطان سواء؟! ليسوا سواء.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الشيخ رحمه الله فيما سبق أن غلاة الصوفية والفلاسفة وقعوا فيما وقعوا فيه من الإلحاد والكفر، وأن ذلك بسبب مخالفتهم للرسل، ولما خالفوا الرسل، وخالفوا الكتب الإلهية، سلط الله عليهم الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، هذا نتيجة إعراضهم عن الرسل والكتب وأخذهم لأهوائهم وعقولهم، سلط الله عليهم الشيطان، فأضلهم، وقادهم وأغواهم، ثم ذكر هنا أن الشيطان الذي أغواهم في الدنيا، وقادهم إلى الإلحاد والكفر يتبرأ منهم يوم القيامة، إذا دخل هو وإياهم النار، فإنه يتبرأ منهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، وحاسب الله الخلائق، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال الشيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، بيّن لهم أنه هو الذي أخلفهم عن وعد الله تعالى بسبب ذنوبهم وإعراضهم، والشيطان إنما يتسلط على هؤلاء وأمثالهم، أما العباد المخلصون، فإنه لا سلطان له عليهم؛ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]،

والشيطان قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، الذين أخلصوا لله ﷻ، فهو يصرح بهذا في النار؛ من أجل أن يحسرهم، ويزيدهم من الحسرة والندامة - والعياذ بالله -، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ثم إنه بين لهم أنه ما أجبرهم، ولا له عليهم سلطة إجبارية، وإنما هم الذين اتبعوه باختيارهم، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ يعني: من حجة، ومن إجبار، أو قهر، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، لا تلوموني على ما فعلت بكم؛ لأني لم أجبركم، بل لوموا أنفسكم؛ لأنكم انقدتم لي بدون إجبار، وبدون سلطة، ثم قال: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم مما أنتم فيه، ومنجيكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾، أيضا ما أنتم بمنقذي ومناصري مما أنا فيه، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾، كفر بما فعلوه في الدنيا بسببه، فكفر بهذا، قطع العلاقة بينه وبينهم، هذا مصيرهم يوم القيامة، وهذا مصير كل من أعرض عن الكتاب والسنة، واتبع الشيطان، ومنهم الصوفية الذين تركوا الكتاب والسنة، وذهبوا مع الشيطان، سيكون مصيرهم هذا، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢-٢٣]، هذه عاقبة من اتبع الرسل: جنات تجري من تحتها الأنهار، وأيضا خالدين فيها، لا يخافون أن تؤخذ منهم، أو يؤخذون منها، هي لهم دائما، هذه نتيجة الإيمان بالله، وبكتبه، وبرسله، وباليوم الآخر، ولكن هذا يحتاج إلى صبر، ولا يأتي عفوا في الدنيا، يحتاج إلى صبر وثبات، يحتاج إلى علم ومعرفة،

لا يأتي عفوا هكذا بدون تعب، وبدون معرفة، وبدون ثبات وصبر؛ ولهذا تقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾، ما نالوا هذا الشيء بالعفو والسهولة، وإنما قاسوا، وصبروا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

فالحاصل أن هذا مصير هؤلاء وأمثالهم ممن خالفوا الرسل، وخالفوا الكتب، وأخذوا بعقولهم وأهوائهم، وقادتهم شياطين الإنس والجن إلى هذا المصير المؤلم الذي لا نجاة منه يوم القيامة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وهذا موقف من مواقف الشيطان مع بني آدم، وهو موقفه مع الكفار والمشركين يوم بدر، ظهر لهم في صورة سيد من سادات العرب، وقال: إني جار لكم، ومن عادات العرب الجوار، فهم يستجيرون بالأقوياء وبالرؤساء، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، لا تخافوا، فأوردهم وعزمهم على القتال، وغرر بهم على القتال، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، هذا غرور - والعياذ بالله -، ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، ما أحد يصل إليكم، فلما التحم القتال، والتقى الصفان، وتراءى الجمعان - جمع المسلمين وجمع الكفار-، هرب الشيطان، وتركهم، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ﴾؛ أي: رجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وهو يقول: إني جار لكم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾، لما ورطهم، رجع عنهم، وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾، السبب: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، ماذا يرى؟ رأى الملائكة مع الرسول ﷺ وأصحابه، والشياطين لا تجتمع مع الملائكة أبدا، فلما رأى

الملائكة، هرب، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ الخوف توا يأتيه، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، هذا موقف له في الدنيا، وذكر الله موقفه منهم في الآخرة، هذا موقف الشيطان من أوليائه في الدنيا في وقعة بدر، وموقفه منهم في الآخرة كما في الآية.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ»(١)، [١] وَالشَّيَاطِينُ إِذَا رَأَتْ مَلاَئِكَةَ اللَّهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ هَرَبَتْ مِنْهُمْ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، تفسير هذه الآية: أنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة؛ يعني: يسوقهم، يسوق الملائكة إلى مشاركة الصحابة في القتال.

[٢] الشياطين إذا رأت ملائكة الله - عندكم في بعض النسخ: التي تؤيد بها، بالتاء، هذا غلط - التي يؤيد بها عباده، هرب؛ لأنه ما يجتمع مع الملائكة.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٤٢٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤى الشَّيْطَانُ يَوْمًا هو فيه أَصْغَرُ وَلاَ ادحر وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَغْيَظُ منه في يَوْمِ عَرَفَةَ وما ذَاكَ الا لِمَا رَأَى من تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ الله عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ الا ما أرى يوم بَدْرٍ قِيلَ وما رَأَى يوم بَدْرٍ يا رَسُولَ الله قال اما انه قد رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ» أي يصفهم للقتال. وهو حديث مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣٧٨)، والطبري في التفسير (١٠/ ١٩)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٤٦١).

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، [١].

الشرح:

[١] هذا في وقعة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾؛ معية نصرة وتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فالملائكة تنزل لتثبيت المؤمنين وتأييدهم، لا أنها تقاتل، لكنها تؤيد، وتساعد المسلمين على أعدائهم، وروي أنهم قاتلوا في بدر مع الصحابة ﷺ(١)، ولكن الغالب أنهم ينزلون لتقوية المسلمين، وتطمين المسلمين، وإنزال السكينة عليهم، وطرد الشياطين عنهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾؛ الملائكة الذين نزلوا إلى بدر، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، الله ﷻ ألقى في قلوب المؤمنين الثبات، وإن كانوا قليلين، وألقى في قلوب الكفار الرعب، وإن كانوا مثلي المؤمنين في العدد والعدة، لكن ما نفعتهم قوتهم، أنزل الله في قلوبهم الرعب، وأنزل في قلوب المؤمنين القوة والشجاعة والثبات؛ لأن معهم الملائكة، حتى نصرهم الله في بدر.

---

(١) قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ». أخرجه مسلم (١٧٦٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، [١].

الشرح:

[١] هذا في غزوة الأحزاب التي تسمى غزوة الخندق، تسمى غزوة الخندق؛ لأن النبي ﷺ حفر حول المدينة خندقا يمنع الكفار من دخولها، وتسمى غزوة الأحزاب؛ لأن المشركين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وجاؤوا يريدون القضاء عليه وعلى أصحابه، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: النصر، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾؛ جنود الكفار، ليسوا قريش فقط، معهم قبائل العرب الكثيرة؛ ولذلك سموا بالأحزاب، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، لما طال الحصار على المسلمين، أنزل الله عليهم في ليلة من الليالي ريحا شديدة، قلعت خيامهم، وحصبتهم بالحصباء، ووقع الرعب في قلوبهم، فانهزموا، ونزلت الملائكة أيضا مع الريح، فألقت الرعب في قلوب الكفار، فانهزموا مسرعين، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ [الأحزاب: ٢٥- ٢٦]، من هم الذين ظاهروهم وأعانوهم؟ يعني: يهود بنو قريظة، خانوا الرسول ﷺ، ونقضوا العهد؛ لأنهم عاهدوا الرسول على أنه إذا غزيت المدينة أن يقاتلوا معه، فلما جاءت الأحزاب، نقضوا العهد، وانضموا إلى الأحزاب، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] غزاهم رسول الله ﷺ بعد انصراف المشركين وهزيمتهم، وحاصرهم،

حتى نزلوا من حصونهم، وحكم فيهم سعد بن معاذ ﷺ؛ لأنهم طلبوا تحكيمه، فحكم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى نساؤهم وأولادهم وأموالهم؛ نتيجة لنقضهم العهد، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ يعني: اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ قصورهم وحصونهم، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧]، وهي خيبر التي كانت عند اليهود، أورثهم الله إياها بعد ذلك. فالحاصل أن هذا نتيجة الصبر والثبات للمؤمنين؛ أن المؤمنين تكون معهم الملائكة، والكفار تكون معهم الشياطين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، [١].

الشرح:

[١] وكذلك في موقف ثالث، وهو حالة الرسول ﷺ لما أراد الهجرة واللحاق بأصحابه، أرادوا منعه، وتشاوروا فيه، واجتمعوا، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ يعني: بالحبس ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأخرجه من بينهم، وهم لا يشعرون، وذهب هو وصاحبه إلى غار ثور جنوب مكة، واختفيا فيه، أخذ المشركون يطلبونه بكل وسيلة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بهم، وبحثوا عنهم، حتى وقفوا عليهم في الغار، ولم يروهم، صرف الله أبصارهم عنهم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ يعني: الملائكة، الملائكة نزلت لتأييد الرسول ﷺ وصاحبه، فخرجوا من الغار، وركبوا الرواحل، وذهبوا إلى المدينة بسلامة الله، لم يتعرض لهم أحد حتى وصلوا إلى المدينة، هذه نتيجة الصبر والثبات، والجهاد في سبيل الله.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾؛ يعني: أبا بكر الصديق، هذه شهادة لأبي بكر بالصحبة، شهد الله له بالصحبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾، فإذا قيل لك: من هو الصحابي الذي شهد الله له بالصحبة؟ هو أبو بكر رضي الله عنه: ﴿يَقُولُ

لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وذلك أن الرسول ﷺ لما قال أبو بكر خائفا على رسول الله منهم : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا ، فقال ﷺ مطمئنا له : «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»(١) ، فأنزل الله ما أنزل ، ورد الكفار خائبين ، وحمى رسوله ﷺ وصاحبه منهم ، كانا اثنين ، وأهل مكة كلهم خرجوا في طلبهم ، كانا اثنين ، وما قدروا على أن يسيطروا عليهم : ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ ، ما معهم أحد .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]. [١].

الشرح:

[١] هذا قيل: إنه في غزوة بدر، وقيل: إنه في غزوة أحد؛ أن الله ﷻ أمد المسلمين بالقوة والنصر: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، قال الله ﷻ: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ يعني: من جهتهم، ﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾؛ يعني: معلمين بعلامات ليست من علامات البشر، أو خيولهم معلمة، قيل: إن عليهم عمائم بيض، وقيل: إن خيولهم لها شعور غير شعور الخيول المعروفة، (مسومة) يعني: معلمة(١). فهذا إمداد الله ﷻ لأوليائه - أولياء الرحمن -؛ لأن الكتاب في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فهذه إمدادات الله لأولياء الرحمن، فهو يمدهم بالملائكة، وبالنصر، وينقذهم من المواقف الصعبة الضيقة، فيجعل لهم الفرج والمخرج، وهذه مواقف الشياطين مع أوليائهم، هذا موقف الشيطان مع أوليائه: الخزي، والعار، والهزيمة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٧٦: ٨٤)، والقرطبي (٤/ ١٩٦)، وابن كثير (١/ ٤٠٣، ٤١٢).

وَهَؤُلَاءِ تَأْتِيهِمْ أَرْوَاحٌ تُخَاطِبُهُمْ [١] وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ [٢] وَهِيَ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ، [٣] فَيَظُنُّونَهَا مَلَائِكَةً، [٤].

الشرح:

[١] وهؤلاء - يعني: أولياء الشيطان - تأتيهم أرواح تخاطبهم، وهي شياطين تكلمهم، يظنون أنها ملائكة، وهي شياطين تلقنهم الشر. أرواح خفية؛ لأن الجن والشياطين يتشكلون بأشكال لا يعرفون بها.

[٢] تتمثل لهم بأشخاص؛ لأن الجني يقدر على أن يتشكل: يصير دابة، يصير حشرة، يصير إنسان، يتشكل.

[٣] وهي في حقيقتها جن، ليست على ظاهرها، إنما هي جن وشياطين؛ لتغرير بني آدم.

[٤] ويفرحون بهذا، ويظنون أن هؤلاء الملائكة مثل الذين ينزلون على الرسل، وأنهم تنزل عليهم الملائكة؛ كما تنزل على الرسل، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الرسل؛ لأنهم يأتيهم مثل ما يأتي الرسل، أو أنهم أحسن حالا؛ كما سيأتي.

كَالْأَرْوَاحِ الَّتِي تُخَاطِبُ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، [١] وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ: الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ(١) [٢] فِي الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»(٢)، وَكَانَ الْكَذَّابُ: الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ،

الشرح:

[١] سبق لنا أن عباد الأصنام وعباد القبور يسمعون أصواتا، أو يرون صورا: صور الأموات الذين يدعونهم، ويخاطبونهم، ويقضون حاجاتهم، فيظنون أنهم ملائكة، وهم شياطين تخاطبهم من القبر، تخاطبهم من الصنم؛ لتغرر بهم. يعني: الذين تخاطبهم الشياطين.

[٢] المختار بن أبي عبيد الثقفي من قبيلة ثقيف من الطائف، ظهر في أول أمره بالصلاح والاستقامة، وكان مع ابن الزبير، ثم إنه انحرف، وذهب مع الشيعة، ثم في النهاية ادعى أنه نبي، وأنه يوحى إليه، هذا المختار بن

---

(١) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق، كان أبوه من أجلة الصحابة، ولد المختار عام الهجرة، وليست له صحبة ولا رواية، وأخباره أخبار غير مرضية، حكاها عنه ثقات، وذلك منذ طلب الإمارة، إلى أن قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٧٧هـ، وكان قبل ذلك معدودًا في أهل الفضل والخير، يرائي بذلك كله، ويكتم الفسق، فظهر منه ما كان يضمر، والله أعلم. انظر: الاستيعاب (١/ ٤٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٣٤٩)، ولسان الميزان (٦/ ٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥).

أبي عبيد، فعلت به الشياطين ما فعلت بأمثاله من الخديعة، حتى ادعى النبوة، تخاطبه الشياطين، وهو يظن أنها ملائكة، ادعى النبوة، مع أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، قد أخبر النبي ﷺ عن ظهوره، فقال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»، الكذاب هو المختار، والمبير يعني الذي يقتل الناس هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، ظهر الكذاب وهو المختار، وظهر الحجاج الذي هو المبير، والكذاب؛ لأنه ادعى النبوة.

وَالْمُبِيرُ : الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ[(١)] ، [١] فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ : إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَيْهِ، فَقَالَا : صَدَقَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢][(٢)]،

الشرح:

[١] الحجاج بن يوسف الذي كان أميرا في وقت بني أمية، وكان فاتكا شجاعا قويًا، وكان عقوبة على قتلة عثمان رضي الله عنه، تتبعهم، حتى قضى عليهم؛ ففيه منافع، وفيه مضار، وهو مؤمن ظالم، هو ظالم مؤمن، وليس مثل المختار بن أبي عبيد الذي زعم أنه ينزل عليه ملائكة، وأخبر ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر رضي الله عنهما قالوا: صدق، تنزل عليه الشياطين؛ لأن الله أخبر بذلك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، وهم الكهنة الذين تنزل عليهم الشياطين، وتسترق السمع، وتكذب معه، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أبو محمد الثقفي ولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق، أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥هـ كهلًا وكان ظلومًا جبارًا سافكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة، قاله الذهبي. انظر: تاريخ دمشق (١٢/ ١١٣)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، والبداية والنهاية (٩/ ١٣٢).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٨٩) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، ورواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٢-٢٢٣]، فهو ينزل عليه، صحيح أنه ينزل عليه، لكن ينزل عليه شياطين ليسوا ملائكة.

وَقَالَ الْآخَرُ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١][١].

الشرح:

[١] هناك وحيان: وحي من الله، ووحي من الشيطان، الرسل عليهم السلام ينزل عليهم الوحي من الله، والكهنة والكذابون يأتيهم الوحي من الشياطين، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾؛ يعني: يخبرونهم، الوحي: هو الإخبار بخفية(١)، يخبرونهم بأشياء كاذبة تغرر بهم، وينخدعون بها؛ لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]؛ غرور - والعياذ بالله -، فهذا الذي حصل للمختار بن أبي عبيد، ويحصل للكهان.

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٦/ ٩٣): «(وَحَى) الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ». وانظر مادة (وحى) في لسان العرب (١٥/ ٣٧٩).

وَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ الشَّيْطَانِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّذِي يَزْعُمُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ» أَنَّهُ أُلْقِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ؛ [١] وَلِهَذَا يَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنْ الْخَلَوَاتِ بِطَعَامٍ مُعَيَّنٍ وَشَيْءٍ مُعَيَّنٍ، [٢].

الشرح:

[١] صاحب الفتوحات الذي هو ابن عربي، له مؤلف اسمه: الفتوحات المكية، ومؤلف آخر اسمه: فصوص الحكم، مشحونان بالضلال والإلحاد ويزعم أنه ألقي إليه هذا الكتاب، وصحيح أنه ألقي إليه، لكن من الذي ألقاه إليه؟ الشيطان ألقاه إليه.

زعم أنه جاءه آت، وأعطاه الكتاب، وقال: إن الذي جاء هو الرسول، وأعطاه الكتاب هذا، وهو شيطان.

[٢] من شطحات الصوفية، وضلالهم أنهم ينعزلون عن الناس في خلوات أياما، ولا يأكلون ولا يشربون؛ حتى تصفو أرواحهم، ومنهم من يهيئ نفسه للرسالة، ويخلو، يريد أن تنزل عليه الملائكة، تصفو روحه، خداع من الشيطان -والعياذ بالله-، ينعزل، ويترك الطعام والشراب، وتصفو روحه للشيطان، فينزل عليه الشيطان عند ذلك، أما المؤمن، فهو ما يخلو، ولا ينعزل، يذهب يصلي مع المسلمين، ويجالس المسلمين، ويحضر حلق الذكر والدروس، أما هؤلاء فينعزلون؛ حتى يحصل لهم الضلال -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، ومنهم في وقتنا من ينعزل، وتأتيه الأفكار

الكفرية والأفكار المنحرفة؛ كما ترون في بعض الشباب، فالانعزال عن المسلمين، والانعزال عن المساجد، والانعزال عن ذكر الله يسبب هذا الضلال، فإما أن شياطين الجن تأتيه وتضله، وإما شياطين الإنس يأتونه بالأفكار المنحرفة، ويلقون في ذهنه أن المسلمين كفار، وأنهم يحتاجون إلى جهاد، فيحصل ما يحصل، كل هذا بسبب الانعزال والعزلة عن المسلمين، وعن بيوت الله، وعن ذكر الله ﷻ.

وَهَذِهِ مِمَّا تَفْتَحُ لِصَاحِبِهَا اتِّصَالًا بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، [١] فَيَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢] وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا، [٣] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَعُودُ، [٤].

الشرح:

[١] إذا خلا، وترك الأكل والشرب مدة، يأتيه الشيطان، ويغره، ويظن أنه ملك من الملائكة.

[٢] يظنون أن الذي يحصل لهم من هذه الغرائب من الكرامات، وأنهم أولياء لله، والواقع أن هذه ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، وإنها إهانة لهم على يد الشيطان ليضلهم.

[٣] الشيخ يعرف من هؤلاء الذين ابتلوا بهذه الخلوات وهذه النزغات، يعرف منهم عددا في وقته رحمه الله.

[٤] ومنهم من تخدمهم الشياطين، إذا تقرب إليهم وأطاعهم، خدموه، فصاروا يطيرون به في الهواء، ويظن الناس أنه هو الذي يطير بنفسه، ويقولون: هذه كرامة. يطير في الهواء، يمشي على الماء، يمشي على البحر، ولا يغرق، يدخل النار والجمر وما أشبه ذلك، ولا تأكله، وإنما هذه أعمال شيطانية، الشياطين تحمله، وتعمل له هذه الأشياء بسبب أنه أطاعهم، فخدموه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ

ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتع بعضنا ببعض، الإنسي أطاع الجني، فهذا استمتاع الجني بالإنسي؛ أنه أطاعه، والجني خدم الإنسي، حمله في الهواء، وما أشبه ذلك من الخوارق، فهذا استمتاع من الإنسي بالجني: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَى بِمَالٍ مَسْرُوقٍ تَسْرِقُهُ الشَّيَاطِينُ وَتَأْتِيه بِهِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ تَدُلُّهُ عَلَى السَّرِقَاتِ [٢].

الشرح:

[١] ومنهم من يحضر الأشياء المفقودة، إذا ضاع لأحد شيء، ذهب له المسكين، وقال: ضاع لي كذا، فيحضر له ماله، ويظن المسكين الإنسي أن هذا من كراماته، وأنه أحضرها. وهو من عمل الشيطان، الشيطان هو الذي أحضر له هذا الشيء؛ لأن الشياطين تقدر على ما لا يقدر عليه الإنس، وتطلع على ما لا يطلع عليه الإنس، فتأتيه بالشيء المفقود، أو تخبره أن مالك في المحل الفلاني؛ لأنها تطلع، أو أنها تسرق من أموال الناس، وتأتي له بالمال، ويقول: هذا كرامة، هذا حضر كرامة من الله. وهو من الشيطان، وليس من الله؛ لأنه سبق لكم أن الخارق للعادة إذا كان مع الاستقامة والطاعة، فهو كرامة، وإن كان مع الكفر والضلال، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة من الله ﷻ، فلا يشتبه هذا بهذا.

[٢] إذا سرق لهم شيء، جاؤوا إلى الكاهن أو من هؤلاء المتصوفة الضلال، وهم كهنة، يتحولون إلى كهنة، فيخبرونهم أين مال المسروق، ومكانه، ومن الذي سرقه، فيظن الناس أن هذا من عنده هو، وهو ليس من عنده، بل من عملائه الشياطين.

بِجُعْلٍ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّاسِ، أَوْ بِعَطَاءٍ يُعْطَوْنَهُ إِذَا دَلَّهُمْ عَلَى سَرِقَاتِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. [١] وَلَمَّا كَانَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ شَيْطَانِيَّةً كَانُوا مُنَاقِضِينَ لِلرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، [٢] كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»، وَ«الْفُصُوصِ»، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] يعطونه أجرة ويحضر لهم مسروقاتهم، أو يخبرهم أين هي موجودة، يقول له: بعيرك أو ضالتك أو شاتك في المحل الفلاني، ترعى في كذا. إذا ذهب، وجدها في المكان. من الذي أعلمه؟ الشيطان.

[٢] لما كانت أحوالهم شيطانية، كانوا مناقضين للرسل عليهم السلام؛ هناك فرق بين من تنزله عليه الملائكة، وبين من تنزل عليه الشياطين، فرق بين هذا وهذا.

[٣] أكثر هذه الضلالات كلها موجودة في هذين الكتابين لابن عربي الحاتمي الطائي.

يَمْدَحُ الْكُفَّارُ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ، [١] وَيَتَنَقَّصُ الْأَنْبِيَاءُ: كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، [٢] وَيَذُمُّ شُيُوخَ الْمُسْلِمِينَ الْمَحْمُودِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: [٣].

الشرح:

[١] لأن في كتبهم مدح الكفار، وأنهم أبطال، وأنهم لهم مكانة، فيمدحون قوم هود، وقوم صالح، وقوم نوح؛ لأنهم إخوانهم، لأنهم كفار مثلهم، فيمدحونهم، مع الأسف الآن وجد من كتابنا من يمدح ابن عربي، ويقول: هؤلاء أصحاب أفكار نيرة، ولكن أنتم تحسدونهم، وأنتم، وأنتم. ويلقي باللائمة على الخلفاء الذين قتلوا هؤلاء، ويقول: هؤلاء قضوا على الفكر المستنير. هذا موجود في بعض صحفنا مع الأسف.

[٢] هذا شيء ضروري: أن من مدح الكفار، وأثنى عليهم، سيتنقص الرسل وأتباعهم، ويصفهم بالغباء، ويصفهم بأوصاف قبيحة.

[٣] وهذا واضح أن من مدح الكفار، وأعجب بهم، سيتنقص المسلمين، ولاسيما العلماء؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، وهم يذمون الأنبياء، ويذمون ورثتهم؛ لأن الأنبياء وورثتهم يقفون في طريقهم، ويبينون ضلالهم، فيقعون في العلماء، ويتنقصونهم، ويستغفلونهم، ويقولون فيهم ما يقولون، وهذا شيء موجود الآن؛ كما أشرت في بعض الصحف.

كَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ(١)، [١] وَيَمْدَحُ الْمَذْمُومِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: كَالْحَلَّاجِ(٢) وَنَحْوِهِ، كَمَا ذَكَرَهُ فِي تَجَلِّيَاتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] قدماء الصوفية العباد الزهاد الذين لم يدخلوا هذه المداخل، وإنما هم عباد وزهاد، وأتقياء لله ﷻ، معروفون، وعلماء أيضا، فيذمونهم.

[٢] ويمدحون علماء الضلال والملاحدة، يقولون: أصحاب أفكار، وأصحاب اطلاع، وأنتم تعادونهم؛ لتقضوا على الفكر النير، وعلى الأفكار الصحيحة. فيقعون في علماء المسلمين، ويمدحون الملاحدة وعلماء الضلال؛ كالحلاج الملحد الكافر الذي يرى أنه هو الله.

---

(١) سبقت ترجمة الجنيد (١/ ٢٩٨)، وترجمة سهل (١/ ٥٥٥).

(٢) الحلاج هو الحسين بن منصور بن مَحْمِي أبو عبد الله ويقال: أبو مغيث، نشأ بواسط، وقيل بتستر، وقدم بغداد، كانت له بداية جيدة، وتأله وتصوف، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السحر، وأراهم المخاريق، أباح العلماء دمه وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة، وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال، وانتحلوه وروجوا به على الجهال. نسأل الله العصمة في الدين، قاله الذهبي، قتل سنة ٣٥٩هـ. انظر: تاريخ بغداد (٨/ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣١٣)، ولسان الميزان (٢/ ٣١٤).

فَإِنَّ الْجُنَيْد - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى، فَسُئِلَ عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: التَّوْحِيدُ إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ. [١].

فَبَيَّنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحْدَثِ، وَبَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. وَصَاحِبُ «الْفُصُوصِ» أَنْكَرَ هَذَا، وَقَالَ فِي مُخَاطَبَتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَهُ: يَا جُنَيْدُ! هَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُحْدَثِ وَالْقَدِيمِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ غَيْرَهُمَا؟ [٢].

الشرح:

[١] الفرق بين المخلوق والخالق إفراد الحدوث - الذين هم الخلق - عن القِدَم - الذي هو من صفة الله ﷻ -؛ ففرق بين الخالق والمخلوق، هذا الجنيد، وهذا قوله في التوحيد، هم يقولون: لا، لا فرق بين الخالق والمخلوق، والتوحيد الإقرار بوحدة الوجود، وأن الوجود كله هو الله، لا انقسام له، فمن قسم الوجود إلى خالق ومخلوق، فهو مشرك، عندهم الشرك هو تقسيم الوجود إلى خالق ومخلوق؛ كما سبق لكم هذا.

[٢] لأن صاحب الفصوص - الذي هو ابن عربي - يرى وحدة الوجود، فينكر على الجنيد أنه يفرق بين الخالق والمخلوق، يقول: لايوجد فرق، وأنت إذا ميزت بينهما، صرت شيئا ثالثا، وهذا انقسام. لايوجد انقسام، الكون كله ما يسميه الخلق. يقول: الكون كله هو الله، ومن قسمه، فهو مشرك، هذا الشرك عند الاتحاديين، الشرك عند الاتحاديين أن تقر بأن هناك

مخلوقًا وخالقًا ، والتوحيد عندهم أن تقول : الكون كله هو الله ، ليس هناك مخلوق وخالق؛ كما أن الشرك عند المعتزلة ومن صار معهم أن من أثبت الصفات يقولون : هذا مشرك ، ومن نفى الصفات قالوا : هذا موحد .

فَخَطَّأَ الْجُنَيْدَ فِي قَوْلِهِ: (إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ)؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُوَ: إِنَّ وُجُودَ الْمُحْدَثِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْقَدِيمِ، [١] كَمَا قَالَ فِي «فُصُوصِهِ» [٢] وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: الْعَلِيُّ، عَلَى مَنْ؟ وَمَا ثَمَّ إِلَّا هُوَ وَعَنْ مَاذَا؟ وَمَا هُوَ إِلَّا هُوَ، فَعَلُوُّهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ، فَالْمُسَمَّى مُحْدَثَاتٌ هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهِ وَلَيْسَتْ إِلَّا هُوَ [٣].

الشرح:

[١] لا فرق.

[٢] كل الكلام الآن في ابن عربي، الذي يمجده بعض الناس، ويثنون عليه، ويطبعون كتبه، ويجلبونها في معارض الكتب.

[٣] يقول صاحب الفصوص - قبحه الله -: من أسماء الله الحسنى العلي، علي على ماذا؟ علي على نفسه، لا يوجد إلا هو، لا يوجد علي، ومن دونه أبدا، هو شيء واحد، حتى ينتقد الله ﷻ في وصف نفسه بأنه العلي.

يقول: علي على من؟ ولا يوجد إلا هو، الكون كله هو، يعلو على نفسه؟! هكذا يقول.

إِلَى أَنْ قَالَ: هُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ، وَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ، وَمَا ثَمَّ مِنْ يَرَاهُ غَيْرُهُ، وَمَا ثَمَّ مَنْ يَنْطِقُ عَنْهُ سِوَاهُ، [١] وَهُوَ الْمُسَمَّى أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ(١). وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمُحْدَثَاتِ. [٢].

فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُلْحِدِ: لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ ثَالِثًا غَيْرُهُمَا، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَلَيْسَ هُوَ ثَالِثٌ، [٣].

الشرح:

[١] كل هذا من كلامه.

[٢] يقول: الله هو أبو سعيد الخراز؛ لأنه لا فرق بين المخلوق والخالق، بعضهم يقول: ما في الجبة إلا الله، ما في الجبة، جبته يعني التي يلبسها، ما فيها إلا الله.

[٣] فالله ﷻ ميز نفسه في الأسماء والصفات، ولا يقال: إن الذي ميز أسماء الله وصفاته غير الله، هو الله ﷻ، وصف نفسه، وسمى نفسه.

---

(١) هو أحمد بن عيسى، أبو سعيد الخراز ينسب إلى خرز الجلود، صحب ذا النون المصري، وبشر الحافي، والسري السقطي، كان من كبار أئمة الصوفية، له تصانيف في علومهم، ويقال عنه: أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفى سنة ٢٨٦هـ، وقيل: ٢٧٧هـ. انظر: الحلية (١٠/ ٢٤٦)، وتاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، وتاريخ دمشق (٥/ ١٢٩) والبداية والنهاية (١١/ ٥٨).

فَالْعَبْدُ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَبْدٌ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ خَالِقِهِ، [١] وَالْخَالِقُ ﷻ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنَّهُمْ عِبَادُهُ، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَالِاسْتِشْهَادُ بِالْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، [٢] وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التِّلِمْسَانِيُّ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحْذَقُهُمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - [٣].

الشرح:

[١] ولهذا يقول شاعرهم:

الْعَبْدُ رَبٌّ وَالرَّبُّ عَبْدٌ   يَا لَيْتَ شِعْرِيْ مَنِ الْمُكَلَّفُ(١)

كيف يكلف وليس هناك فرق؟! العبد هو الرب، والرب هو العبد.

[٢] ولكن لما قيل لهم: هذا يخالف ما في القرآن، قالوا: القرآن شرك؛ لأنه ميز بين الخالق والمخلوق، هذا شرك عندهم، ليس هناك تمييز، الكون كله هو الله، ولا ينقسم.

[٣] هذا التلمساني من أقطاب وحدة الوجود؛ العفيف التلمساني.

(١) انظر: الفتوحات المكية (١/ ٢).

لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ «الْفُصُوصُ»، فَقِيلَ لَهُ: الْقُرْآنُ يُخَالِفُ «فُصُوصَكُمْ»، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ(١)، [١] وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا. [٢] فَقِيلَ لَهُ: فَإِذَا كَانَ الْوُجُودُ وَاحِدًا فَلِمَ كَانَتْ الزَّوْجَةُ حَلَالًا وَالْأُخْتُ حَرَامًا؟ فَقَالَ: الْكُلُّ عِنْدَنَا حَلَالٌ، [٣].

الشرح:

[١] لماذا شرك عندهم؟ لأنه يقسم الكون إلى خالق ومخلوق، وهذا شرك عندهم، والتوحيد عندهم أنه لا يقسم الكون، الكون كله هو الله.

[٢] قيل في كلامهم: إن الكون كله الله، ليس هناك خالق ومخلوق. هذا هو التوحيد عندهم.

[٣] لماذا تميز هذا وهذا؟ الزوجة حلال، والأخت حرام، دل على أن هذا غير هذا، الأخت غير الزوجة، وإلا صار كلها زوجة، وكلها أخت.

التزمَ بهذا، ولهذا يستبيحون نكاح محارمهم؛ لأنه لا فرق بين الأخت والزوجة، الأخت هي الزوجة، والزوجة هي الأخت، وهو الأخت، والأخت هي هو.

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التِّلِمْسَانِيُّ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحْذَقُهُمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ «الْفُصُوصُ»، فَقِيلَ لَهُ: الْقُرْآنُ يُخَالِفُ «فُصُوصَكُمْ»، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ، وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا. والقائل له هو الشيخ كمال الدين المراغي؛ كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٢٤١).

وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا: حَرَامٌ، [١] فَقُلْنَا: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ. [٢] وَهَذَا مَعَ كُفْرِهِ الْعَظِيمِ مُتَنَاقِضٌ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ الْوُجُودَ إِذَا كَانَ وَاحِدًا فَمَنْ الْمَحْجُوبُ وَمَنْ الْحَاجِبُ؟ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ شُيُوخِهِمْ لِمُرِيدِهِ: مَنْ قَالَ لَكَ: إِنَّ فِي الْكَوْنِ سِوَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ. فَقَالَ لَهُ مُرِيدُهُ: فَمَنْ هُوَ الَّذِي يَكْذِبُ؟ [٣].

الشرح:

[١] كلهم عندنا سواء وحلال؛ الأخت، والبنت، والعمة، والخالة، والأجنبية، كلها سواء، لكن الناس قالوا: هذا حلال، وهذا حرام. فنحن جاريناهم في الظاهر، قلنا مثل ما يقولون؛ لأجل ألا يستنكروا علينا.

(**الْمَحْجُوبُونَ**) أتباع الأنبياء؛ يعني: محجوبون عن المعرفة.

[٢] حرام عليكم أنتم؛ لأنكم محجوبون عن المعرفة، أما هم، فليس حراما عليهم.

[٣] مريده رد عليه، مريده يعني: تلميذه، قال الشيخ: من قال لك إن في الكون سوى الله، فقد كذب. الكون عنده هو الله، فمن قال: إن في الكون شيء سوى الله، فهو كاذب، يقول كذا. فقال له تلميذه: إذًا من الكاذب؟ صار الكاذب غير الصادق، صار هناك صادق وكاذب، فصار هناك انقسام، فخصمه تلميذه.

وَقَالُوا لِآخَرَ: هَذِهِ مَظَاهِرُ. فَقَالَ لَهُمْ: الْمَظَاهِرُ غَيْرُ الظَّاهِرِ أَمْ هِيَ؟ فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَهَا فَقَدْ قُلْتُمْ بِالنِّسْبَةِ، وَإِنْ كَانَتْ إِيَّاهَا فَلَا فَرْقَ. [١].

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى كَشْفِ أَسْرَارِ هَؤُلَاءِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ(١)، وَبَيَّنَّا حَقِيقَةَ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، [٢] وَأَنَّ صَاحِبَ «الْفُصُوصِ» يَقُولُ الْمَعْدُومُ شَيْءٌ، وَوُجُودُ الْحَقِّ قَاضٍ عَلَيْهِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ.

وَالْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَعْدُومُ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي الْخَارِجِ - مَعَ ضَلَالِهِمْ - خَيْرٌ مِنْهُ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ خَلَقَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ وُجُودًا لَيْسَ هُوَ وُجُودُ الرَّبِّ. وَهَذَا زَعَمَ أَنَّ عَيْنَ وُجُودِ الرَّبِّ فَاضَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ وُجُودُ مَخْلُوقٍ مُبَايِنٌ لِوُجُودِ، [٣].

الشرح:

[١] هذه الأشياء مظاهر الله؛ يعني: الجبل، والكلب، والحمار، هذه مظاهر الله عندهم؛ لأنه ليس هناك انقسام.

[٢] هذا موجود في مجموع الفتاوى الكبير، فيه الرد عليهم.

[٣] صاحب الفصوص يقول: المعدوم شيء. مع أن المعدوم ليس شيئا،

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤- ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين. وانظر كلام شيخ الاسلام رحمه الله في: أمراض القلب وشفاؤها (ص ٦٤)، والاستقامة (١/ ١٢٣)، والتحفة العراقية (ص ٦٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٣)، والفرقان (١٠٦، ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٦٦، ٥/ ١٢٦).

الشيء هو الموجود فقط، هو يقول: لا، حتى المعدوم يسمى شيئا. فوجود الخالق هو وجود المخلوق.

وَصَاحِبُهُ الصَّدْرُ الْقُونَوِيُّ[1] يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلْسَفَةِ، فَلَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ، لَكِنْ جَعَلَ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ،[١] وَصَنَّفَ «مِفْتَاحَ غَيْبِ الْجَمْعِ وَالْوُجُودِ»[2].

وَهَذَا الْقَوْلُ أُدْخِلَ فِي تَعْطِيلِ الْخَالِقِ وَعَدَمِهِ، [٢].

الشرح:

[١] كل موجود لابد مقيد، هم يقولون: لا، وجود مطلق، ليس مقيدًا، وهذا لا يوجد في الخارج، إنما هذا في الذهن، تصور الذهن فقط.

[٢] تعطيل الخالق يعني: نفي الخالق، يقولون: لا يوجد خالق ومخلوق، كل الكون هذا هو الخالق، وهو الله.

---

(١) صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد القونوي الرومي، من كبار تلاميذ ابن عربي، ومن كبار مشايخ الإتحادية، وهو شيخ التلمساني، توفي سنة ٦٧٣هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٤٥).

(٢) يوجد منه نسخة في جامعة الملك سعود تحت رقم ٢٦٧٧/ ١، وانظر كشف الظنون (٢/ ١٧٦٨).

فَإِنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ -وَهُوَ الْكُلِّيُّ الْعَقْلِيُّ- لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ،[١] وَالْمُطْلَقِ لَا بِشَرْطٍ -وَهُوَ الْكُلِّيُّ الطَّبِيعِيُّ- وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، فَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا، وَهُوَ جُزْءٌ مِنْ الْمُعَيَّنِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِثُبُوتِهِ فِي الْخَارِجِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الرَّبِّ إِمَّا مُنْتَفِيًا فِي الْخَارِجِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنُ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ. [٢] وَهَلْ يَخْلُقُ الْجُزْءُ الْكُلَّ، أَمْ يَخْلُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، أَمْ الْعَدَمُ يَخْلُقُ الْوُجُودَ، أَوْ يَكُونُ بَعْضُ الشَّيْءِ خَالِقًا لِجَمِيعِهِ؟! [٣] وَهَؤُلَاءِ يَفِرُّونَ مِنْ لَفْظِ الْحُلُولِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي حَالًا وَمَحَلًّا، [٤].

الشرح:

[١] لا يكون في الخارج أبدا شيء موجود مطلق، لا يمكن، الموجود لازم له أوصاف تقيده، فهم يقولون: الله هو الوجود المطلق، ليس له أسماء ولا صفات. هذا محال، لا شيء في الكون يكون بدون أسماء ولا صفات، أقل الأحوال يقال: إنه موجود، والوجود صفة.

[٢] يعني: لا في الوجود، الأعيان يعني: الوجود.

[٣] كل هذه أقوال محالة باطلة، لكنها تلزم على قولهم.

[٤] لا يقولون بالحلول؛ الحلولية يقولون: هناك خالق ومخلوق، لكن الخالق حال في المخلوق، داخل في المخلوق، أما أهل الوحدة،

فيقولون : لا ، ليس هناك حال ومحل ؛ لأن هذا تفريق ، هم أغرق في الضلال من الحلولية ، مع كفر الحلولية .

وَمِنْ لَفْظِ الِاتِّحَادِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ اتَّحَدَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَعِنْدَهُمْ الْوُجُودُ وَاحِدٌ. [١] وَيَقُولُونَ: النَّصَارَى إِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا خَصَّصُوا الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، وَلَوْ عَمَّمُوا لَمَا كَفَرُوا. [٢] وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي عُبَّادِ الْأَصْنَامِ: إِنَّمَا أَخْطَئُوا لَمَّا عَبَدُوا بَعْضَ الْمَظَاهِرِ دُونَ بَعْضٍ، فَلَوْ عَبَدُوا الْجَمِيعَ لَمَا أَخْطَؤُوا عِنْدَهُمْ. [٣].

الشرح:

[١] فلا يقال لهم: أهل الاتحاد، وإنما يقال لهم: أهل الوحدة، لا أهل الاتحاد؛ لأن الاتحاد معناه: أن يكون شيئان اتحدا واختلطا، وهم لا يرون ذلك.

[٢] النصارى كفروا؛ لأنهم خصصوا المسيح بأنه الله، مع أن المسيح والله شيء واحد، ما يقال: هذا الله، وهذا المسيح؛ لأن الكون كله واحد، ويقولون: فرعون إنما كفر؛ لأنه قال: أنا ربكم الأعلى، مع أن الكون كله هو الرب، فهو خص نفسه. إنما كفر عباد الأصنام؛ لأنهم فرقوا، وقالوا: إن الأصنام أرباب وإن ما عداها عبيد، فهم ضلوا من هذا الباب.

[٣] لو عبدوا الكون كله، ما أخطؤوا، لكن إذا عبدوا الأصنام، هذه بعض من الكون، فيكونون بعَّضوا، وهذا شرك عندهم.

وَالْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ عِنْدَهُمْ لَا يَضُرُّهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، [١] وَهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَفِيهِ مَا يَلْزَمُهُمْ دَائِمًا مِنْ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: فَمَنْ الْمُخْطِئُ؟ لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ النَّقَائِصِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ. [٢] وَيَقُولُونَ: إنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تُوصَفُ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْخَالِقُ، [٣].

الشرح:

[١] لا يضره عبادة الأصنام؛ لأنه ما عبد إلا الله، حتى لو عبد الكلب والخنزير، يقولون: هذا ما عبد إلا الله؛ لأن هذه مظاهر لله ﷻ.

[٢] لا فرق بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق مع نقائصه وما فيه من العيوب يقولون: هو الله. جل الله عن ذلك.

[٣] لأنها هي هو، لا فرق بينهما.

وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ»: فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْكَمَالُ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ بِهِ جَمِيعَ النُّعُوتِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنِّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً عُرْفًا أَوْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا، أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمُسَمَّى اللَّهِ خَاصَّةً(١) [١].

وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ هَذَا لَا يَنْدَفِعُ عَنْهُمُ التَّنَاقُضُ، فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ، [٢].

الشرح:

[١] كل هذه ضلالات وإلحاد، لكن الشيخ رحمه الله يريد أن يسد عليهم الطريق من كل النواحي، ويبطل رأيهم، مع أنه باطل في البداهة، لكن هؤلاء لما كان لهم وجود، ويوصفون بالعباد، والعلماء، وأصحاب الأفكار، كان لابد أن الشيخ يبين ضلالهم، ويبين تناقضاتهم؛ لأنهم لو تركوا، لموهوا على الناس.

[٢] ما زال الكلام في مناقشة الشيخ رحمه الله لأهل وحدة الوجود، فيقول لهم: إن مذهبهم يخالف الحس والعقل؛ كما هو مخالف للشرع، فمعلوم انقسام الكون إلى خالق ومخلوق، ومخلوقات أيضا مختلفة، فليس الكلب هو الفيل، وليس الخنزير هو الشاة والعنزة، كل شيء مختلف عن الآخر، فكيف يقال: الكون شيء واحد ولا ينقسم، وهذا هو التوحيد؟! معلوم أن

(١) انظر: الفصوص لابن عربي (١/ ٧٦).

هذا غير ذاك في كل شيء:

أولًا: الخالق والمخلوق.

ثانيًا: المخلوقات لاشك أنها مختلفة ومتفاوتة، وليست شيئا واحدًا، فلا يقبل هذا عقل من عقول البشر، ولكن الضلال -والعياذ بالله- إذا أخذ في عقول الناس، جاؤوا بالغرائب، ولا يأنفون من أنهم يخالفون العقول والفطر، فضلا عن أنهم يخالفون الشرائع والوحي المنزل، فهذا كفر ما بعده كفر، كفر أهل وحدة الوجود ليس بعده كفر، هم أكفر أهل الأرض.

وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التِّلِمْسَانِيُّ: إِنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ. [١] وَيَقُولُونَ: مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ -يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ- فَلْيَتْرُكْ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ. [٢].

الشرح:

[١] هم يقولون: ما علينا من العقل، نحن ثبت عندنا بالكشف، الذي دلهم على هذه الأمور كشفهم، اكتشافهم الأشياء، ويظنون أنهم اختصوا بكشف لم يكتشفه غيرهم، فهم لا يبالون بالعقول، ويقولون: نحن نعتمد على ما كشف لنا من الأسرار. وهل الإنسان في غنية عن العقل؟ هل الإنسان في غنية عن الشرع؟ هذا جهل، ليس في غنية عن الشرع، مهما أوتي من الذكاء، ومن الفطنة، ومن. . . ، فإنه لن يستغني عن عقله، ولن يستغني عن الشرع المنزل.

[٢] من أراد التحقيق - الذي هو تحقيقهم -، فليترك العقل، ويترك الشرع. إذًا ماذا بقي؟ إذا ترك العقل، وترك الشرع، ماذا تكون نهايته؟ تكون أحط من المجانين، كيف يرضى إنسان أن يصل إلى هذه الدرجة، أن يلغي العقل، ويلغي الشرع، ويقول: هذا هو التحقيق. أما العقل، فلا يوجد تحقيق، والشرع ليس هناك تحقيق، هذا منتهى الضلال.

وَقَدْ قُلْتُ لِمَنْ خَاطَبْته مِنْهُمْ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَشْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ وَأَتَمُّ مِنْ كَشْفِ غَيْرِهِمْ، [١].

الشرح:

[١] ما يكشفه الله للأنبياء مما لا يكشفه لغيرهم، وما يختصهم به من الغيب الذي لا يعلمه غيرهم، الذي أعطاهم الله؛ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فقد يطلع الله رسوله على شيء من الغيب لمصلحة البشر، فليس هناك كشف أعظم مما أوتيه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، لكن هؤلاء يقولون: نحن فوق الأنبياء، ونحن أفهم من الأنبياء، بل بعضهم - كما سبق - يقول: الأنبياء يأخذون منا. فإذا وصل الأمر بالإنسان إلى هذا الحد، فلا فائدة من مخاطبته؛ لأنه لا يريد الحق، والذي لا يريد الحق مهما جادلته، ومهما أقمت له من البراهين والأدلة، فلن يقتنع، ولن يقبل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، لا يسمعون للشرع، ولا يعقلون في عقولهم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فالأنعام تدرك مصالحها، وتدرك ما تقوم به حياتها، أما هؤلاء، فقد هبطوا عن مستوى الأنعام السائمة، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وَخَبَرُهُمْ أَصْدَقُ مِنْ خَبَرِ غَيْرِهِمْ، [١] وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ بِمَا تَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لَا بِمَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، [٢].

الشرح:

[١] لأن الأنبياء لا يأتون بشيء من عندهم، أو يعتمدون على عقولهم ومداركهم، وإنما الأنبياء يتلقون عن الله ﷻ وحيه، وأمره، ونهيه، فهم أعظم الخلق، أعظم الخلق علما، وأعظمهم كشفا، وأعظمهم عقولا، وما جاؤوا بهذا الذي جاء به أهل وحدة الوجود.

[٢] الأنبياء يأتون بما يحير العقول، ولا يأتون بما يخالف العقول السليمة، ولهذا للشيخ كتاب من أعظم كتبه فيه موافقة العقل للشرع، فقال: العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح[١]، العقل الصريح السليم لا يخالف النقل الصحيح، فإن اختلف العقل والنقل، فلابد إما أن النقل غير صحيح، وإما أن العقل غير صريح، هذه قاعدة، فالأنبياء ما جاؤوا بما يخالف العقول، قد جاؤوا بما تعجز عنه العقول، ولاتدركه العقول، أما أن يأتوا بشيء يخالف العقول السليمة، فهذا لن يكون أبدا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٦٥).

فَيُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ(١) الْعُقُولِ لَا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ، [١] وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إِخْبَارِ الرَّسُولِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ، [٢] وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَعَارَضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَّانِ؛ سَوَاءٌ كَانَا عَقْلِيَّيْنِ أَوْ سَمْعِيَّيْنِ، أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا، [٣].

الشرح:

[١] يعني: ما يحيرها؛ أمور الآخرة، وأمور لا تدركها العقول.

[٢] لا يأتون بشيء لا تجيزه العقول، لكن يأتون بشيء تتحير فيه العقول؛ لأن العقول مخلوقة قاصرة، لا تدرك كل شيء.

[٣] هذا معنى القاعدة: موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، لا يختلفان أبدا.

ولا يتعارض دليلان صحيحان أبدا، الأدلة الصحيحة لا تتعارض، لكن العقل قد يعجز عن التوفيق بينها، وهي في نفس الأمر لا تتعارض أبدا، إذا كان أحد الدليلين غير قطعي، وإنما هو ظني، فإنه قد يتعارض، أو يظهر

---

(١) في بعض النسخ (بمحارات) أي ما تحار فيه العقول.
وقد استعمل شيخ الإسلام ﷺ هذه العبارة في العديد من رسائله وكتبه، فقال في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٣٣): «ولكن يجب الفرق بين ما يقصر العقل عن دركه وما يعلم العقل استحالته، . . . بين محارات العقول، ومحالات العقول». وانظر أيضًا الجواب الصحيح (٤/ ٣٩١).

تعارضه مع القطعي، أما إذا كان الدليلان قطعيين - عقليين أو شرعيين -، أو أحدهما عقلي والآخر شرعي، فلن يتعارضا أبدا؛ لأن الشرع تنزيل من حكيم حميد، وهو الذي خلق العقول، فلا يتعارض أبدا دليلان قطعيان، أما إذا كانا غير قطعيين، فقد يختلفان. والسمعي المراد به: الوحي.

فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى كَشْفًا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ؟ [١] هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ، [٢] لَكِنْ يُخَيَّلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ تَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَظُنُّونَهَا فِي الْخَارِجِ، [٣].

الشرح:

[١] فكيف بمن أتى بشيء يزعم أنه يخالف العقل، ويخالف الشرع، وهو الكشف - كشف وحدة الوجود -، هذا باطل.

[٢] هؤلاء أهل ضلال وأهل إلحاد، لكن بعضهم لا يتعمد الكذب، وإنما يخيل إليه أن ما ذهب إليه صحيح، ويكون مخطئا، أما الذي يتعمد الإلحاد والكذب، فهذا لا فائدة في مخاطبته، إنما الكلام في الذي لم يتعمد، هذا هو الذي يناظر، ويبين له، وربما يرجع إلى الصواب، فهم على قسمين:

القسم الأول: الذي لم يتعمد الكذب، فهذا فيه رجاء أنه إذا نوقش، وبُين له خطؤه أن يقبل؛ ولهذا كان الشيخ يناظر بعضهم.

القسم الثاني: المتعمد الذي يعلم بطلان ما هو عليه، ولكنه يتعمد المضي فيه، فهذا لا فائدة في مخاطبته.

[٣] يأتيهم تخيلات في أنفسهم، ويظنون أنها صحيحة، وأنها واقعة في الخارج، يعني: واقعة وموجودة، وهي غير موجودة.

وَأَشْيَاءُ يَرَوْنَهَا تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ يَظُنُّونَهَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَتَكُونُ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ. [١] وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوَحْدَةِ قَدْ يُقَدِّمُونَ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، [٢].

الشرح:

[١] قد يظنون أنها موجودة في الخارج، وأنها كرامات من كرامات الأولياء، وهي في الواقع ليست من كرامات الأولياء - أولياء الرحمن - وإنما هي من فلسفات وخرافات أولياء الشيطان.

[٢] (الوحدة) يعني: وحدة الوجود، وأنه لا انقسام في الكون.

الذين يقولون بوحدة الوجود إذا قيل لهم: الأنبياء جاؤوا بخلاف ما تقولون. قالوا: الأولياء، يقصدون بالأولياء أصحابهم، يقولون: أولياء؛ لأن عندهم هذه الشبهات، ومخاريق الشيطان، فيقولون: نحن أفضل من الأنبياء، الأنبياء ما أدركوا ما أدركنا، ولا وصلوا إلى ما توصلنا إليه، والأنبياء إنما جاؤوا للعوام، ولم يأتوا إلينا؛ لأننا لسنا بحاجة إليهم، نحن أدركنا وعرفنا، فلسنا بحاجة إلى الأنبياء، إنما الأنبياء للعوام الذين ما أدركوا، ولا وصلوا إلى ما وصلنا إليه، وهؤلاء يسمونهم خاصة الخاصة؛ لأنهم عرفوا ووصلوا بمداركهم ومعلوماتهم إلى شيء لم يصل إليه الأنبياء،

ولذلك يفضلون الولي على النبي، فيقولون:

مَــقَــامُ الــنُّــبُــوَّةِ فِي بَــرْزَخٍ فُـوَيْـقَ الـرَّسُـولِ وَدُونَ الْـوَلِـيِّ[١]

الولي أعلى مرتبة عندهم.

(١) سبق عزوه (١/ ٤٨٢).

وَيَذْكُرُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ، كَمَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ سَبْعِينَ(١) وَغَيْرِهِ، [١] وَيَجْعَلُونَ الْمَرَاتِبَ ثَلَاثَةً، [٢] يَقُولُونَ: الْعَبْدُ يَشْهَدُ أَوَّلًا طَاعَةً وَمَعْصِيَةً، [٣].

الشرح:

[١] يقولون: النبوة لم تنقطع، وليس محمدٌ ﷺ خاتمَ النبيين، بل النبوة مستمرة إلى يوم القيامة، يبعث الله أنبياء، ففتحوا الباب للكذابين والمدعين للنبوة.

[٢] يتدرج فيها، ويترقى.

[٣] هذه أول مرتبة، وهي مرتبة العوام الذين يفرقون بين الطاعة والمعصية.

---

(١) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين أبو محمد نزيل بجاية ثم مكة اشتهر بالزهد والسلوك، وكانت له بلاغة، وبراعة، وتفنن في العلوم، وكثر أتباعه، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنف فيه، جاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٦١)، ولسان الميزان (٣٣٩٢).

ثُمَّ طَاعَةً بِلَا مَعْصِيَةٍ، [١] ثُمَّ لَا طَاعَةَ وَلَا مَعْصِيَةَ، [٢] وَالشُّهُودُ الْأَوَّلُ هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، [٣].

الشرح:

[١] يقولون: كل ما يفعله الإنسان فهو طاعة، لأنه إن عصى أمره، فقد أطاع قدره، إن عصى الأمر، فقد أطاع القدر، فهو مطيع لله على كل حال:

أَصْبَحَتْ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ   مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ(١)

[٢] ثم يتحرر الإنسان عندهم، هذا أعلى الدرجات، وهو في الحقيقة أسفل الدرجات، يقولون: هذا أعلى الدرجات الذي ما يشهد طاعة ولا معصية، تحرر، وليس لأحد عليه أمر ولا نهي.

[٣] لكن هذه يقولون: مرتبة العوام، والذين ما يميزون وأتباع الأنبياء، الذين يفرقون بين الطاعة والمعصية، وهو الصحيح، هو عندهم ليس الصحيح، لكن في الواقع أنه هو الصحيح، لابد أن الأفعال تكون بعضها طاعة، وبعضها معصية، فليس السجود والتسبيح والتهليل مثل: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

---

(١) هذا البيت نسبه شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٢٥٧) إلى محمد بن سواء بن إسرائيل الشاعر الصوفي الشيباني، المعروف بنجم الدين بن إسرائيل، تعانى الأدب، وصحب الشيخ الحريري، واقتدى به منذ بلوغه الحلم، وسلك في النظم طريق ابن الفارض، وزاد عليه في اللطف والانسجام، وحذا حذوه في الاتحاد لكنه يصرح وابن الفارض يلوح، توفي سنة ٦٧٧هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٣)، ولسان الميزان (٥/ ١٩٥).

وَأَمَّا الشُّهُودُ الثَّانِي، فَيُرِيدُونَ بِهِ شُهُودَ الْقَدَرِ، [١] كَمَا أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ: أَنَا كَافِرٌ بِرَبٍّ يُعْصَى(١)، [٢].

الشرح:

[١] يقولون: الشرع والقدر شيء واحد، فالإنسان إذا فعل شيئا، فإن كان مخالفا للشرع، فهو مطيع للقدر، فهو مطيع لله، إذا عصى أمره، فقد وافق قدره.

[٢] يعني: ولا يقدر أن يمنع العاصي، يقول: أنا كافر برب يعصى، ولا يمنع العاصي. الله ﷻ أعطى العباد الاختيار: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢] سميع وبصير، يميز بين الأشياء: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأن الله أعطى العباد القدرة والمشيئة والاختيار، فهم يفعلون بمشيئتهم الطاعة، ويفعلون بمشيئتهم واختيارهم المعصية، ليسوا مجبرين على فعلهم، الإنسان باستطاعته أن يصلي ويذهب إلى المسجد، وباستطاعته أن يذهب إلى الخمارة، ويشرب الخمر، باستطاعته هذا، الله أعطاه هذا، ورتب على أفعاله الجزاء الثواب والعقاب. (كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يعصى)؛ لأنه ليس هناك رب يعصى، كل ما يصدر من المخلوق، فهو طاعة له؛ فلا معصية ولا طاعة.

---

(١) نسبه شيخ الإسلام للحريري، انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧).

وَهَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مُخَالَفَةُ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ الْمَشِيئَةُ. [١]. وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ دَاخِلُونَ تَحْتَ حُكْمِ الْمَشِيئَةِ، [٢] وَيَقُولُ شَاعِرُهُمْ(١): [٣]

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلاً لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ

الشرح:

[١] المعصية مخالفة القدر، وهل أحد يخالف القدر؟ ما يستطيع أحد أن يخالف القدر. (المشيئة) المشيئة الكونية القدر.

[٢] يقصد القدرية؛ لأنه لا توجد مشيئة شرعية، المشيئة كلها قدرية، بخلاف إرادة الله؛ فمنها ما هو قدري، ومنها ما هو شرعي.

[٣] أنا أفعل بموجب القدر، فأكون مطيعا على كل حال، إن زنا، وإن صلى، كله طاعة؛ لأنه موافق للقدر. ويقول آخر:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ

(**وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ**)؛ يعني: كلام الله، (**سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ**)؛ يعني: النثر والنظم كله كلام الله، والكذب والصدق كله كلام الله. تعالى الله عما يقولون!

---

(١) سبق (ص ٨٩).

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ(١)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ [١] فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبَهَا الذَّمُّ وَالْعِقَابُ مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [٢].

الشرح:

[١] بلا شك، مع أن الله فرق بين القدر وبين الشرع، سيأتي قوله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] بين الخلق والأمر فرق. هناك فرق بين المعصية والطاعة.

[٢] المعصية مخالفة الأمر الشرعي، الله أمر بالطاعة، وأمر بالعبادة، وأمر بصلة الأرحام، وأمر ببر الوالدين، هذا الأمر الشرعي. أما القدري، فهذا لا حجة فيه لأحد، هذا فعل الرب ﷻ، ونحن لانخاصم الرب ونجادل الرب، إنما نجادل أنفسنا، ونحاسب أنفسنا: لماذا فعلت كذا؟ ولماذا تركت كذا؟ فأنت لا تجعل نقاشك مع رب العالمين، وإنما تجعل نقاشك ومحاسبتك مع نفسك: لماذا فعلت كذا؟ لماذا تركت كذا، وأنا أقدر على فعله، وأقدر على ترك كذا؟ لماذا ضيعت وقتي، وأنا مأمور بحفظه؟ هكذا، أنت حاسب نفسك، اشتغل بمحاسبة نفسك، ولا تشتغل بالقضاء والقدر، ومحاسبة القضاء والقدر؛ هذا شأن الله ﷻ.

---

(١) ينسب هذا البيت لابن عربي. انظر: الرد على البكري (١/ ٣٤٣)، ودرء التعارض (١/ ٣٥٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٩).

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤]، [١].

الشرح:

[١] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ حدوده محارمه التي حدها لعباده، فلا تتعدى، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ يعني: المحرمات، وأيضا حدود الله هي المباحات، حدود الله التي هي المحرمات لا تقرب: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، وأما المباحات، فهي لا تتعدى، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وَسَنَذْكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، وَالْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ وَالدِّينِيِّ. [١].

الشرح:

[١] الإرادة إرادتان: إرادة كونية، وهي التي يخلق الله بها الأشياء، ويوجد بها الأشياء، وهذه لابد من وقوعها، أما الإرادة الشرعية، فهي الأمر والنهي: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]، هذه إرادة شرعية، وهذه الإرادة الكونية ليس من لازمها المحبة، فقد يريد الله شيئا، وهو لا يحبه، لكن لحكمة وللابتلاء وللامتحان، وأما الشرعية، فإنه يحبها: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، فالإرادة الشرعية يحبها الله، وأما الإرادة الكونية، فقد يحبها، وقد لا يحبها، **هذا فرق**.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية، لابد من وقوعها، وأما الإرادة الشرعية، فقد تقع، وقد لا تقع، فالله أراد من عباده الإيمان، فبعضهم يؤمن، وبعضهم لا يؤمن، أراد منهم الإيمان الإرادة الشرعية، لكن بعضهم يؤمن، وبعضهم لا يؤمن، قد تقع، وقد لا تقع، بخلاف الكونية؛ لابد من وقوعها.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ الصُّوفِيَّةِ، فَبَيَّنَهَا الْجُنَيْد رَحِمَهُ اللهُ، [١] مَنْ اتَّبَعَ الْجُنَيْد فِيهَا كَانَ عَلَى السَّدَادِ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَفِي شُهُودِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَهَذَا يُسَمُّونَهُ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ، فَبَيَّنَ لَهُمْ الْجُنَيْد أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ شُهُودِ الْفَرْقِ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّهُ مَعَ شُهُودِ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُشْتَرَكَةً فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، [٢].

الشرح:

[١] الجنيد -كما سبق- من الصالحين، ومن العباد، والزهاد، ولم يحصل منه شطحات؛ مثل ما حصل من الصوفية المتأخرين.

[٢] يقولون: لا يوجد إلا مشيئة الله وقدرة الله، والذي يعرف هذا هو الموحد، ويجحدون الإرادة الكونية والأوامر الشرعية، فهم يفسرون الطاعة بأنها موافقة القدر؛ لأن أهل العلم وأهل الإيمان يقولون: الطاعة موافقة الأمر والشرع، وليست موافقة القدر، موافقة القدر قد تكون طاعة، وقد تكون معصية، بخلاف موافقة الشرع، فإنه لا يكون إلا طاعة لله ﷻ، فهناك فرق بين الشرع وبين القدر، ولهذا يقول قائلهم: إن عصيت أمره، فقد وافقت قدره؛ فأنا مطيع له.

يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ، [١].

الشرح:

[١] فما كل ما أراده الله وقدّره، فإنه يحبه، وهو قدَّر الكفر، وقدَّر الإيمان، قدَّر الطاعة، وقدَّر المعصية، فهو يحب هذا، ويبغض هذا، بخلاف الشرع؛ فإنه لا يشرع إلا ما يحبه، ولا يشرع ما يبغضه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، لما قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فيزعمون أن الله أمرهم بكشف العورات في الطواف: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، الله ﷻ رد عليهم، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩]؛ بالعدل، بالطاعة، هذا الذي أمر الله ﷻ به: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، هذا رد عليهم لقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ يعني: شرعها لنا، فالله رد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩] أخلصوا لله في كل صلاة، في كل عمل.

وَيُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، [٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، [٣].

الشرح:

[١] هم يقولون: لا فرق بين المطيع والعاصي، كلهم أطاعوا الله ﷻ؛ أطاعوا قدره ومشيئته، وكلهم مطيعون. وهذا كذب على الله، الله ﷻ قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٢] وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، هذا استفهام إنكار، إن الله لا يجعلهم سواء.

[٣] وقال ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾، فالله ﷻ لا يجعل الذين اجترحوا السيئات مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فدل على الفرق بين القدر وبين الشرع.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]. [١].

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، [٢].

الشرح:

[١] وقال ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وما يستوي أعمى البصيرة، ليس أعمى البصر، بل أعمى البصيرة، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ البصير في قلبه المهتدي المطيع، ما يستويان؛ مثل قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾؛ لا يستوي الذي آمن وعمل الصالحات مع المسيء، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فالذي لا يفرق بين المطيع والعاصي، ويقول: كلهم عبدوا الله، وكلهم أطاعوا الله، أطاعوا قدره وأمره الكوني، فهم كلهم مطيعون. هذا كذب على الله ﷻ.

[٢] الله رب كل شيء، خالق الكافر والمؤمن، وخالق الطاعة والمعصية وخالق الكفر والإيمان، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ لأجل ابتلاء العباد، وامتحان العباد: أيهم الذي يلزم شرع الله وأمره ونهيه، أو الذي يفجر ويفسق، ويقول: هذا قدره الله عليَّ؟ ليس له حجة في القدر.

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَمَرَ بِالطَّاعَةِ، وَنَهَى عَنْ الْمَعْصِيَةِ، [١] وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، [٢].

الشرح:

[١] الله ﷻ خالق كل شيء، ومع هذا أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية؛ فذاك شيء، وهذا شيء آخر، ما يخلط بينهما. فرق بين الأمر، وفرق بين الشرع، فرق بين الخلق، الله خالق كل شيء، فرق بينه وبين الشرع.

مع كونه قدر وشاء ما يقع من الطاعة والمعصية؛ فرق بين هذا وهذا؛ مما يدل على الفرق بينهما.

[٢] مع كونه قضى وقدر كل ما يقع في الكون من خير أو شر، فهو مع ذلك أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فدل على الفرق بين الأمرين: الذي من قبل الله، والذي من قبل العباد، فرق بينهما: فالذي من قبل الله محمود على كل حال، وأما الذي من قبل العباد، فمنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. كما قال ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وإنما يرضى لهم الإيمان، هم يقولون: لا، الله رضي الكفر والإيمان، بدليل أنه قدر هذا وهذا.

وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، [١] وَإِنْ كَانَتْ وَاقِعَةً بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا، وَيَذُمُّ أَهْلَهَا، وَيُعَاقِبُهُمْ. [٢].

الشرح:

[١] ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، التي هي كشف العورة، يقولون: هذا أمر الله به، يكذبون على الله ﷻ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ثم قال بعدها: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ أي: استروا العورة عند كل صلاة، من شروط صحة الصلاة والطواف ستر العورة، فالله أمر بستر العورة، ولم يأمر بكشفها؛ لأن كشفها فاحشة، والفاحشة: هي ما تناهى قبحه. وسترها طاعة، والطاعة كلها خير.

[٢] كما سبق أنه لا يلزم من القضاء والقدر أن الله يحب ما قضى وقدر، بل قد يحبه، وقد يبغضه ويكرهه، إذًا قد يقال: لماذا قدره، وهو يبغضه ويكرهه؟ نقول: لأجل الابتلاء والامتحان؛ حتى يتميز المطيع من العاصي والمؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، ترك للعباد المجال للاختيار والمشيئة، وأمكنهم، وأعطاهم القوة والقدرة، فهو يقدر أن يصلي، ويقدر أن يزني، أعطاه الله قدرة، يقدر على ترك الزنا، وفعل الصلاة، ما أحد أجبره على هذا، فلماذا ينسى قدرته، وما أعطاه الله من الإمكانية، ويحتج بالقضاء والقدر، الذي قضى وقدر لا يرضى بالفحشاء، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر.

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: [١] أَنْ لَا يَشْهَدَ طَاعَةً وَلَا مَعْصِيَةً، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ، [٢].

الشرح:

[١] قالوا: المراتب ثلاث:

أولًا: أن يشهد معصية وطاعة.

الثانية: أن يشهد طاعة بلا معصية، فيقول: كل ما يفعله، فهو طاعة. ما عنده تقسيم؛ لأن الله قدره وقضاه. لكن نقول: الله قدره وقضاه، لكن لم يشرعه، الله لم يشرعه، ونحن مطالبون بما شرعه الله، أما القضاء والقدر، فهذا إلى الله ﷻ.

الثالثة: ألا يشهد طاعة ولا معصية، يقول: ليس هناك طاعة ولا معصية أصلا، والكون كله سواء، ليس هناك مخلوق ولا خالق. وهؤلاء أهل وحدة الوجود.

[٢] هذا مذهب وحدة الوجود، كيف تكون الأفعال متفاوتة، وكيف تكون الطاعة والمعصية متفاوتتين، والكون كله شيء واحد، وليس متفاوتًا؟! وهذا لا يوجد.

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّحْقِيقِ وَالْوِلَايَةُ لِلَّهِ؛ [١] وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَايَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَغَايَةُ الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ، [٢] فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْمَشْهَدِ يَتَّخِذُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ، [٣].

الشرح:

[١] إذا بلغ العبد هذه المرتبة، فهو في غاية التحقيق والولاية لله، وهو التوحيد عندهم، هذا هو التوحيد، والواقع أن هذا هو الكفر الذي ليس بعده كفر، أعظم من كفر فرعون، وهامان، وقارون، وأبي جهل؛ لأن هؤلاء مع كفرهم يعترفون أن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر. هؤلاء يقولون: لا، ليس هناك محيي ولا مميت، ولا مدبر، والكون كله سواء، لا ميزة لبعضه على بعض.

[٢] غاية الإلحاد، والإلحاد هو أعظم الكفر، الإلحاد في اللغة(١): الميل عن الشيء، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه مائل عن سمت القبر، هذا في اللغة، أما الإلحاد في الشرع، فهو الميل عما شرعه الله، وأمر به.

[٣] لأنه ليس هناك فرق بين هذا وهذا، بل ليس عندهم مسلم وكافر؛ لأن الكون كله واحد، ليس هناك مسلم وكافر.

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٦): «(لَحَدَ) اللَّامُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَيْلٍ عَنِ اسْتِقَامَةٍ. يُقَالُ: أَلْحَدَ الرَّجُلُ، إِذْ مَالَ عَنْ طَرِيقَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ. وَسُمِّيَ اللَّحْدُ لِأَنَّهُ مَائِلٌ فِي أَحَدِ جَانِبَيِ الْجَدَثِ» وانظر مادة (لحد) في: مختار الصحاح (١/ ٢٨٠)، ولسان العرب (٣/ ٣٨٨).

هذه المصيبة، هذا واقع الآن، يقولون: لا تفرقوا بين يهود ونصارى ومسلمين؛ كلهم أهل أديان، وكلهم يعبدون الله، وكلهم أتباع للأنبياء. ويكذبون على الله ﷻ، بعد بعثة محمد ﷺ لا نبي إلا هو ﷺ، انتهت الشرائع، ليس هناك شريعة إلا شريعة محمد ﷺ، فأهل وحدة الوجود يقولون: كلهم سواء: اليهودي، والنصراني، والمسلم، كلهم مطيعون لله، فهذه مصيبة؛ كقول هؤلاء الذين يتمتمون الآن بالتقارب بين الأديان، تشبه قول أهل وحدة الوجود، بأنه لا تمايز بين دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، وأنهم كلهم إخوان، ولذلك بعضهم سمعته - وهو يزعم أنه من الدعاة إلى الله - يقول: إخواننا المسيحيون، أعوذ بالله!

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، [١]

الشرح:

[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]؛ تحبونهم، وتناصرونهم: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ أي: يحبهم، ويناصرهم، ويسوغ ما هم عليه، يقول: إنهم على حق، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ يصبح يهوديًا أو نصرانيًا؛ لأنه لم يفرق بين الكفر والإيمان، فهو مثل أهل وحدة الوجود، ما يفرقون بين الطاعة والمعصية والإيمان، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، لا يهدي القوم الظالمين، انظر: الظالمين بسبب ظلمهم منعهم الله من الهداية عقوبة لهم، وأما المؤمنون، فإن الله يهديهم؛ لأنهم أرادوا الهداية، وطلبوها.

وَلَا يَتَبَرَّأُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ، فَيَخْرُجُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صلوات الله وسلامه عليه، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، [٢].

الشرح:

[١] ولا يفرق بين الكفر والإيمان؛ كما فرقت ملة إبراهيم، وإبراهيم تبرأ من الكفار - حتى من أبيه -، لما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه، فلابد من الولاء والبراء في الإسلام: موالاة المؤمنين، والبراءة من المشركين، أما الذين كلهم عنده سواء: اليهود، والنصارى، والمسلمون، فهذا ما عنده ولاء ولا براء.

[٢] يقول الله ﷻ لهذه الأمة المحمدية: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ يعني: طيبة، الأسوة إما أن تكون حسنة، وإما أن تكون سيئة، قدوة في الخير أو قدوة في الشر، لكن إبراهيم ﷺ قدوة حسنة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ الذين اتبعوه وآمنوا به، ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبرؤوا منهم ومن دينهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾؛ لاتقارب بيننا وبينكم، ولا نقول: تقاربوا مع اليهود والنصارى. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، لن تذهب هذه العداوة والبراءة إلا إذا آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ

بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه وامتنع، قال: لأستغفرن لك. فهذه لا يقتدى به فيها، وقد تبرأ منه في آخر الأمر: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، قال: لأستغفرن لك، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبرأ حتى من أبيه لما تبين له أنه عدو لله، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لا يحبونهم أبدا، إنما إذا كانوا آباءهم، يبرون بهم، من باب المعاملة بالحسنى، لا يحبونهم، ولكن يبرون بهم؛ لأن لهم عليهم حقا من البر، ولو كانوا كفارًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥] في الدنيا، وليس في الدين، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥]، فالبراءة من الكفار واجبة، وهي من الدين، والذي لا يتبرأ من الكفار يكون منهم بنص الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١]، هذا خطر عظيم، وينادى الآن بإلغائه، وأن هذا تشدد، وأن هذا إرهاب، وأن هذا، وأن هذا، فالمصيبة عظيمة الآن.

وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام لقومه المشركين: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢] [٢].

الشرح:

[١] ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾؛ تبرأ مما يعبدون من دون الله، ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٧٨]، وإلا هذا استثناء منقطع؛ أي: لكن رب العالمين الذي خلقني، فهو يهديني، هو الذي أعبده وأحبه.

[٢] وهذه الآية - أيضا - تنفي أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، ولو كانوا أقرب الناس إليه؛ لأنهم لما كانوا أعداء الله، عاداهم، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وَهَؤُلَاءِ قَدْ صَنَّفَ بَعْضُهُمْ كُتُبًا وَقَصَائِدَ عَلَى مَذْهَبِهِ، مِثْلِ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ[١] الْمُسَمَّاةِ بِـ«نَظْمِ السُّلُوكِ»، [١] يَقُولُ فِيهَا:

لـهـا صَلَواتـي بـالمَقامِ أُقِـيـمُـهـا ... وأشـهَـدُ فيهـا أنَّـهـا لـيَ صَـلَّـتِ

كِلانا مُصَلٍّ واحِدٌ ساجِدٌ إلى ... حقيقتِهِ بالجمعِ في كُلِّ سجدَةِ

وما كان لي صَلَّى سِوايَ وَلَم تَكُن ... صَلاتي لغَيري في أدا كُلِّ رَكعَةِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

وما زِلْتُ إيَّاها وإيايَ لَم تَزَلْ ... ولا فَرْقَ بل ذاتِي لذاتي أحَبَّتِ

إليَّ رَسولًا كُنتُ منيَ مُرْسَلًا ... وذاتي بآياتي عليَّ استَدَلَّتِ

فإن دُعيَتْ كنتُ المجيبَ وإن أكُن ... منادىً أجابَتْ مَن دعاني ولَبَّت[٢]

الشرح:

[١] ألفوا كتبا في وحدة الوجود، منهم ما مر بكم؛ كتب ابن عربي: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، ومنهم من نظم على مذهبهم منظومة؛ كابن الفارض باسم منظومة السلوك، التي يصرح فيها بأنه ليس هناك خالق ومخلوق، وإنما الكون كله سواء، وأنه يصلي لنفسه، ويعبد نفسه، ولأن نفسه هي الله، وهو لا فرق بينه وبين الله؛ كله من هذا الكون. وابن الفارض

(١) سبقت ترجمة ابن الفارض (٢٧).

(٢) انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

هذا من أهل وحدة الوجود، من أتباع ابن عربي، قصيدته التائية مطبوعة، ومتداولة، وتنشر، ويعتنى بها الآن، تشرح عند هؤلاء.

(لها) يعني: نفسه، ليست لله صلاته؛ لأنه كله هو الله، كل الدنيا هو الله، فأنا أصلي لنفسي؛ لأنني أنا الله. هذا كلامه - والعياذ بالله -.

أن نفسي صلت لي، ليس هناك صلاة لله، وإنما صلت له هو؛ لأنه هو الله، ولا فرق بينه وبين الله؛ لأن الكون كله مظهر واحد.

هو يسجد لنفسه؛ لأنه هو الله، ويعبد نفسه؛ لأنه لو قال: يعبد الله، لصار هناك فرق بينه وبين الله، ولا فرق؛ هو الله وحده.

هو يصلي، يعبد نفسه؛ لأنه هو الله، ليس هناك خالق ومخلوق. الرسل ليسوا من الله، الرسل منه إليه، رسوله إليه؛ لأنه هو الله، وليس هناك عبد ورب، هو الشيء كله واحد، فالرسل منه وإليه.

وهو الداعي، وهو المجيب، ليس هناك رب يدعى ويجيب، هو الداعي، وهو المجيب لنفسه.

إِلَى أَمْثَالِ هَذَا الْكَلَامِ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ يَنْشُدُ وَيَقُولُ: [١]

إنْ كان مَنزِلَتي في الحبّ عندكُمُ ما قد رأيتُ فقد ضيّعْتُ أيّامي
أُمْنيّة ظفِرَتْ روحي بها زَمَنًا واليومَ أحسَبُها أضغاثَ أحلام(١)

الشرح:

[١] هذا الناظم لما حضره الموت، ورأى الملائكة تريد قبض روحه، أدرك خطأه، وأنه على ضلال، لكن ما ينفعه ذلك، كل كافر عند الموت يعترف بكفره وخطئه، لكن ما ينفعه ذلك، فات الأوان، وإلا إذا انكشف الأمر، وحضرت الملائكة، كل يعلم خطأه، الكفار والملحدون كلهم يعلمون أنهم عباد، وأن لهم ربا يرجعون إليه، فيعلنون التوبة، لكن لا تقبل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، لا تقبل التوبة. حتى فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، لا تنفع التوبة وقت الغرغرة، لا تنفع.

(**وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ**) هذا القائل هو ابن الفارض؛ كما روي هذا عمن حضره عند الوفاة، أنه أدرك ضلاله، وقال: لقد ضيعت أيامي.

---

(١) انظر: الديوان (ص٨١).

أُمْنِيّة ظَفِرَتْ روحي بها زَمَنًا   واليومَ أحسَبُها أضغاثَ أحلام

تبين أن ما هو عليه أضغاث أحلام، ليس له حقيقة، وهو باطل، لو كان لا يوجد رب - كما يقول: والكون كله هو الرب -، ما جاءت الملائكة تقبض روحه، فدل على أنه عبد، وأن الملائكة رسل من الرب ﷻ.

فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ تَبَيَّنَ لَهُ بُطْلَانُ مَا كَانَ يَظُنُّهُ، [١] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، **فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ؛ لَيْسَ هُوَ اللَّهُ، [٢].**

الشرح:

[١] انظر: فإنه كان يظن أنه هو الله في حياته، فلما جاءه الموت، عرف أنه ليس هو الله. ومنظومة ابن الفارض هذه رد عليها بعض العلماء بعنوان: (تنبيه الغبي على كفر ابن عربي)، رد على هذه المنظومة نثرا، علق عليها، وهو مطبوع، وعليه تعليق للشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله، وهو مطبوع ومتداول، الذي رد عليها اسمه البقاعي(١).

[١] هذه الآية: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ ترد على أهل وحدة الوجود الذين سبق ذكر مذهبهم، التسبيح معناه: التنزيه؛ أي: كل شيء في السماوات والأرض من المخلوقات ينزه الله سبحانه وتعالى عن النقائص والعيوب، ومن أعظم ذلك هذا المذهب الخبيث، فإن جميع ما في السماوات وما في الأرض ينزه الله منه، ويبطله، فدل هذا على أن هذه المخلوقات هي غير الله؛ لأنها تسبح الله، وتنزهه عن الباطل، فهي غير الله عز وجل، هي مخلوقة، والله هو الخالق.

---

(١) انظر: معجم المؤلفين (١١/ ٤١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢-٣] [١].

الشرح:

[١] فهو مالك هذه الأشياء، وليست هي هو، لا يمكن أن يكون شيء واحد المالك والمملوك؛ هناك فرق بين المالك والمملوك، الله له ملك السماوات والأرض، فالسماوات والأرض ومن فيهن غير الله ﷻ. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يجعل الحياة في المخلوقات؛ حياة النمو كالنباتات والأشجار، وحياة الحركة كالحيوانات، فالله هو الذي يجعل فيها الحياة، ثم يميتها، ينزع منها هذه الحياة، تصبح ميتة، فهو يتصرف فيها ﷻ بقدرته، فدل على الفرق بين الخالق والمخلوق.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، هذا يدل على أنه ﷻ ليس قبله شيء، وليس بعده شيء، وليس فوقه شيء، وليس دونه شيء؛ كما قال النبي ﷺ(١) فدل على بطلان وحدة الوجود. لو كان مذهبها صحيحا، ما كان هناك أول ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن؛ لأن كل شيء واحد، فدل على أنه الأول قبل، وهو الظاهر فوق كل مخلوقاته، الظاهر على أي شيء؛ على مخلوقاته، والباطن الذي لا يخفى عليه شيء، مع كونه ظاهرا فوق مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يحجبه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

شيء ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فدل هذا على بطلان مذهب وحدة الوجود؛ لأنه لو كان كما يقولون، ما كان هناك أول ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن؛ لأن الأشياء كلها شيء واحد.

وهذه أسماء متقابلة: الظاهر يقابله الباطن، الأول يقابله الآخر، الظاهر يقابله الباطن؛ فهي متقابلة.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَاغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ»(١). [١].

الشرح:

[١] وهذا الحديث الصحيح يفسر الآية: الأول والآخر، والظاهر والباطن؛ لأن معنى الأول: الذي ليس قبله شيء، والآخر: الذي ليس بعده شيء، والظاهر: الذي ليس فوقه شيء، والباطن: الذي ليس دونه شيء. فهذا الحديث يفسر الآية تفسيرا واضحا، ويدل على الفرق بين الخالق والمخلوق، لا كما تقوله وحدة الوجود؛ فهناك فرق بين الخالق والمخلوق، واضح؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من مطلع سورة الحديد، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ خلقها بجميع ما فيها، هذا دليل على الفرق بين الخالق والمخلوق، وأن الله هو الخالق، وما سواه فهو مخلوق في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فصل فيها الخلق؛ كما جاء في الحديث: أنه خلق في يوم الأحد كذا، وخلق في يوم[(١)]؛ كما في الآية الأخرى التي تفسر، وتفصل كيفية خلقه للسماوات والأرض في هذه الأيام الست: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، فخلقها في يومين، وتقدير الأشياء التي فيها في يومين، هذه أربعة أيام، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٨٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ».

أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، إذا جمعت يومين، ويومين، ويومين، كم تكون؟ ستة أيام، هذا تفصيل لما أجمل في هذه الآية في ستة أيام، والله على كل شيء قدير، يقدر إنه يخلقها في لحظة، ولكن خلقها في ستة أيام لحكمة إلهية، وإلا فهو قادر على أن يخلقها في لحظة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: علا وارتفع، والعرش هو أعظم المخلوقات، وأعلى المخلوقات، فوق المخلوقات، والله فوق العرش، (استوى) أي: علا، وارتفع ﷻ، ومع علوه على العرش لا يخفى عليه شيء في قعر البحار، وفي أي مكان: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ ما يدخل في الأرض: من الأموات، والمخزونات، وما يخرج منها من النباتات، والمعادن، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ من الماء والمطر، ومن الملائكة، ومن الأرزاق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ يعني: يصعد إليها: من الملائكة، والأعمال، أعمال بني آدم كلها تصعد إلى الله ﷻ، وهذا دليل على علو الله ﷻ، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ معكم أيها الناس: المؤمنون والكفار، هذه معية عامة، معكم بعلمه وإحاطته، مع أنه فوق العرش، فهو معكم، قريب منكم، لا تخفون عليه، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في أي مكان كنتم، فهو معكم، لا تخفون عليه، لا تغيبون عن علمه ﷻ، ولا تحتجبون من رؤيته، بل هو يراكم أينما كنتم: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم؛ يبصرها ويراها ﷻ، وهو فوق عرشه، فهذه المعية معية عامة لجميع المخلوقات، ومعناها: الإحاطة، وليس معناها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي: ليس مختلطًا بكم - كما تقوله الحلولية -، بل هو معنا بعلمه، وإحاطته، ورؤيته، وبصره ﷻ، وسمعه، هذه المعية ليست معية اختلاط.

فَذَكَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ -وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ-: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مَخْلُوقٌ مُسَبِّحٌ لَهُ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. [١].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، فَلَفْظُ: (مَعَ) لَا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مُخْتَلِطًا بِالْآخَرِ، [٢].

الشرح:

[١] وما بين السماء والأرض خلقه الله، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [السجدة: ٤]؛ أي: وخلق ما بينهما من الأجواء، وما يكون في هذه الأجواء من المخلوقات – من الطيور، والطائرات –، وما يكون بين السماء والأرض من السحاب المسخر بينهما؛ فلا يخفى عليه شيء.

[٢] هذا رد على المؤولة الذين يقولون: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم أولتم هذه الآية؛ لأن ظاهرها مختلط معنا؛ لأن المعية كالاختلاط، فأنتم قلتم: وهو معنا بعلمه. وظاهرها أنه معنا بذاته -تعالى الله عن ذلك- فأنتم تمنعون التأويل، وتؤولون! قال الشيخ رحمه الله: هذا خطأ؛ لأن المعية ليس معناها محصورا في الاختلاط والمقارنة، وإنما المعية لها معان، وليس معناها محصورا في الاختلاط، والمقارنة، والمخالطة. هذا فهمكم، المعية لها معان، بحسب مواردها في لغة العرب؛ تقول: ما زلنا نسير، والقمر معنا. هل القمر يمشي معك في الأرض أو في السماء؟ القمر في السماء، ومع هذا تقول: *والقمر معنا*. أي: معنا ضياؤه ونوره. وأيضا هو بجرمه كأنه في كل

مكان، كل الناس يرونه على وجه الأرض، كلٌّ يرونه، كلٌّ يقول: هذا القمر عندنا. وهو مخلوق، فكيف بالخالق ﷻ؟! فالمعية لها معان، معناها هنا الإحاطة والعلم بما يكون من عباده وأعمالهم، فمن معنى المعية: الإحاطة، ومن معناها: الاختلاط والمقارنة، وهذا ليس مرادا هنا، ولها معان، ومنها المصاحبة، تقول: القمر معنا. يعني: مصاحب لنا. منها المصاحبة، فحصر المعية بأنها الاختلاط هذا غلط، تقول: فلان معي. نعم، يمكن أن تكون مختلطًا أنت وإياه، تمشون جميعا، أو تجلسون جميعا، فلان معي، لكن (الله معنا) لا، هذا يختلف، معية غير معية المخلوق مع المخلوق، هذه معية خالق مع المخلوقين.

فليس هذا من التأويل، وإنما هذا من التفسير - تفسير المعنى المراد -، فليس تأويلا، وإنما هو تفسير.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] [١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]. [٢].

الشرح:

[١] كونوا معهم في العقيدة، كونوا معهم في المحبة، كونوا معهم في الدين، ولو أنت بالمشرق، وهم بالمغرب، أنت معهم، أنت مع الصادقين في أي مكان، فهذه المعية لا تقتضي المخالطة. إذا كان هذا بين المخلوقين فكيف بالخالق ﷻ؟! يعني ما تكون مع الصادقين إلا إذا كانوا بجنبك؟ لا، تكون مع الصادقين - لو أنت بالمشرق، وهم بالمغرب - في المذهب، والدين، والعقيدة، والمحبة، والنصرة، والموالاة، أنت معهم.

[٢] ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، سواء الذين في عصره - وهم صحابته -، أو الذين اتبعوه إلى أن تقوم الساعة، هذه صفاتهم: أشداء على الكفار، رحماء بينهم، هذه صفات المؤمنين بالرسول ﷺ في أي وقت، ليست خاصة بالذين كانوا معه، ويسكنون إلى جانبه، ويمشون معه ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾، هذه صفاتهم في كل زمان، وفي كل مكان، فليس معنى هذا أن هذا محصور في الصحابة الذين كانوا يعيشون مع الرسول ﷺ، وإنما هذا عام في كل مؤمن إلى آخر الدنيا، فهو مع الرسول ﷺ. يشمل من كان في وقت نزول القرآن، ويشمل من يأتي إلى أن تقوم الساعة، فالمؤمنون بعضهم مع بعض.

وَلَفْظُ (مَعَ) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَّةً وَخَاصَّةً، [١] فَالْعَامَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي آيَةِ الْمُجَادَلَةِ: [٢].

الشرح:

[١] جاءت المعية في القرآن عامة؛ كما في هذه الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، هذه معية عامة للمؤمنين والكفار، بمعنى أن الله يحصي أعمالهم، ويطلع عليها، ويراها ويعلمها، ويسمع أقوالهم، فهو مع الجميع، هذه معية عامة، وهناك معية خاصة بالمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، هذا معناه: النصرة، والتأييد، والتوفيق. فهو معهم: بنصرته، وتأييده، وحفظه وكلاءته لهم. هذه معية خاصة.

[٢] آية الحديد التي مرت، وآية المجادلة التي ذكرتها. هذه معية عامة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، **فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ**(١). [١].

وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ، فَفِي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، [٢] **وقوله تعالى لِمُوسَى:** ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، [٣].

الشرح:

[١] فكما قال الإمام أحمد وغيره: بدأ الله الآية بالعلم، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وختمها بالعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فدل على أن المعية معية العلم، وليست معية الاختلاط.

[٢] أي: معهم بتأييده ونصره، وحفظه وكلاءته لهم، وتوفيقه لهم؛ فهي معية خاصة.

[٣] لما قال موسى وهارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، قال الله ﷻ لهما: ﴿لَا تَخَافَآ﴾، لماذا؟ ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٢-١٣)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٤).

وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالذي الله معه لا يخاف من المخلوقات، وكما قال نبينا محمد ﷺ، وهو في الغار لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذه معية خاصة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، [١] فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ، وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ. [٢].

الشرح:

[١] إذ يقول الرسول ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهما في الغار، لما وصلهم المشركون، ووقفوا على الغار، قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فانصرفوا، ولم يروهم، أخذ الله بأبصارهم، ولم يروهم، فهذه معنى المعية.

[٢] هو مع فرعون بالإحاطة، وليس معه المعية الخاصة؛ هذه مع موسى وهارون فقط، دون فرعون، يعني دونه في المعية الخاصة، وأما المعية العامة، فهو مع كل خلقه -فرعون وغيره-، يحيط بهم، ويعلمهم. وهو مع النبي ﷺ وصاحبه بالمعية الخاصة، دون أبي جهل وأبي لهب وقادة المشركين، حينما هموا بقتله ﷺ ومنعه من الهجرة، لم يستطيعوا؛ لأن الله معه، وخرج من بينهم، ولم يروه. جاؤوا إلى الغار، وهو فيه، ولم يروه. خرج من الغار، وسافر، ولم يلحقوه، ولم يدركوه، وصل إلى المدينة بسلامة الله، هذه المعية من الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فهو مع المتقين، ومع المحسنين معية خاصة؛ بسبب تقواهم وإحسانهم.

فَلَوْ كَانَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَنَاقَضَ الْخَبَرُ الْخَاصُّ وَالْخَبَرُ الْعَامُّ؛ [١] بَلْ الْمَعْنَى: أَنَّهُ مَعَ هَؤُلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أُولَئِكَ. [٢] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ **[٣].**

الشرح:

[١] لو كانت المعية بمعنى أنه في كل مكان - كما تقوله الحلولية -، لتناقض الخبر العام، وهو الإحاطة بالخلق، والخبر الخاص، وهو العناية بالمؤمنين، ولقال أبو جهل: نعم، وهو معي؛ كما أنه مع محمد. نقول: لا، المعية غير المعية التي عندك، هذه معية خاصة؛ فلا تناقض بينهما.

[٢] مع هؤلاء المؤمنين بنصره وتأييده المعية الخاصة، دون غيرهم من الكفار، فهو معهم بالإحاطة والاطلاع، وليس معهم بالنصر والتأييد والإعانة.

[٣] ليس معنى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أنه في السماء حال، وفي الأرض حال؛ الإله معناه: المعبود، فهو معبود في السماء، ومعبود في الأرض ﷻ.

أَيْ: هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] [١] وَكَذَلِكَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأنعام: ٣]؛ [٢].

الشرح:

[١] الصفة، المثل الأعلى، الصفات الكاملة، في السماوات والأرض لا يشبهه أحد، ولا يماثله أحد، بل هو ﷻ له الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد في السماوات والأرض، فله من الأسماء والصفات أكملها وأفضلها وأعلاها، وكل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص، فالخالق أولى به.

[٢] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، الآية يفسر بعضها بعضا، فمعنى ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾؛ يعني: بعلمه ﷻ ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

كَمَا فَسَّرَهُ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ - كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ -: أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ(١). [١] وَأَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: معبود، معبود في السماء، ومعبود في الأرض، والسماوات والأرض ومن فيهن ملكه وعبيده، وتحت تصرفه ﷻ.

[٢] ليس معنى المعية: المخالطة والحلول؛ لأن إجماع سلف الأمة وأئمتها على أن الله بائن من خلقه، منفصل الخلق، بينه وبين الخلق انفصال تام، بائن يعني: منفصل، ليس في ذاته شيء من ذاتهم، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ﷻ، وكلمة بائن من خلقه هذه لم ترد بهذا اللفظ، لكن المعنى المأخوذ من الأدلة أنه بائن من خلقه، هذا رد على الحلولية والاتحادية الذين يرون أنه مختلط بخلقه، فقالوا هذه الكلمة (بائن من خلقه) للرد عليهم؛ لأنهم يرون أنه ليس بائنًا من خلقه، بل هو مختلط بهم، فمعنى بائن مأخوذ من النصوص، وإن لم يأت باللفظ، لكنه مأخوذ من النصوص القرآنية والنبوية.

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٣٩)، وتفسير البغوي (٣/ ١٢٧).

يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، [١].

الشرح:

[١] هذه القاعدة المجمع عليها: أن الله يوصف بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، لا نحدث أوصافا من عندنا وننسبها لله، الذي لم يأت في الكتاب ولا في السنة ينزه الله عنه، فيوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف لمعناه، يكون على معناه، لا يحرف ويصرف عن معناه، فيقال: المراد باليد النعمة، والمراد بالوجه: الذات، والمراد بالغضب: إرادة الانتقام، وبالرحمة: إرادة الإنعام. هذا صرف للفظ عن ظاهره، والواجب أن يبقى على ظاهره.

والتحريف يكون بالمعنى، ويكون باللفظ. يكون بالمعنى، إذا فسر بغير معناه، هذا تحريف. يكون باللفظ، إذا زيد فيه حرف، أو نقص منه حرف، مثل قول الأشاعرة: (استوى) استولى. اللام هذه زائدة، ما جاءت لا في الكتاب ولا في السنة (استولى)، جاء (استوى)، وليس (استولى)، هذا تحريف لفظي، وكما قالت اليهود لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] يعني: استغفروا، حط عنا ذنوبنا، هذا استغفار، قالوا: حنطة. زادوا النون تهكما بكلام الله ﷻ.

يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ دُونَ صِفَاتِ النَّقْصِ، [١] وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، [٢] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]. [٣].

الشرح:

[١] يوصف الله ﷻ بصفات الكمال دائما وأبدا: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وينزه عن صفات النقص: كالسِنة - والنوم، والولد، والموت، والنسيان، وغير ذلك من صفات النقص.

[٢] لا يشابه الله أحد، لا مثل له، ولا ند له، ولا نظير له، ولا شبيه له ﷻ.

[٣] لما قال المشركون للنبي ﷺ: صف لنا ربك الذي تدعونا لعبادته، وترك عبادة ما سواه، صفه لنا. أنزل الله هذه السورة، فيها صفة الرحمن ﷻ(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣): عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الصَّمَدُ): الْعَلِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عِلْمِهِ الْعَظِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، الْقَدِيرُ الْكَامِلُ فِي قُدْرَتِهِ، الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي حِكْمَتِهِ، السَّيِّدُ الْكَامِلُ فِي سُؤْدُدِهِ(١). [١] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ(٢): هُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ. [٢] وَ(الْأَحَدُ): الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، فَاسْمُهُ (الصَّمَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ، وَاسْمُهُ (الْأَحَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ. [٣].

الشرح:

[١] الصمد معناه: الكامل في كل صفة كمال: في ملكه، في عظمته، في أسمائه وصفاته، الكامل من كل وجه، وهو الله ﷻ، هذا معنى الصمد، هذا من معاني الصمد، ويفسر الصمد أيضا بأنه الذي تصمد له الخلائق بحوائجها، وتدعوه، كلها تدعوه، كل الخلائق تتجه إلى الله بحوائجها، تصمد إليه، وفسر الصمد: بأنه الذي لا جوف له، فالصمد له معان.

[٢] هذا من معاني الصمد؛ كما فسرها الصحابة بذلك.

[٣] الأحد يعني: المنفرد الذي ليس له شريك، وليس له مثيل، وليس له شبيه، هذا معنى الأحد.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٦)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٨٨).
(٢) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ(١) [١].

الشرح :

[١] للشيخ مؤلف مستقل: (جواب أهل العلم والإيمان في أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)(٢)، وهو مطبوع، وموجود بكثرة، وموجود أيضا في مجموع الفتاوى.

(١) الأحاديث في فضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن، رواها البخاري (٥٠١٣) (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. ورواها مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(٨١١) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٧).

فَصْلٌ [١]

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تُشْتَبَهُ عَلَيْهِمْ الْحَقَائِقُ الْأَمْرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِالْحَقَائِقِ الْخِلْقِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] هذه مسألة أخرى؛ مسألة الفرق بين الشرع والقدر: الأمر الشرعي، والأمر القدري. بعض الناس يقولون: ليس هناك إلا الأمر الكوني القدري، وليس هناك أمر شرعي. وهم أهل الضلال. وهناك من يقول: ليس هناك إلا أمر شرعي، ليس هناك أمر قدري، أما أهل السنة وأهل الحق، فيقولون: الأمر الشرعي موجود، والأمر القدري موجود؛ قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، الأمر: هو الشرع، والخلق: هو القدر والقضاء، فهناك فرق.

[٢] يخلطون بينهما، ويقولون: نحن مطيعون له على كل حال؛ لأن الله قدر علينا، ونحن نعمل بما قدر علينا، هذا هو الطاعة، الطاعة موافقة القدر، يقولون: الطاعة هي موافقة القدر. وهذا باطل؛ لأن الطاعة موافقة الشرع، وليست موافقة القدر.

فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؛ [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. [٢].

الشرح:

[١] له الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فهو الخالق، وهو الذي يأمر، وينهى، ويشرع ﷻ لعباده، فهناك فرق بين الخلق وبين الأمر.

[٢] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾؛ أي: معبودكم ومالككم وخالقكم الله، لايشاركه في هذا أحد، والدليل على ذلك أنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ يتعاقبان، يذهب هذا، ويأتي هذا، يتعاقبان على الكون، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾؛ يطلب بعضهما، إذا ذهب هذا، جاء هذا، وإذا ذهب هذا، جاء هذا، يتعاقبان، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ تجري بأمره ﷻ منظمة محكمة، لا تختل، ولا تختلف، تجري، ولا يختل نظامها أبدا، مسخرات بأمره، ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ له الخلق، وهو التدبير، والإيجاد. وله الأمر، وهو الشرع، يشرع لعباده ما يصلحهم - خلقهم ورزقهم -، ويشرع لهم ما يصلحهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، فهناك فرق بين القدر والشرع.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، [١] فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، [٢] وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، [٣] وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رُسُلِهِ؛ [٤].

الشرح:

[١] لا ينازع في هذا أحد، حتى المشركون لا ينازعون في أنه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، لا ينازعون في هذا.

[٢] بلا شك.

[٣] هذا الأمر، وهو ﷻ أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله؛ وذلك لمصالح العباد وسعادتهم، ولم يتركهم هملا لا يؤمرون، ولا ينهون، بل إنه ﷻ أنزل الكتب، وأرسل الرسل لهداية الخلق إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ولم يتركهم هملا على جهلهم، وعلى غفلتهم، وعلى شهواتهم وأهوائهم، وعلى تسلط الجبابرة عليهم والطواغيت، فإنه ﷻ أنزل الشرع بواسطة الرسل.

[٤] وهذا النهي.

أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَنَهَى عَنْ الْإِشْرَاكِ بِاَللَّهِ، [١] فَأَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ التَّوْحِيدُ، وَأَعْظَمُ السَّيِّئَاتِ الشِّرْكُ. [٢].

الشرح:

[١] فهناك فرق إذًا بين الشرع وبين القدر، لو كان القدر كافيا، لما أنزل الكتب وأرسل الرسل بالأوامر والنواهي.

[٢] قال ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل: ٨٩]، والحسنة المراد بها هنا: التوحيد، المراد بالحسنة في هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة عند قيام الساعة ﴿ءَامِنُونَ﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠] المراد بالسيئة هنا: الشرك، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٩٠]، فالحسنة والسيئة هنا المراد بها: التوحيد والشرك.

فإذا قيل لك: ما أعظم ما أمر الله به؟ تقول: التوحيد. وإذا قيل لك: ما أعظم ما نهى الله عنه؟ تقول: الشرك.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، [١] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. [٢].

الشرح:

[١] الشرك لا يغفر أبدا إلا بالتوبة، أما من مات، وهو مشرك، فلا طمع له في مغفرة الله، أما من مات، وهو موحد، فله طمع في مغفرة الله، وإن كان عنده ذنوب كبائر، فله طمع؛ إن شاء الله غفر له، ولم يعذبه، وإن شاء عذبه، وأخرجه من العذاب، وأدخله الجنة، فالذي يسلم من الشرك يطمع في رحمة الله، ولو كان عنده كبائر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فالمؤمن يطمع في رحمة الله، ولو كان عنده مخالفات، ولو مات، ولم يتب منها، فإنه يرجو رحمة الله، بخلاف المشرك الذي مات على الشرك؛ فإنه لا طمع له في مغفرة الله، نسأل الله العافية!

[٢] المحبة هي أعظم أنواع التوحيد، محبة الله ﷻ هي أعظم أنواع التوحيد، ولهذا العلماء عرفوا العبادة بأنها: غاية الذل لله، مع غاية الحب لله ﷻ، ونظم الإمام ابن القيم هذا في قوله:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَـدَارُهُ بِـالْأَمْـرِ أَمْـرِ رَسُـولِـهِ   لاَ بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ[١]

فهذه العبادة غاية الذل مع غاية الحب، الذين آمنوا يحبون الله حبا خالصا، ولا يحبون معه أحدًا محبة عبادة. أما المحبة الطبيعية، فهذه ليس لها حكم، لكن محبة العبادة التي معها ذل هذه لا تكون إلا لله ﷻ، أما المحبة التي ليس معها ذل، فهذه محبة طبيعية؛ كما تحب الطعام، وتحب الزوجة، وتحب الأولاد، وتحب المال، هذه ليست عبادة، هذه طبيعية، ليس معها ذل، فالمؤمنون يحبون الله محبة خالصة، ويعبدونه عبادة خالصة، أما المشركون، فإنهم يحبون الله، لكن يحبون معه غيره من الأصنام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: شركاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ يسوون بينهم وبين الله في المحبة، يعبدونهم، ويعبدون الله، يسوون بينهم، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ يعادلون به غيره، فمحبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، وهي باطلة؛ لأن العبادة إذا دخلها الشرك، بطلت: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة.

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك»، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك»، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك» [١].

الشرح:

[١] الكبائر تختلف؛ بعضها أشد من بعض، فهذه الجرائم الثلاث المذكورة في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ هذا الشرك ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، هذه أعظم الكبائر؛ كما قال ابن مسعود لما سأل النبي ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، الزنا من أشد المحرمات وأكبر الكبائر.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. [١].

وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَنَهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، [٢] وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، [٣].

الشرح:

[١] قيل: معناه: أن الله يستعملهم في الحسنات؛ فيمحو بها السيئات، فيجعل محل كل معصية طاعة، ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، وقيل: معناه: أن السيئات التي عملوها إذا تابوا إلى الله توبة صادقة، انقلبت إلى حسنات.

[٢] فهذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ فيها أكبر المنهيات. وأما آية النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، هذه فيها أكبر المأمورات.

[٣] هذه من صفاته أنه يحب ﷻ؛ يحب المؤمنين، ويحب المقسطين، ويحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب التوابين؛ فالله يحب، يحب

هؤلاء محبة خاصة، ويبغض الكافرين والمنافقين؛ يحب، ويبغض ﷻ، ويكره، ويسخط، ويغضب؛ صفات تليق بجلاله ﷻ، ليست كصفات المخلوقين.

وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَهُوَ يَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ [١] كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الإسراء: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨]. [٢].

الشرح:

[١] يحب الذين يقاتلون في سبيله لإعلاء كلمة الله، ويبذلون أنفسهم في الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، الله يحبهم، يحبهم محبة خاصة، فدل على فضل الجهاد في سبيل الله.

[٢] ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾؛ من قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٢-٢٣]، وذكر النهي عن قتل الأولاد، والنهي عن أكل مال اليتيم، والنهي عن بخس حقوق الناس، ثم ختمها بالنهي عن الشرك، بدأها بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وهذه مثل الآيات الثلاث التي في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فآيات الإسراء مثل آيات سورة الأنعام؛ بدأها بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كل ما ذكره الله في هذه الآيات ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾؛ أي: محرما، فالله يكره المحرمات، يكره

المنهيات، ما نهى عنها إلا لأنه يكرهها ﷻ، ويحب الطاعات، ما شرع الطاعات إلا لأنه يحبها.

وَقَدْ نَهَى عَنِ الشِّرْكِ وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَأَمَرَ بِإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى الْحُقُوقَ، وَنَهَى عَنِ التَّبْذِيرِ، وَعَنِ التَّقْتِيرِ، وَأَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهِ، وَأَنْ يَبْسُطَهَا كُلَّ الْبَسْطِ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَعَنِ الزِّنَا، وَعَنْ قُرْبَانِ مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، [١] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]. [٢] وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ. [٣]، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] [٤].

الشرح:

[١] يعني: نهى عن البخل، ونهى عن التبذير، وأمر بالوسط؛ بالاعتدال في الإنفاق بين البخل وبين التبذير.

[٢] هذا شاهد لقول الشيخ: وما نهى الله عنه، فهو يكرهه.

[٣] والله لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، فكل ما نهى عنه، فإنه لا يرضاه، ويكرهه، وكل ما أمر الله به، فإنه يحبه، ويرضاه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

[٤] أمر بالتوبة، وهي الرجوع إلى الطاعة، الرجوع من المعصية إلى

الطاعة، هذه التوبة، والتوبة في اللغة الرجوع[1] والإنابة[2]، بمعنى التوبة، وهي الرجوع. فالمذنب والعاصي لا يقنط من رحمة الله، يتوب، ويتوب الله عليه، ولا يقنط من رحمة الله، أو يستكثر ذنوبه، ويقنط ويظن أن الله لا يغفر له، هذا أشد من الذنب، إذا قنطت من رحمة الله، وظننت أن الله لا يغفر، فهذا أشد من الذنب، فالتوبة مطلوبة وممكنة، وسهلة ويسيرة، ومقبولة عند الله إذا توافرت شروطها، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده.

(١) أصل (تَابَ) عاد إلى الله، ورجع، وأنابَ، وتَابَ الله عليه؛ أي: عاد عليه بالمغفرة. انظر: لسان العرب (١/ ٢٢٣)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٥٧).

(٢) أناب إليه إنابة، فهو منيب، أقبل، وتاب، ورجع إلى الطاعة، وقيل: ناب: لزم الطاعة، وأناب: تاب، ورجع. انظر: لسان العرب (١/ ٧٧٥)، ومختار الصحاح (١/ ٢٨٥).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبَ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١). [١].

الشرح:

[١] النبي ﷺ مع طاعته لله وكمال عبوديته، مع هذا يستغفر الله من التقصير؛ ولأنه لا أحد يوفي حق الله من الخلق؛ حق الله عظيم، ولكنه يعفو ويسمح ﷻ، وإلا ما أحد يؤدي حق الله، الرسول ﷺ يقول: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(٢)؛ فلا أحد يوفي حق الله، فالرسول ﷺ مع كمال عبوديته يستغفر الله، ويتوب إليه، والله أمره بذلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣] ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، مع كمال عبوديته ﷺ، الاستغفار والتوبة مطلوبان ومتأكدان في حق العباد، وليسا خاصين بالذنوب، بل التقصير في حق الله يحتاج إلى استغفار وتوبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١). [١] وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّك أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، مِائَةَ مَرَّةٍ، أَوْ قَالَ: أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] (يغان) يعني: يحصل له شيء من الغفلة؛ لأنه بشر ﷺ، ويحصل له انشغال وغفلة، ثم يتوب إلى الله، ويستغفر أكثر من مائة مرة، هذا من أسباب استغفار الرسول ﷺ، ومن استغفاره أنه قد تمر عليه لحظة يغفل عن ذكر الله ﷻ، فهو بحاجة إلى الاستغفار، فإذا كان هذا في حق النبي ﷺ، فكيف بغيره؟!

[٢] في المجلس الواحد مائة مرة أو أكثر، ليس طول اليوم، بل في المجلس الواحد، فهو ملازم ﷺ للاستغفار والتوبة إلى الله، فكيف بنا نحن؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وقوله ﷺ: (يغان) من الغين، وهو الغيم، والمراد الفترات، والغفلات عن الذكر، الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه، أو غفل، عد ذلك ذنبًا واستغفر منه. ا. هـ. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وهو حديث صحيح.

هذا كله رد على الذين يكملون أنفسهم، ويقولون: نحن أولياء الله. وهم يبارزون الله بالمعاصي والكفر والشرك، ويقولون: نحن أولياء الله، نحن خاصة الخاصة، ولا يضرنا شيء، ما يضرنا شيء؛ لأننا أولياء الله. هذا رد عليهم.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنْ يَخْتِمُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بِالِاسْتِغْفَارِ، [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ أمر بعبادته وطاعته وطاعة رسوله، وكلف عباده بذلك، ووعدهم على ذلك بالثواب الجزيل والخير الكثير في الدنيا والآخرة، وهو لم يأمرهم بالطاعة، ولم ينههم عن المعاصي لأجل التضييق عليهم، أو لأجل أن يتعبهم، بل لأنه بهم رؤوف رحيم ﷻ، وإنما أمرهم بالعبادة والطاعة، ونهاهم عن المعاصي لمصلحتهم هم؛ فهم المحتاجون إلى الله ﷻ وإلى عفوه وإحسانه، فهذا لمصلحتهم، ومن رحمته بهم، فلم يتركهم وأهواءهم، وإنما بين لهم ﷻ ما ينفعهم، وأمرهم بما يصلحهم، ونهاهم عما يضرهم، وإلا فهو غني عنهم وعن عبادتهم، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧]، وهذا لمصلحتهم، ومن رحمته بهم، ولما كان العبد ضعيفا، وتعترضه أشياء، قد يحصل منه نقص في عبادة الله أو خلل في طاعة الله؛ بحكم أنه بشر، وأنه معرض للنقص، فمن رحمته ﷻ أنه لم يغلق دونه الباب، ولم يتركه على هذه الحالة؛ يأتي بأعمال ناقصة، أو بأعمال باطلة، لم يتركه ﷻ، بل شرع له التوبة والاستغفار، ولم يعاجله بالمؤاخذة وبالعقوبة، أو يغلق بابه دونه، بل شرع له أن يستدرك بالتوبة والاستغفار،

وليس هناك أحد كامل في العبادة، لابد من نقص، والنقص كثير؛ فلذلك شرع الله الاستغفار بعد العبادات. انظروا: شرع الاستغفار بعد العبادات، فكيف بالاستغفار بعد المعاصي والسيئات؟! فأهل الإحسان وأهل الخير يأتون بالطاعات، ويستغفرون الله عن النقص، وأنهم لم يوفوا حق الله ﷻ، وأكمل الناس عبادة لله محمد ﷺ، ومع هذا كان يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس أكثر من سبعين، وفي اليوم أكثر من مئة مرة يستغفر ربه ﷻ؛ لأنه لا أحد يوفي حق الله ﷻ، فإذا كان هذا في شأن الرسول ﷺ، وهو لا يصدر منه ذنوب ومعاص، لكن التقصير حاصل؛ لذلك يستغفر الله، ويتوب إليه، فكيف بنا نحن؟!

الإنسان لا يقول: أنا صليت وخلاص، أنا أديت حق الله، أنا ما تركت شيئا. لا يا أخي؛ أنت لا تسلم من النقص، فاستدرك، واجبر بالاستغفار، ولهذا شرع الله الاستغفار بعد العبادات، شرع الاستغفار بعد الفريضة، كان ﷺ إذا سلم من الفريضة، يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله ثلاث مرات[١]. والله ﷻ أثنى على المتهجدين بالليل، الذين يتهجدون، ثم يختمون بالاستغفار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]، هؤلاء أهل الجنة، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٩١): عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٥-١٨]؛ في آخر الليل بعد قيام الليل، يتبعون ذلك بالاستغفار، وقال ﷻ في أوصاف المؤمنين: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، والله ﷻ ذكر عن السابقين المقربين قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، فهم يأتون بالأعمال الصالحة العظيمة، ومع هذا يخافون من الله ألا يتقبل منهم، أو أن يكون في عملهم خلل أو نقص، لا يكملون أنفسهم، ولا يزكون أنفسهم، بل هم يخافون من الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾؛ يعني: من الأعمال الصالحة، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، فمن رحمته ﷻ أنه شرع لعباده الاستغفار والتوبة بعد العبادات، فكيف بعد المعاصي والسيئات؟! الله شرع لهؤلاء وهؤلاء، شرع لهم الاستغفار والتوبة، هؤلاء عن تقصيرهم ونقصهم، وأولئك عن ذنوبهم ومعاصيهم، وهذا من رحمته ﷻ بعباده ولطفه بهم. فهذا فيه رد على من سبق ذكرهم بأنهم لا يحتاجون للعبادات؛ لأنهم أولياء، ووصلوا إلى الله، وعرفوا؛ فليسوا بحاجة إلى العبادة والدعاء وغير ذلك من غلاة الصوفية.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ مِنْ الصَّلَاةِ يَسْتَغْفِرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْك السَّلَامُ تَبَارَكْت يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(١)، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ، [١] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِاللَّيْلِ وَيَسْتَغْفِرُوا بِالْأَسْحَارِ. [٢] وَكَذَلِكَ خَتَمَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ - وَهِيَ سُورَةُ قِيَامِ اللَّيْلِ - بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]. [٣].

الشرح:

[١] هذا يدل على أن العمل الصالح يختم بالاستغفار، ويتبع بالاستغفار قد يقول قائل: هل هم أساؤوا لما صلوا، هل هم أساؤوا حتى يستغفروا؟ فنقول لهم: ليس بلازم أن يسيئوا لكي يكون عندهم نقص في الصلاة وفي العبادة.

[٢] أمرهم أن يقوموا بالليل، ويستغفروا، ويختموا ذلك وقت السحر، مع أنهم على إثر عبادة، وهم يستغفرون من نقص يحصل لهم.

[٣] قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ١-٢] فأمره في أول الأمر أن يقوم غالب الليل، فقام ﷺ، حتى تفطرت قدماه من طول القيام؛ امتثالا لأمر ربه ﷻ، ثم إن الله خفف في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ

(١) سبق تخريجه (ص ١٤٩).

أن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ يعني: في قيام الليل، ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، هناك أصحاب أعذار يشق عليهم قيام الليل كله، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ مسافرون ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ بالتجارة، يسافرون من أجل التجارة، فيشق عليهم القيام الطويل والقيام الكثير، فالله ﷻ خفف عنهم، ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الجهاد بحاجة إلى التخفيف، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (تجدوه) ينصب مفعولين، (هاء الغيبة) هذا المفعول الأول، (خيرا) هذا المفعول الثاني، و(هو) ضمير فصل، وليس مبتدأ؛ ولذلك نصب الاسم بعده: (هو خيرا)، ولو كان مبتدأ، لقال: هو خيرٌ؛ فهو ضمير فصل ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾، هذا هو الشاهد؛ أن الله أمر بعد قيام الليل بالاستغفار، وكذلك بعد الصدقة وإيتاء الزكاة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا محل الشاهد: أنه بعد العبادة، بعد صلاة الليل، والصدقة بإخراج الزكاة، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ من أي نوع من أنواع الطاعات، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] بعد هذه الأعمال الجليلة.

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْحَجّ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]. [١].

الشرح:

[١] في الحج أيضا أمر بالاستغفار مع أداء المناسك، وهي الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، قال ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾؛ بعد أداء الوقوف بعرفات في اليوم التاسع، أفضتم إلى أين؟ إلى مزدلفة، ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، المشعر الحرام هو المزدلفة، وقيل: هو الجبل الذي في المزدلفة، اذكروه بصلاة المغرب والعشاء عند الوصول، وبالنوم والمبيت؛ لأن المبيت بالمزدلفة عبادة ومنسك من المناسك، المبيت فيها منسك من مناسك الحج، ثم صلاة الفجر فيها، ثم الدعاء بعد الفجر، كل هذا من ذكر الله في المزدلفة، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ قيل: المراد: أفيضوا من مزدلفة إلى منى، وقيل: المراد: عطفا على ما سبق أفيضوا من عرفة حيث أفاض الناس من قبل؛ إبراهيم ﷺ ومن جاء بعده؛ لأن قريشا كانوا يقفون بالمزدلفة، ولا يخرجون إلى عرفة، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا نخرج منه، ويقفون بالمزدلفة، وإنما يذهب إلى عرفة الآفاقيون، هذا مما أحدثته قريش في الحج مخالفا لدين إبراهيم ﷺ، فوقوفهم بالمزدلفة هذا مخالف

لدين إبراهيم، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؛ يعني من عرفة، و(الناس) قيل: المراد آدم، وقيل: المراد إبراهيم ﷺ، فأرجعهم إلى الوقوف بعرفة، الذي كان هو دين الأنبياء من قبل، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، بعد هذه الأعمال الجليلة (الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة) استغفروا الله، اطلبوا منه المغفرة، على إثر العبادة؛ لأنه يحصل خلل في العبادة، يحصل نقص، فيحتاج إلى الاستغفار؛ ليجبر هذا النقص.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٩١ -٢٩٥)، والقرطبي (٢/ ٤٢٧، ٤٢٨).

بَلْ أَنْزَلَ ﷻ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَمَّا غَزَا النَّبِيُّ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَهِيَ آخِرُ غَزَوَاتِهِ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩]، [١].

الشرح:

[١] بلغ النبي ﷺ أن الروم يريدون غزو المسلمين، فتجهز ﷺ، وأمر أصحابه بالخروج، وكان ذلك وقت الصيف وشدة الحر، والمسافة بين تبوك والمدينة بعيدة، وفي وقت مطيب الثمار، والناس يفرحون بالثمار، الله ابتلاهم، وامتحنهم في هذه الغزوة؛ ليتميز المؤمن الصادق من المنافق، ابتلاهم في هذه الغزوة في آخر حياة النبي ﷺ؛ فهي آخر غزوة غزاها ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]، هذا يدل على أنها آخر الغزوات وآخر الجهاد[١]، فحرم الله المنافقين من هذه الغزوة، وتبين نفاقهم، وأما المسلمون، فإنه بادر الذين يستطيعون باللحاق بالرسول ﷺ، ولم يعبؤوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٨٠، ٨١)، والقرطبي (١٦/ ٢٧١).

بالحرب، وطول المسافة، والعدو الهائل -الذي هو الروم-؛ كثرة العدو وقوته، لم يعبؤوا بهذا كله، بل بادروا، وخرجوا مع رسول الله ﷺ.

تخلف عن الرسول ﷺ في هذه الغزوة ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١] يعني: في عدم خروجهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢]، هؤلاء عذرهم الله، هذا صنف.

الصنف الثاني: ناس من المؤمنين ليس لهم عذر، لكن تكاسلوا في أول الأمر، وكل يوم يقولون: اليوم نتجهز، وكل يوم. . . ، تثاقلوا حتى خرج النبي ﷺ، وهم لم يعدوا العدة للحاق به، لا عن نفاق؛ هم مؤمنون ومن أفاضل الصحابة، لكن ابتلاء وامتحان، تثاقلوا في أول الأمر، ثم فاتتهم الفرصة؛ المؤمن لا يتثاقل عن الطاعة؛ لأنه قد يعرض له ما يمنعه منها، تثاقلوا رضي الله عنهم.

الطائفة الثالثة: المنافقون الذين اعتذروا، فعذرهم النبي ﷺ بناء على ظواهرهم، وإلا فهم كاذبون، ليس لهم عذر، ولله حكمة في أنهم لم يخرجوا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، فمنعهم الله من الخروج؛

لأجل ألا يحصل منهم التخذيل والإرجاف بالمسلمين.

أما العاجزون والمرضى والفقراء، فعذرهم الله ﷻ، وأنزل عذرهم، وأما المنافقون، فإن الله حسبهم؛ رحمة بالمؤمنين، وإلا فهم قادرون على الخروج، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، أما الثلاثة الذين خلفوا من أفاضل الصحابة رضي الله عنهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، فهؤلاء اعترفوا بذنبهم وتأخرهم، ولم يكذبوا على الرسول ﷺ، بل جاؤوا، وصدقوا الرسول في أنهم ما تأخروا عن عذر، واعترفوا بخطئهم، فالنبي ﷺ أرجأ أمرهم، أخرهم، لم يعذرهم، بل أخر أمرهم، وهجرهم ﷺ أربعين ليلة، وأمر بهجرهم، ثم إن الله تاب عليهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨]، هذه قصة غزوة تبوك، ومن تخلف عنها، والشاهد قصة الثلاثة، الله ﷻ قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، ففي النهاية تاب الله عليهم، وعفا عنهم؛ لأنهم صدقوا الله ورسوله، ما جاؤوا بأعذار كاذبة مثل المنافقين، بل اعترفوا بأنهم ما عندهم عذر، وأنهم أخطؤوا، وندموا، وتابوا، فهذا هو الحاصل؛ أن الله تاب على المتخلفين الذين خلفوا، تاب عليهم في نهاية الأمر(١).

---

(١) انظر: الطبري (١٠/ ٢٠٤، ١١/ ٢١، ٢٢)، والقرطبي (٨/ ٢٨٧).

وَهِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ. [١].

وَقَدْ قِيلَ: إنَّ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر]. [٢].

الشرح:

[١] آخر ما نزل من القرآن؛ لأنها بعد غزوة تبوك، وغزوة تبوك هي آخر الغزوات، فهي من آخر ما نزل من القرآن.

[٢] وأمر نبيه ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار، فالمسلم إذا كان في آخر عمره، يكثر من الاستغفار؛ لأن الله أمر نبيه بأن يختم عمره بالاستغفار، ما هي علامة أجل النبي ﷺ؟ فتح مكة، علامة أجله فتح مكة، قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: ٢] لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا، وجاءت الوفود من القبائل؛ تبايع النبي ﷺ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣] أمره الله أن يختم عمره بالاستغفار، فالاستغفار إذًا تختم به الفريضة، صلاة الفريضة، يختم به قيام الليل، يختم به مناسك الحج، يختم به العمر.

فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَخْتِمَ عَمَلَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»[(١)]. [١].

الشرح:

[١] بعدما نزلت عليه هذه السورة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ كان في سجوده وركوعه يقول هذا الدعاء: «**سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، **يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**؛ يعني: يفسر القرآن، يفسر هذه السورة؛ لأن التأويل في الأصل يراد به: التفسير، هذا المعروف عند السلف، التأويل: يراد به التفسير، ويراد به ما يؤول إليه الأمر في المستقبل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، لما رأوا مآل الأمور في الآخرة-هذا هو التأويل في المعنى الثاني- ما يؤول إليه الأمر في النهاية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] تأويلها: ما حصل من سجود أبويه وإخوته له: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، هذا في أول عمره، ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ما جاء تأويل هذه الرؤية إلا في آخر عمره ﷺ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالتأويل يراد به معنيان: التفسير، أو ما

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

يؤول إليه الأمر في النهاية، أما التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فهذا تأويل محدث، لكن إذا كان بدليل، فلا بأس، وهذا يسمى تخصيصًا أو تفسيرًا، وإن كان بغير دليل، فهو تأويل باطل؛ كتأويل الأسماء والصفات، فالحاصل أن هذا معنى التأويل، له ثلاثة معان: معنيان صحيحان، ومعنى فيه نظر، المعنى الصحيح الأول: التفسير، المعنى الثاني: المآل في النهاية، وبيان حقيقة الأمور، وكنه الأمور في آخر الأمر، والثالث الذي فيه نظر: صرف اللفظ عن ظاهره[1]. فإن كان بدليل، فهذا نوع من التفسير، وبيان المراد، وإن كان بغير دليل، فهو تأويل باطل.

لكن قولها ﵂: (يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)؛ يعني: يفسر القرآن، يقول: اللهم اغفر لي، (يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)؛ يفسر قوله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (١٨٨)، وروضة الناظر (ص ١٧٨).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١). [١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﵁ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمّ إِنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِك، وَارْحَمْنِي إنَّك أَنْتِ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] فإذا كان الرسول ﷺ يستغفر ربه هذا الاستغفار، مع أنه هو أكمل الأمة عبادة لله، بل أكمل الخلق عبادة لله ﷻ، لكن ما أحد يكمل نفسه أو يزكي نفسه، وإنما يعتبر نفسه مقصرا في حق الله ﷻ.

[٢] هذا أبو بكر الصديق أفضل الأمة على الإطلاق، ما بعد النبيين أفضل من أبي بكر ﵁، ومع هذا علمه النبي ﷺ أن يستغفر بهذا الاستغفار الذي علمه إياه النبي ﷺ في قوله: «**اللَّهُمّ إِنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِك، وَارْحَمْنِي إنَّك أَنْتِ الْغَفُورُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

الرَّحِيمُ»، مع أنه من أكمل الأمة عملا بعد النبي ﷺ، ومع هذا طلب من النبي ﷺ أن يعلمه هذا الدعاء، علمه إياه، وهو استغفار، «ظلمت نفسي»، ظلمها بأي شيء؟ بالذنوب؛ لأن الظلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ظلم الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

النوع الثاني: ظلم الناس، الذين يظلمون الناس في أعراضهم، في أموالهم، في دمائهم.

النوع الثالث: ظلم العبد لنفسه؛ بأن يوقعها في الذنوب والمعاصي، فيهلكها، فهو يقول: ظلمت نفسي، فاغفر لي. هذا أبو بكر الصديق، فدل على أنه لا يستغني أحد عن الاستغفار، مهما بلغ من الفضل والمكانة والعبادة، فإنه مقصر في حق الله ﷻ، وأيضا يحصل منه خلل أو نقص.

وَفِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ إِذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت. فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ. قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت وَإِذَا أَخَذْت مَضْجَعَك»[(١)]. [١].

الشرح:

[١] سأل - أيضا - أبو بكر ﷺ النبي ﷺ أن يعلمه دعاء يقوله إذا أصبح، وإذا أمسى، فعلمه هذا الدعاء: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»، الإنسان يقترف على نفسه سوءا؛ فهو بحاجة إلى الاستغفار، فإذا كان هذا أبو بكر الصديق علمه النبي ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء.

«وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»، هذا دليل على أن الإنسان بحاجة إلى الاستغفار وإلى الدعاء، وبين له ﷺ أن يقول هذا الدعاء في صباحه، وفي مسائه، وعند نومه إذا أخذ مضجعه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وهو حديث صحيح.

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنِ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ دَائِمًا. [١] قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]. [٢].

الشرح:

[١] هذه هي النتيجة، مما سبق ليس لأحد أن يظن استغناءه عن الله ﷻ، إذا كان النبي ﷺ وأبو بكر ﵁ يستغفران، ويدعوان الله، ويخافان من الله، مع ما لهما من الفضائل والعبادات، فكيف بغيرهما؟!

[٢] قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، عرضها الله عليها عرض تخيير، لا عرض إلزام، لو عرضها عليها عرض إلزام، لامتثلت، ولم تخالف الله ﷻ، ولكنه عرض عليها عرض تخيير، فلم تزك نفسها، الأرض والسماوات والجبال لم تزك نفسها، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾؛ آثرن السلامة، ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ خفن من تبعتها، والأمانة يراد بها: كل ما حمله الإنسان، كل ما حمَّله الله، مع عبادته، هذه أمانة، عبادتك لله وتوحيده والإخلاص له، وأداء الفرائض وترك النواهي هذه أمانة، أمنك الله عليها، كذلك الأمانة بينك وبين الناس، إذا توليت على الناس في وظيفة أو في مركز، هذه أمانة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والأمانات يراد بها: المسؤوليات والوظائف يتوظف بها

الإنسان، الإنسان لا يتوظف لكي يأخذ نقودًا فقط، يتوظف من أجل أن يقوم بواجبات نحو إخوانه المسلمين، ويقضي حوائجهم، هذا هو الهدف، ليس الهدف الدراهم فقط، الهدف أن يقوم بالعمل؛ لينفع إخوانه، وكذلك الأسرار التي يتحملها، إذا حملوك الأسرار، وقالوا: لا تفشها. فهذه أمانة، السر أمانة، وكذلك الودائع، الذين يودعونك، ويأتمنونك عليها هذه أمانة، بعض الناس يظن أن الأمانة مجرد الودائع فقط، الودائع نوع من أنواع الأمانة، وليست هي الأمانة كلها، وكذلك الأمانة بينك وبين نفسك، الله ائتمنك على نفسك بأن تنظر في مصالحها، وتجنبها المضار، وتحملها على المصالح وعلى الطاعات؛ فهي أمانة عندك، لا تهمل نفسك.

إذًا الأمانة شاقة، ولذلك السماوات والأرض أبين أن يحملنها؛ لأنها شاقة، وأشفقن منها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم وذريته آثروا المغنم؛ لأن من أطاع الله فيها، وأداها، حصل على الأجر العظيم، فهم آثروا المغنم الذي فيها، والسماوات والأرض والجبال آثرت السلامة، أما الإنسان، فحملها؛ رجاء ما عليها من الثواب والأجر، إذا قاموا فيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ أي: الإنسان ظلوم لنفسه، ﴿جَهُولًا﴾ بحق الأمانة، لم يحسب لها حسابها، ثم قال ﷻ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣] يعني: من بني الإنسان الذين تحملوا هذه الأمانة، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فذكر أن الناس نحو هذه الأمانة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من خان الأمانة ظاهرا وباطنا، وهم الكفار والمشركون،

خانوها ظاهرا وباطنا.

القسم الثاني: من أداها ظاهرا وباطنا، وهم المؤمنون والمؤمنات، والمسلمون والمسلمات، أدوا الأمانة ظاهرا وباطنا.

القسم الثالث: المنافقون؛ أدوها في الظاهر، وخانوها في الباطن، ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾، انظر: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فدل على أن المؤمنين ما يكملون أداء الأمانة، لكن الله يتوب عليهم، الله يتوب عليهم، وإلا لو آخذهم، لعذبهم كلهم، لكنه يتوب عليهم ﷻ، فدل على أن النقص حاصل، يدل هذا على أن النقص حاصل في بني الإنسان؛ فلذلك شرع الله الاستغفار والتوبة.

فَالْإِنْسَانُ ظَالِمٌ جَاهِلٌ، وَغَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ التَّوْبَةُ، [١] وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِتَوْبَةِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١)، [٢].

الشرح:

[١] التوبة من هذا الظلم، والجهل.

[٢] الجنة عظيمة وغالية، ما تدرك بالأعمال، والأعمال - مهما بلغت - ليست ثمنا للجنة؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر(٢)، ولأنها دائمة لا تفنى، ولا تزول، فليس عمل ابن آدم ثمنًا للجنة، وإنما هو سبب لدخول الجنة، سبب فقط، وإلا لو أن الله حاسبه على تقصيره، وعلى الخلل الذي يقع منه، لما دخل الجنة، ولصار من أهل النار، لكن الله برحمته أدخله الجنة؛ فلا يغتر الإنسان بعمله، أو يثق من عمله، ولهذا قال ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»، وأما قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالباء باء السببية،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أخرج مسلم (٢٨٢٥) من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وليست باء العوض؛ لأن العمل ليس ثمنا للجنة، مهما بلغ فالجنة أعظم من ذلك، هذا من ناحية، الناحية الثانية: أن العمل يعتريه نقص كثير وخلل كثير؛ فالإنسان لا يزكي نفسه، ولكن لا يقنط من رحمة الله ﷻ، ولا يترك الأعمال، ويقول: إن كان الله كاتبًا لي الجنة، سأدخل، وإن كان لم يكتبها، لو عملت، فليس بحاصل. هذا لا يجوز - والعياذ بالله -، بل يفعل السبب - وهو العمل الصالح -، الذي لا يعمل هذا، لايدخل الجنة، أما الذي يعمل، فهذا يدخلها برحمة الله ﷻ، الجنة لاتدخل إلا بعمل صالح.

وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَهُ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ [١] فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفَى بَاءَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَادَلَةِ، وَالْقُرْآنُ أَثْبَتَ بَاءَ السَّبَبِ. [٢].

الشرح:

[١] فهذا دليل على أن الإنسان لا يزكي نفسه، ولا يغتر بعمله، بل يعد نفسه مقصرا؛ فيستغفر الله، ويتوب إلى الله من هذا التقصير، أما إذا أعجب بعمله، واستكثر عمله، فإنه لن يستغفر، ولن يتوب.

[٢] ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾؛ ظاهره يدل على أن الجنة تدخل بالعمل الصالح، وأن الباء باء العوض، وليست كذلك، ليست باء العوض، وإنما هي باء السبب فقط. ونفى باء المقابلة - يعني: باء العوض والمعادلة -؛ فالعمل لا يعادل الجنة، ولا يقابلها، وإنما الجنة فضل من الله ﷻ، لكن العمل الصالح سبب لدخولها.

فهذا يفسر قوله ﷻ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾؛ أن ذلك إنما هو من باب السبب، لا من باب العوض، وهذا يدل على أن الإنسان بحاجة إلى الاستغفار وإلى التوبة، مهما عمل من الأعمال الصالحة، فإنه بحاجة إلى الاستغفار وإلى التوبة، لا يستغني أحد عن الاستغفار وعن التوبة والإكثار من ذلك.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ)، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَلَمْ يُصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ، [١] وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا فَهُوَ ضَالٌّ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ): إذا أحب الله عبدا، وفقه للتوبة والاستغفار، هذا معناه، ليس معناه أنه مهما عمل من الذنوب، فلن تضره، هذا ليس بصحيح، هذا قول المرجئة الذين يقولون: يكفي الإيمان بالقلب، ولا يضر مع الإيمان معصية. هذا قول باطل، بل المعاصي تضر المؤمنين، قد يعذبون بالنار، يعذبون يوم القيامة بالنار - وهم مؤمنون - بسبب معاصيهم وذنوبهم، وقد يبقون في النار مدة طويلة، ويحترقون، ثم يخرجون منها، وأيضا المصائب التي تحصل في الدنيا على المسلمين وعلى المؤمنين، مصائب تحصل مع أنهم مؤمنون، فدل على أن المعاصي تضر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالمعاصي تضر في الدنيا وفي الآخرة، ولا يمحوها عن المؤمن إلا الاستغفار والتوبة، ولايقل: أنا مؤمن، ولا تضرني؛ مثل ما تقوله المرجئة.

[٢] يشير إلى المرجئة الذين يقولون: إن المؤمن لا تضره معصية؛ كما أن الكافر لا تنفعه طاعة، نقول: نعم، الكافر لا تنفعه الطاعة، لكن المؤمن تضره المعصية، ولماذا نهينا عن المعاصي، وأمرنا بالطاعات وبالتوبة؟

إلا لأنها تضر، تضر المؤمن إن أصر عليها. أما من تاب، فإنها لا تضره إذا تاب منها، من تاب، تاب الله عليه، لكن من أصر عليها، فإنها تضره في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الكتاب والسنة يدلان على أن الذنوب والمعاصي تضر المؤمنين: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، الرسول ﷺ والصحابة في وقعة أحد ضرتهم المعصية، معصية وقعت من بعضهم، وهم الرماة الذين تخلوا عن الجبل، وقد قال النبي ﷺ: لا تتركوا الجبل، سواء انتصرنا أو هزمنا. خالفوا، ونزلوا من الجبل، فحصلت الهزيمة على المسلمين بسبب الذنوب(١): ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٦٥ - ١٦٧]، فإذا كانت المعصية الواحدة من بعضهم حصلت على الجميع، وفي وقعة أحد: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ يعني: تقتلونهم، في أول الأمر انتصر المسلمون انتصروا انتصارا كبيرا على الكفار في وقعة أحد، فلما نزل الرماة، دار الكفار على المسلمين، وأحاطوا بهم من كل جانب، فحصلت المصيبة على المسلمين بسبب المعصية، ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾؛ يعني: تقتلونهم ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾، الله ما قنطهم،

(١) سبق (١/ ٣٥).

ولا أيسهم، بل إنه ابتلاهم، ومحصهم، ثم قال: عفا الله عنكم.

فدل على أن المعصية تضر، أفضل الخلق ضرتهم المعصية، فكيف بغيرهم؟!

بَلْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. [١].

الشرح:

[١] ما أدق هذا! من سورة الزلزلة قال ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]؛ يعني: عند قيام الساعة، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]؛ ما فيها من الأموات، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣]؛ تعجب الإنسان من هذه الزلزلة، وهذا الهول الذي حصل، (ما لها): ما السبب؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]؛ الأرض تشهد يوم القيامة بما عمل عليها من خير أو شر ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ - ٥]، الله ﷻ هو الذي أنطقها، وهو الذي أمرها أن تشهد على بني آدم، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦]، يصدرون من الموقف أشتاتا؛ ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] ليوقفوا على أعمالهم، ويحاسبوا عليها، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، الذرة أصغر شيء، (مثقال ذرة) قيل: الذرة: النملة الصغيرة، وقيل: الهباءة التي تطير في الهواء(١)، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وهم يقولون: ما تضر المعصية، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أين الذين يقولون: ما تضر المعصية؟!

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٩٥).

وَإِنَّمَا عِبَادُهُ الْمَمْدُوحُونَ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٣ -١٣٥]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ سارعوا، لا تتأخر وتتلكأ، وتفوتك الفرصة، سارع مهما أمكنك المسارعة: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣] (أعدت) يعني: خلقها الله ﷻ بما فيها من النعيم والخير لمن؟ للمتقين، الذين اتقوا الله في الدنيا، وتجنبوا المعاصي، وعملوا الطاعات، من هم المتقون؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وذكر صفاتهم إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥] هذا محل الشاهد: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾؛ الفاحشة: هي المعصية المستفحشة في القبح. ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ بما دون ذلك من الذنوب والمعاصي والسيئات، ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، هذا محل الشاهد من الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]،

استحضروا عظمة الله، وخافوا أنه شهيد ورقيب عليهم، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، هذا محل الشاهد، أهل الجنة يستغفرون لذنوبهم، أين الذين يقولون: ما تضر المعصية المؤمنين؟!

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ [١].

الشرح:

[١] القضاء والقدر من الله ﷻ، الإيمان به ركن من أركان الإيمان الستة؛ كما قال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه جحد ركنا من أركان الإيمان، والإيمان بالقضاء والقدر بأن يؤمن بأن الله قدر الأشياء قبل وقوعها، وكتبها؛ أولًا علمها ﷻ بعلمه الأزلي الذي هو موصوف به أزلا وأبدا، علم ما كان وما يكون، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، حينما خلق القلم قال له: اكتب، فكتب ما هو كائن في اللوح المحفوظ إلى أن تقوم الساعة(٢)، فما من شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ثم إن الله ﷻ يوجد هذه الأشياء في مواقيتها، إذا شاءها، وجدت في مواقيتها، لا تتأخر عنها، كل شيء يوجد في وقته، يشاؤه ﷻ، ثم يخلقه في وقته، لا يخرج شيء عن هذا، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر، لم يكن مؤمنا بالله ﷻ، وهو متوعد بالنار، ولن يجد طعم الإيمان، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يجزع عند المصيبة، ولا يغتر ويفرح

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرج الترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال الرسول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ. فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ»، وأخرجه أبو داود بنحوه (٤٧٠٠).

عند النعمة، بل يشكر عند النعم، ويصبر عند النقم، هذا ملخص الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله ﷻ أخبرنا بذلك في كتابه، قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، ثم بين الحكمة من إخبارنا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، فلابد أن يؤمن الإنسان بهذا.

هناك طائفتان من أهل الضلال:

الطائفة الأولى: طائفة نفت القدر، وقالوا: إن الأمر آنف؛ يعني: مستأنف، وليس له تقدير سابق، لم يقدره الله، ولم يكتبه، وإنما يعلمه إذا وقع، فهذا مذهب المعتزلة، ويقال لهم: القدرية؛ لأنهم نفوا القدر، ويقال لهم: مجوس هذه الأمة[1]؛ لأنهم يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه، فهم أثبتوا خالقين مع الله؛ كما أن المجوس أثبتوا خالقا للخير وخالقا للشر، فهؤلاء زادوا على المجوس بأن قالوا: كل إنسان، فإنه يخلق فعل نفسه، تعالى الله!

الطائفة الثانية: الذين غلوا في إثبات القدر، حتى قالوا: إن العبد مجبور على أفعاله، ليس له اختيار ولا مشيئة، وإنما هو كالأداة بيد محركها، ليس له مشيئة ولا اختيار، وهو مجبور على ما يفعل، وهؤلاء يقال لهم:

---

(١) انظر: الإبانة للأشعري (١/ ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٧، ٢٣٤)، والتبصير في الدين للإسفراييني (١/ ٩١-١٠١)، والعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٣٨).

الجبرية من الجهمية وغيرهم(١)، وسبقهم المشركون؛ قال الله ﷻ عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يعني: ما لنا اختيار، الله شاء لنا هذا؛ فنحن ليس لنا اختيار، يسلون أنفسهم بهذا، وينفون عنهم اللوم، يقولون: لسنا ملومين؛ لأننا مجبرون على هذا الشيء: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾؛ لأنهم يحرمون أشياء لم يحرمها الله، كالسائبة والبحيرة والموصولة، يحرمون أشياء ما حرمها الله، ويستحلون أشياء حرمها الله كالميتة، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾؛ يدفعون عن أنفسهم اللوم، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، كلامكم هذا هل عليه دليل أن الله رضي منكم الكفر والشرك وتحريم الأشياء؟ هل عندكم دليل على أن الله رضي بذلك وأجبركم عليه؟ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؛ أخبر أنهم سيقولون هذا، وقالوه. ذكر الله ﷻ أنهم قالوه في سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، لو كان الله رضي بهذا، وأنهم ليس لهم اختيار، ما كان لإرسال الرسل وإنزال الكتب فائدة، فكونه أرسل الرسل تنهى عن الشرك وعن الكفر، وعن الحرام دليل على أن الله

---

(١) انظر: الإبانة لابن بطة العكبري (١/ ١٥٥)، والتبصير في الدين للإسفراييني (١/ ١٠٧)، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٣).

لا يرضى بهذا، ولا يشرعه ﷻ، ولا يحبه، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٥ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٥- ٣٦]؛ فهذا دليل على أن الله لا يرضى بالكفر، لا يرضاه، ولا يحبه؛ ولذلك أرسل الرسل بالنهي عنه، فالجبرية على مذهب المشركين السابقين، الذين ذكرهم الله في هذه الآية.

الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩]. [٢].

الشرح:

[١] وقد أخبر الله أنهم قالوه؛ كما في سورة النحل، ﴿سَيَقُولُ﴾؛ يعني: في المستقبل، والسين للتنفيس؛ أي: المستقبل القريب، أخبر الله أنهم سيقولونه، وقالوه.

[٢] ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ كذبوا الرسل والكتب، واحتجوا بالقضاء والقدر، وأنهم لا لوم عليهم؛ حتى أذاقهم الله العقوبة والهلاك، ولو كان الله يرضى هذا، لما عاقبهم عليه، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾، لو كان الله - كما يقولون - أجبرهم على هذا الشيء، كان أجبرهم على هذا الشيء، وليس لهم اختيار، ما عاقبهم الله؛ لأن الله لا يظلم أحدا، كيف يعاقب من ليس له اختيار، وليس له إرادة ولا مشيئة، وإنما هو مجبر؟ تعالى الله عن ذلك!

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، هل لكم حجة على ما تقولون على الله ﷻ؟

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ (إن تتبعون)؛ أي: ما، (إن) بمعنى: ما، ما تتبعون إلا الظن، والظن أكذب الحديث: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ما يجوز للإنسان أن يتبع الظن، أمور العقيدة وأصول الإيمان لابد أن تكون على يقين، ليست على ظن ولا تخرص، ولا توقع.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لله الحجة البالغة عليكم، كيف تحتجون عليه أنتم، وتقولون: الله هو الذي أجبرنا؟! الله هو الذي له الحجة البالغة؛ لأنه أرسل الرسل، وأنزل الكتب تنهاكم عن هذا الشيء، وأنتم تقدرون، أعطاكم قدرة، تقدرون على تركه، وتقدرون على فعل ما أمركم به، عندكم قدرة ومشيئة، أقام عليكم الحجة ﷻ بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِأَحَدٍ، لَمْ يُعَذِّبْ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ؛ كَقَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ، [١] وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ، [٢].

الشرح:

[١] حتى ذاقوا بأسنا، لو كان القضاء والقدر حجة لأحد، لما أذاقهم الله بأسه وعذبهم؛ لأنهم يكونون معذورين؛ كما يقولون.

[٢] لو كان مذهبهم صحيحا، لما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب تنهى عن المعاصي والكفر والشرك؛ لأنهم مجبرون على هذا، ولا يقدرون على تركه، إذًا ما فائدة إرسال الرسل وإنزال الكتب؟ يكون هذا عبثًا، فدل على أن لهم إرادة، ولهم اختيار وقدرة، وأنهم وقعوا في هذه الأمور باختيارهم وإرادتهم، ولهذا عذب الله الأمم الكافرة: كقوم نوح، وعاد، وثمود، والمؤتفكات، وهم قوم لوط ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، أهلكهم الله، لو كانوا مجبرين على ما هم عليه وما وقعوا فيه، لما عذبهم الله ﷻ؛ لأن هذا يكون ظلما لهم، والله منزه عن الظلم، فهو الحكم العدل ﷻ، ولما أوجب الله الحدود على الزناة، والسراق، وشاربي الخمور، والمرتدين، لو كانوا مجبرين على هذا، وليس لهم قدرة، فكيف يرتب الله عليهم الحدود؟! جلد الزاني أو رجم الزاني، أو قطع يد السارق، أو جلد شارب الخمر، كيف يعاقبهم، وهو قد قدر ذلك عليهم، وأجبرهم؟!

هو قدرها عليهم، لكن ما أجبرهم؛ لهم اختيار. الإنسان إن شاء، أطاع الله، وإن شاء، عصى الله باختياره ومشيئته، أما لو كانوا ليس لهم اختيار ولا قدرة، صاروا معذورين؛ ولذلك المجنون معذور، الصغير دون البلوغ معذور، النائم معذور، المكره معذور؛ لأنه ليس له اختيار، مجبر على هذا الشيء، أو ليس عنده عقل يميز به بين الحق والباطل.

وَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِالْقَدَرِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ . [١] .

الشرح :

[١] ما يحتج أحد بالقدر، ولذلك الذين يحتجون بالقدر، ويقولون: إنهم مجبرون على ما يفعلون، إنما يتبعون أهواءهم، ليس عندهم دليل: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، الذي ليس عنده علم يتبع هواه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، الذي يزني إنما اتبع هواه وشهوته، الذي يسرق إنما اتبع هواه وشهوته للسرقة، الذي يشرب الخمر إنما شربه لهواه وشهوته.

وَمَنْ رَأَى الْقَدَرَ حُجَّةً لِأَهْلِ الذُّنُوبِ يَرْفَعُ عَنْهُمُ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَذُمَّ أَحَدًا وَلَا يُعَاقِبَهُ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ؛ [١] بَلْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ مَا يُوجِبُ اللَّذَّةَ وَمَا يُوجِبُ الْأَلَمَ، [٢].

الشرح:

[١] هذه حجة مفحمة لهم أيضا، إذا كنتم تقولون: لا لوم علينا؛ لأننا مجبرون على ما نفعل. إذًا إذا اعتدى عليكم أحد، فلا تطالبوا بالعقوبة، لا تطالبوا بالقصاص، إذا قتل لكم قتيل، قولوا: هذا قضاء وقدر، إذا ضربك أحد، لا تنتقم منه؛ لأن هذا قضاء وقدر ليس باختياره، مجبر على هذا، إذا أحد أخذ مالك، لا تخاصمه على مذهبك؛ لأن هذا قضاء وقدر مجبر عليه، فلماذا تخاصم، وتطالب بالقصاص، تطالب بالجزاء؟ هذا دليل على أن الجاني ليس مجبرا، ولأنك تطالب بالعقوبة، فأنت تتناقض مع نفسك، تلتمس لنفسك العذر، ولا تلتمس العذر لغيرك، هذا لا يصلح من العقلاء، إذا كنت أنت معذور بالقضاء والقدر - كما تقول -، فاعذر من يعتدي عليك؛ لأنه مجبور على ما فعل معك، مجبور على هذا، فلماذا تطالب بالجزاء؟! وبهذا تفسد الدنيا، يصير الناس كالبهائم، بل أحط من البهائم، ولا مؤاخذة ولا عقاب، ولا . . . ، تفسد الدنيا بهذا المذهب الخبيث.

[٢] كله مجبر عليه.

فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ خَيْرًا وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ شَرًّا ، [١] وَهَذَا مُمْتَنِعٌ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا . [٢].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]. [٣].

الشرح :

[١] لأنهم كلهم مجبرون، الذي فعل معك خيرا ليس له معروف؛ لأنه مجبر على هذا، ومن فعل معك شرا غير ملوم؛ لأنه مجبر على هذا .

[٢] هذا ممتنع في الطباع والعقول والشرع، حتى البهائم إذا اعتدي عليها، تنتقم لنفسها، أليس كذلك؟ البهائم إذا اعتدي عليها، تدافع عن نفسها، هذا دليل على أن الأمور بالاختيار، وليست بالإجبار .

[٣] الله فرق بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض؛ لو كانوا مجبرين، لما فرق الله بينهم؛ لا فرق بين من يصلي ومن يزني، لا فرق بينهما، إذا كانوا مجبرين، الله فرق بينهم، قال ﷻ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، فكون الله فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ هؤلاء ينعمهم، وهؤلاء يعذبهم، هذا دليل على أنهم غير مجبرين، وأن لهم اختيارا، ومشيئة وإرادة .

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، [١].

الشرح:

[١] ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من الكفار والمشركين، هذا استنكار منه ﷻ أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، استنكار ونفي، ولا يليق بحكمته ﷻ ذلك، فالمسلمون يرحمهم وينعمهم، والمجرمون يعذبهم ويعاقبهم، لماذا فرق بينهم؟ لأنهم فعلوا هذا باختيارهم، فالذي فعل الخير فعله بإرادته واختياره ورغبته، والذي فعل الشر فعله بإرادته واختياره ورغبته، والجزاء من جنس العمل، هذا العدل من الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، ما لكم؟! هذا استنكار، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم: ٣٧-٤٠]، من الذي تكفل لهم بهذه الأمور؟ فهذا دليل على أن هناك فرقًا بين المؤمنين والكفار، والمطيعين والعصاة، وأنهم فعلوا هذه الأمور باختيارهم ومشيئتهم وإرادتهم، لا أحد يصرفهم عن ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. [١].

الشرح:

[١] الآيات في مسار واحد، كلها يصدق بعضها بعضا، (أَمْ حَسِبَ؟!) هذا للاستنكار، استفهام للاستنكار، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: اكتسبوها: الاجتراح هو الاكتساب(١) ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، هذا استفهام إنكار، أي: لانجعلهم، لا يليق بحكمة الله وعدله أن يجعل هؤلاء مثل هؤلاء؛ إذًا لافائدة من الأعمال، ولا فائدة من الشرائع، ولا فائدة من إرسال الرسل، ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، يمكن في الدنيا أن يكون الكافر منعمًا، وعنده أموال وأولاد وقوة، والمؤمن يصير فقيرا ومريضا، ولاينال شيئا من جزاء أعماله؛ لأن الله ادخرها له في الآخرة، والكافر الله استدرجه في الدنيا؛ من أجل أن يعذبه في الآخرة؛ حكمة من الله ﷻ، لا يستوون في الحياة والموت، في يوم القيامة يميز الله بين هؤلاء وهؤلاء، فيكون فريق في الجنة، وفريق في السعير، وليس مثل الدنيا: الأمور مشتركة، في الآخرة لا، بل يميز الله بينهم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ

---

(١) اجترح: عمل بيده، واكتسب، ومنه قيل لكواسب الطير والسباع: جوارح، جمع جارحة؛ لأنها تكتسب بيدها. انظر: لسان العرب (٢/ ٤٢٣)، والمصباح المنير (١/ ٩٥)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٥١).

يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٤ - ١٥]؛ يسرون[1]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤-١٦]

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ١٥٨)، وغريب القرآن (١/ ٥٣٦).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، [١] **وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾** [القيامة: ٣٦]؛ [٢] **أَيْ: مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى.** [٣].

الشرح:

[١] كذلك لو كان الأمر كما يقولون: إنهم مجبرون على الأعمال؛ فيكون إذًا خلقهم عبثا، إذا لم يكن هناك جزاء على الطاعات، ومجازاة على المعاصي، يكون خلق الناس عبثا - تعالى الله عن ذلك -، لو لم يكن هناك بعث، ولا حساب، ولا جزاء، وكل يعمل ما يشاء، وليس هناك نتيجة، لكان خلقهم عبثا، والله منزه عن العبث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

[٢] لو كان الأمر كما يقولون من أنه مجبر، ما حصل أمر ونهي من الله ﷻ؛ لأنه لا فائدة في الأمر والنهي، فهذا فيه الاعتراض على الله ﷻ، وأن أمره ونهيه لا فائدة منه؛ كيف يأمرهم وينهاهم، وهم مجبرون على ما يفعلون؟! يصبح لا للأمر قيمة، ولا للنهي قيمة.

[٣] إذا أخذ بقولهم: (إنهم مجبرون على أفعالهم)، صار الإنسان لا فائدة في أمره ونهيه، فيكون سدى، فيترك سدى، لا يحاسب، ولا يجازى؛ لأنه معذور على قولهم، مجبر ليس له اختيار.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى، قَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَك اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ، لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَك التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْت مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ [طه: ١٢١] قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ [قَالَ]: فَلِمَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ؟ قَالَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى»(١)، أَيْ: غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ. [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث عظيم، ولكن لا يفهمه أكثر الناس، ويغلطون في معناه، يزعمون أن موسى عليه السلام احتج على أبيه آدم بفعل المعصية، لماذا عصيت ربك؟ فيظنون أن موسى عليه السلام عاتب أباه على فعل المعصية، في حين أن موسى عاتبه على المصيبة التي حصلت: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ هذه المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، فآدم احتج بأن الإخراج من الجنة مصيبة، والقدر يحتج به على المصائب، فاحتج آدم عليه السلام على موسى عليه السلام بالقدر على المصيبة، ولم يحتج به على فعل المعصية؛ لأنه فعلها باختياره، وليس مجبرا، وموسى يعلم هذا، وأيضا ما يمكن أن موسى يلوم

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

أباه آدم على معصية قد تاب الله عليه منها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، الحديث ليس فيه حجة للجبرية من وجهين:

الوجه الأول: أن موسى لام آدم على المصيبة، وهي الإخراج من الجنة، ولم يلمه على فعل المعصية؛ لأنه تاب منها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الوجه الثاني: أن موسى تاب من المعصية، ولو كان مجبرًا، لما احتاج للتوبة، ولما استغفر؛ لأن المجبر لا يؤاخذ.

الاحتجاج بالقدر على المصائب هذا أمر من الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، فيصبر على المصيبة، ولايجزع، ولا يتسخط، ويعلم أنها بقضاء الله وقدره، أما المعصية، فلا أحد من المؤمنين يحتج على فعله، ولكن يتوب ويستغفر، ويرجع اللوم إلى نفسه، فيتوب إلى الله، ويستغفر، هذا واضح؟

وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَلَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ: [١] طَائِفَةٌ كَذَّبَتْ بِهِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يَقْتَضِي رَفْعَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ عَمَّنْ عَصَى اللَّهَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ، [٢] وَطَائِفَةٌ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ جَعَلُوهُ حُجَّةً، [٣] وَقَدْ يَقُولُونَ: الْقَدَرُ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ أَنَّ لَهُمْ فِعْلًا. [٤].

الشرح:

[١] طائفتان: القدرية (وهم المعتزلة)، والجبرية.

المعتزلة الذين ينفون القدر، مع أن آدم احتج به على موسى، وهم ينفون القدر، فهذا حجة على المعتزلة، والجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر، إذًا آدم يكون مجبرا على أكله من الشجرة، فكيف يلومه، وهو مجبر على زعمكم؟!

[٢] وهم المعتزلة الذين يقولون: إن الله لم يرد المعصية، ولا شاءها، وإنما العبد هو الذي يفعلها.

[٣] وهم الجبرية.

[٤] أهل الحقيقة: الصوفية (غلاة الصوفية) الذين يزعمون أن الإنسان عندهم ترتفع عنه التكاليف، إذا وصل إلى درجة من التصوف، تسقط عنه التكاليف؛ لأنه صار وليًّا خاصًّا، ليس عليه تكاليف؛ لأنه عرف وانتهى، هؤلاء أهل الحقيقة.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا حَجَّ آدَمَ مُوسَى؛ لِأَنَّهُ أَبُوهُ، [١] أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَابَ، [٢] أَوْ لِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ فِي شَرِيعَةٍ وَاللَّوْمَ فِي أُخْرَى، [٣] أَوْ لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْأُخْرَى. وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ. [٤] وَلَكِنَّ وَجْهَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمْ يَلُمْ أَبَاهُ إِلَّا لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ مِنْ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ لَمْ يَلُمْهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَتَابَ مِنْهُ، فَإِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ التَّائِبَ مِنْ الذَّنْبِ لَا يُلَامُ، وَهُوَ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَيْضًا، [٥].

الشرح:

[١] وليس للابن أن يحتج على أبيه، هذا قول ساقط.

[٢] وهذا أيضا قول لا وجه له؛ لأن موسى لم يذكر الذنب أبدا، لم يقل: لماذا أكلت من الشجرة؟ قال: لماذا أخرجتنا من الجنة؟ ذكر المصيبة فقط.

[٣] في شريعة أخرى؟! كل هذه أقوال لا قيمة لها.

[٤] كل هذه الأقوال باطلة، وسيأتي الجواب الصحيح.

[٥] لم يقل له: لماذا أكلت من الشجرة؟ وإنما قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ هذه مصيبة.

وَلَوْ كَانَ آدَمَ يَعْتَقِدُ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ لَمْ يَقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. [١] وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ عِنْدَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَصْبِرَ وَيُسَلِّمَ، وَعِنْدَ الذُّنُوبِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ. [٢] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، [٣].

الشرح:

[١] لو كان آدم يرى أنه ليس عليه لوم، ويحتج بالقدر على المعصية، لما تاب إلى الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾، فآدم اعترف بأنه ظلم نفسه بالمعصية، اعترف بالمعصية، وأنه فعلها باختياره، وتاب إلى الله ﷻ، فلو كان آدم يرى أنه مجبور على المعصية لما تاب، ماذا يتوب منه، وهو مجبور؟!

[٢] هذه هي القاعدة: أن المؤمن عند المصائب يصبر، وعند الذنوب يتوب ويستغفر، ولا يحتج بالقدر. هذا ما يدل عليه الكتاب والسنة والإجماع؛ أن المؤمن عند المصائب يصبر، ولا يجزع، ولا يتسخط لقضاء الله وقدره، وعند الذنوب يتوب ويستغفر، ولا يحتج بالقدر.

[٣] هذه الآية واضحة، اصبر على ماذا؟ على أذى المشركين؛ لأن هذه مصيبة، الرسول واجه من المشركين الأذى الكثير والمتاعب، الله ﷻ قال له: اصبر، هذا قضاء وقدر، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، لم يقل: اصبر

على ذنبك، بل قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فالذنب الذي يفعله الإنسان باختياره وإرادته يحتاج إلى الاستغفار والتوبة إلى الله ﷻ؛ فالله فرق بين المصيبة وبين الذنب، عند المصيبة قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [غافر: ٥٥] ولا تجزع وتترك الدعوة إلى الله، بل اصبر، واستغفر لذنبك، إذا حصل منك ذنب، فاستغفر. الآية واضحة في هذا.

فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَائِبِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. [١] قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، [٢] فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ.(١) [٣].

الشرح:

[١] هذا احتجاج بالقدر على المصيبة، وأنها بإذن الله وقدره؛ فلا تجزع، ولا تتسخط لقضاء الله وقدره، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يعلم أن هذه المصيبة بإذن الله، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للإيمان.

[٢] الآية تعني: الرجل إذا أصابته مصيبة، يعلم أنها من عند الله، وأنه لا فرار له منها، قال ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»(٢)، وقال ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»(٣).

[٣] ولم يجزعوا، مع بذل الأسباب، والمؤمن لا يصبر ويعطل الأسباب، بل يصبر، ولا يجزع، ولكن يبذل الأسباب للخروج من المأزق ومن الشدة، يأخذ بالأسباب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ١١٠)، وشعب الإيمان (١٢/ ٣٤٥).

فَالْمُؤْمِنُونَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - مِثْلُ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ - صَبَرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذَنْبِ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ أَنْفَقَ أَبُوهُ مَالَهُ فِي الْمَعَاصِي فَافْتَقَرَ أَوْلَادُهُ لِذَلِكَ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ، وَإِذَا لَامُوا الْأَبَ لِحُظُوظِهِمْ ذَكَرَ لَهُمْ الْقَدَرَ. [١].

وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ، وَالرِّضَا قَدْ قِيلَ: إنَّهُ وَاجِبٌ، وَقِيلَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ الصَّحِيحُ. [٢].

الشرح:

[١] الصبر واجب، وهو في كتاب الله في آيات كثيرة، والصبر هو رأس الإيمان. الذي ليس له صبر، لا يكون عنده إيمان، الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، الذي ليس عنده صبر، لا يبقى له دين؛ كما أن الجسد إذا فقد الرأس، لم يبق به حياة، الصبر أمره عظيم، كرره الله في القرآن، وأمر به، وذكر فوائده ونتائجه، وهي الصبر كله عند المصائب.

[٢] الصبر واجب، وأما الرضا بالمصيبة، فهذا ليس واجبا، إن حصل، فحسن أن يرضى، ويسلم، «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فيرَضَى وَيُسَلِّمُ**»، هذا من كمال الإيمان، الرضا من كمال الإيمان، وليس بواجب؛ لأن الإنسان يتألم، ويتضايق. الرضا ليس بواجب، ولكن الصبر وعدم الجزع واجب، أما الرضا، فهذه درجة عالية، لا ينالها كل الناس، لكن إذا حصلت، فهذا طيب.

وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى الْمُصِيبَةِ [١] لِمَا يَرَى مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا؛ [٢].

الشرح:

[١] لأنها خير له، قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١)، أما الكافر، فعلى العكس؛ إن أصابته ضراء، جزع وتسخط، وإن أصابته سراء، أشر وبطر وتكبر.

[٢] لأنها تنبهه إلى التوبة، ولأنها تقمع ما في نفسه من الكبر والتطاول، ولأن أعظم شيء فيها أن الله يكفر بها خطاياه، المصائب تكفير للمسلمين، يكفر الله بها خطاياهم، ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب إلا كفر الله بها خطاياه(٢)، ولما جاء أبو بكر الصديق إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣]؟ أَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا بِهِ جُزِينَا؟ فَقَالَ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ». أخرجه مسلم (٢٥٧٣).

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»[١]، حتى الشوكة يشاكها يكفر الله بها خطاياه[٢]، فالمصائب فيها مصالح للمؤمنين، يكفر الله بها خطاياهم، وتنبههم للتوبة والاستغفار وإدراك الخطأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١)، وهناد (١/ ٢٤٨)، والحارث (كما في بغية الباحث ٢/ ٧١٩)، وابن جرير (٥/ ٢٩٤). وذكره الحكيم (٢/ ١٦)، وأبو يعلى (١/ ٩٨)، وابن حبان (٧/ ١٨٩)، والحاكم (٣/ ٧٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧٣).

(٢) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا» أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ، [١] وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ، وَإِنَابَتِهِ وَتَضَرُّعِهِ إِلَيْهِ، [٢] وَإِخْلَاصِهِ لَهُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَرَجَائِهِ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ. [٣] وَأَمَّا أَهْلُ الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ فَتَجِدُهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ إِذَا أَذْنَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، [٤] وَيُضِيفُونَ الْحَسَنَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهَا، [٥].

الشرح:

[١] وإذا كان ليس عنده سيئات، وأصابته مصيبة، يرفع الله بها درجاته في الجنة؛ لأن الله قد يكتب للعبد درجة في الجنة لا يبلغها بالعمل، فيقدر الله عليه المصائب؛ من أجل أن يرفع الله بها درجاته في الجنة.

[٢] يتذكر ذنوبه؛ فيتوب إلى الله.

[٣] مصالح عظيمة في المصائب للمؤمنين.

[٤] أهل الكفر والشرك على العكس من المؤمنين؛ إذا أصابتهم مصيبة، جزعوا وتسخطوا؛ لأنهم لا يؤمنون أنها بقضاء الله وقدره، وإذا أصابتهم نعمة، فسقوا، وتكبروا، وأشروا، وبطروا، هذه طريقة أهل الكفر والشرك.

[٥] وإذا أنعم عليهم بالحسنات، لا يقولون: هذه من الله، بل يقولون: هذه بسبب فعلنا، وكسبنا، وكدنا، ومعرفتنا، وحذقنا. كما قال قارون لما نُصح: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: هذا المال ليس من الله، إنما هو بكدي وكسبي، فيضيف هذا إلى نفسه، ويجحد فضل الله عليه.

كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ، [١] وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ، [٢] أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاك تَمَذْهَبْت بِهِ. [٣].

الشرح:

[١] تقول: إن كان الله مقدرًا لي أن أصلي، وإني أتصدق، فأنا فعلت هذا، وإن كان لم يقدر الله لي، فلن يحصل مني شيء، وهذا كثيرًا ما يقوله بعض الجهال.

[٢] وعند المعصية ما تلوم نفسك وتتوب، بل تقول: لا، أنا مجبر عليها، ليس لي حيلة فيها. ويعطي نفسه العذر؛ لأنه مجبور بزعمه. عند الطاعة قدري على مذهب المعتزلة، وعند المعصية جبري على مذهب الجبرية.

[٣] وهذه مصيبة؛ يعني: الذين يختارون في المذاهب والأقوال الآن - حتى في غير العقيدة-، الذين يختارون الفتاوى التي تصلح لهم، والأقوال التي تصلح لهم، ولو ما عليها دليل، ولو هي خطأ، وأما التي لا تصلح لهم، ولو عليها دليل وبرهان، لا يقبلونها؛ لأنهم يتبعون أهواءهم.

وَأَهْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ إِذَا فَعَلُوا حَسَنَةً شَهِدُوا إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَا، [١] وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَجَعَلَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَأَلْهَمَهُمْ التَّقْوَى، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، فَزَالَ عَنْهُمْ بِشُهُودِ الْقَدَرِ الْعَجَبُ وَالْمَنُّ وَالْأَذَى، [٢] وَإِذَا فَعَلُوا سَيِّئَةً اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَتَابُوا إِلَيْهِ مِنْهَا. [٣].

الشرح:

[١] شكروا الله عليها، واعترفوا بفضل الله عليهم.

[٢] لا يعجبون بعباداتهم وطاعاتهم؛ لأنهم يعرفون أن الفضل من الله، هو الذي وفقهم لها، هو الذي تفضل عليهم بذلك، فيشكرون الله على الطاعة، ويستغفرون الله عند المعصية. هم يشكرون عند النعم، والطاعة من أعظم النعم وأكبرها.

[٣] النعم ينسبونها إلى الله، وأما الذنوب، فإنهم ينسبونها إلى أنفسهم؛ فيتوبون إلى الله، ويستغفرونه.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُك، وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْت، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت، أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث عظيم، وهو سيد الاستغفار، وفيه الإقرار لله بالربوبية، وأنه الخالق ﷻ، وأنه المنعم، «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، فنسب النعمة إلى الله، ونسب الذنب إلى نفسه، واستغفر الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ إِذَا غُمِسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ»(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

عن ربه، وهذا ما يسمى بالحديث القدسي؛ فرقا بينه وبين الحديث النبوي.

فالحديث القدسي ما كان من كلام الله ﷻ، والحديث النبوي ما كان من كلام الرسول ﷺ، والأحاديث القدسية كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو دون ذلك، وقد صنفت فيها مصنفات، وهذا الحديث من أشهرها؛ لأنه تضمن أشياء كثيرة: أول ما تضمن تنزيه الله ﷻ عن الظلم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والله ﷻ منزه عن أن يضع العذاب في غير موضعه، وأن يضع النعيم في غير موضعه، بل إنه ﷻ حكيم؛ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، لكنه لا يعذب أحدا على غير سبب، ولا ينعم أحدا على غير سبب، بل كل يجازيه الله بعمله.

فهذا بتوفيق الله ﷻ، لا بحوله، ولا بقوته، وإنما الله هو الذي وفقه، وهداه. وفي هذا رد على المعتزلة الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد، فإنما الهداية بفضله ﷻ؛ يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن الهداية لها أسباب من قبل العبد، يفعلها العبد، والضلال له أسباب من قبل العبد؛ كما قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]؛ أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى، هذه أفعال العبد، وهي سبب لتيسير الله له للحسنى، للجنة، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠]، فالعبد هو الذي يسبب لنفسه الشقاء أو السعادة، والله منزه عن أن يظلمه ويشقيه بغير سبب، أو يسعده بغير سبب. وهذا محل الشاهد من هذا الحديث: أن الجزاء إنما يكون على الأعمال، كل يجزى بعمله، لا يجزى

ولا يؤاخذ بعمل غيره، وهذا هو العدل من الله ﷻ؛ فإنه لو عذب أحدا بغير ذنب، أو عذب أحدا بسبب عمل غيره، أو نعَّمَ أحدًا بسبب عمل غيره، كان ذلك ظلما ينزه الله ﷻ عنه.

فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا يَجِدُهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَرًّا فَلَا يَلُومَنَ إِلَّا نَفْسَهُ. [١].

الشرح:

[١] فالخير فضل من الله ﷻ، هو الذي وفق هذا العبد للطاعات والعمل الصالح، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، اعترفوا بأن هذا فضل من الله ﷻ، وكما مر بنا أن الجنة ليست ثمنا للعمل؛ لأنها لا تقابل بالأثمان، ولكنها فضل من الله، والعمل سبب فقط، وأما من وجد غير الخير، فلا يلومن إلا نفسه؛ لأنه هو الذي تسبب في ذلك بأعماله السيئة، فلا يلومن إلا نفسه، ولا يلوم القضاء والقدر؛ كما سبق لنا أن القضاء والقدر يحتج بهما في المصائب والصبر عليها، وأما المعاصي والذنوب، فلا يحتج بالقضاء والقدر عليها، وإنما يلوم الإنسان نفسه، فلا يلومن إلا نفسه، وهذا موافق لما سبق بأنه لا يحتج بالقضاء والقدر على الكفر والشرك والمعاصي، ولكن على الإنسان أن يلوم نفسه؛ لأنه هو الذي قدم لنفسه هذا الشيء، ولهذا إذا دخل أهل النار النار، يطلبون أن يردوا إلى الدنيا؛ ليعملوا، عرفوا أنهم ما دخلوا النار إلا بكفرهم وأعمالهم، فيطلبون الرجوع؛ ليحسنوا العمل، اعترفوا أنهم إنما دخلوا النار بسبب سوء أعمالهم، فيطلبون الرجوع لإصلاح أعمالهم.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْحَقِيقَةِ، [١] وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِخَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] الحقيقة حقيقتان:

حقيقة كونية: تتعلق بمشيئة الله، وهذه لا دخل للعبد فيها، هذه قضاء الله وقدره.

الحقيقة الشرعية: وهذه هي التي للإنسان سبب في كونه عمل بما شرعه الله من الطاعات والخيرات، أو أنه أهمل ذلك، هذه هي الحقيقة الشرعية.

الحقيقة الكونية ليس من لازمها أن الله يحبها ويرضاها، الكفر هذا حقيقة كونية، الله قدره وقضاه، لكنه لا يحبه، لكن قدره لحكمة، وأما الحقيقة الشرعية، وهي الأوامر التي أمر الله بها، فإن الله يحبها ويرضاها ﷻ، فهو يحب المؤمنين، ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الذنوب والمعاصي والكفر والشرك بالله ﷻ.

[٢] يتعلق بالحقيقة الكونية فقط؛ كحالة الجبرية والصوفية، وأيضا الذين يتعلقون بالقضاء والقدر فقط، وهذا خطأ وضلال، هناك حقيقة شرعية أمر الله بها؛ الأوامر والنواهي والأحكام، كل هذه حقيقة شرعية، هم أغفلوها، وأخذوا الحقيقة الكونية فقط، فلابد أن الإنسان يفرق بين القضاء والقدر، وبين الأمر والشرع -كما يأتي من كلام الشيخ-، لابد يفرق بينهما.

وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ مُوَافِقًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ، [١] وَبَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِوَجْدِهِ وَذَوْقِهِ غَيْرَ مُعْتَبِرٍ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. [٢].

الشرح:

[١] فالحقيقة الكونية ليس من لازمها الرضا والمحبة، بل قد يكون فيها رضا ومحبة، وقد لا يكون، أما الشرعية، فمن لازمها الرضا والمحبة.

[٢] وهناك من يعمل بذوقه وعقله وما تميل إليه نفسه، وهذا هو الضلال؛ لأن الواجب أن يعمل بما شرعه الله ﷻ، أما الذوق والعقل، فهذا لا دخل له في الأعمال الشرعية، فلو كان العقل يكفي، لما أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، ولوكلهم إلى عقولهم، فالعقل والذوق، وكون الإنسان يفرح بهذا الشيء، أو يتلذذ به، فليس ذلك دليلا على أن هذا الشيء مستحسن، قد يستحسن الإنسان القبيح، وقد يكره الصحيح؛ يكره الطاعة والعمل الصالح، ويحب الشر والفسوق والعصيان، فليس ما يشتهيه الإنسان ويتذوقه دليلا على أنه مستحسن؛ قد يستحسن الإنسان شرا، وقد يكره خيرا: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فليس المقياس أن يرتاح الإنسان لهذا الشيء، أو يميل إليه، أو أن عقله يدله عليه، ليس هذا هو المقياس، بل المقياس هو الشرع المطهر.

كَمَا أَنَّ لَفْظَ الشَّرِيعَةِ يَتَكَلَّمُ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى. [١].

الشرح:

[١] كما أنهم أخطؤوا في قضية العقل والذوق والوجد، واتخذوه مقياسا، كذلك من الناس من يتعلق بالشرع، لكنه لا يفرق بين الشرع المنزل، والشرع المبدل، والشرع المؤول، ما يفرق بين هذا وهذا:

الشرع المنزل: هو ما أنزله الله ﷻ بمعناه وحقيقته ومدلولاته.

الشرع المبدل: هو الذي يكون من افتراءات الباطنية والإسماعيلية وأهل الضلال، هذا شرع مبدل، إنما هو شرع من عندهم هم.

الشرع المؤول: هذا هو الذي يدخله الاجتهاد، ومنه ما هو خطأ؛ الاجتهاد يخطئ ويصيب، هذا شرع مؤول، فما أصاب الحق من الاجتهادات، يؤخذ به، وما أخطأ، فإنه يترك.

الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ؛ [١] فَإِنَّ هَذَا الشَّرْعَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ الْخُرُوجُ عَنْهُ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهُ إِلَّا كَافِرٌ، [٢] وَبَيْنَ الشَّرْعِ الَّذِي هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ، فَالْحَاكِمُ تَارَةً يُصِيبُ وَتَارَةً يُخْطِئُ، [٣].

الشرح:

[١] هذا هو الشرع المنزل الذي عليه الأنبياء والمرسلون وعباد الله الصالحون، هذا الشرع المنزل.

[٢] ليس لأحد أن يخرج عن الشرع المنزل، لا يخرج عنه إلا كافر؛ لأنه خرج عن أمر الله؛ مثل إبليس ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، فدل على أن الواجب على العبد أن يمتثل الأمر، فإن عصى الأمر، صار فاسقا.

[٣] هذا هو الشرع المؤول، الشرع المؤول يدخل فيه حكم الحاكم - يعني: القاضي -؛ قد يصيب الحق، وقد يخطئ، لكنه كما قال ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(١) على اجتهاده؛ لأنه يريد الحق، فهذا هو الشرع المؤول، وليس من شأنه الصواب، قد يخطئ، وسيأتي أن القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٦١).

القاضي الذي في الجنة: هو الذي عرف الحق، وحكم به.

والقاضيان اللذان في النار:

الأول: الذي عرف الحق، وقضى بخلافه؛ فهو في النار.

والثاني: الذي لم يعرف الحق، لا يعرف الحق (جاهل)، حكم بجهل، فأخطأ، وجمع بين الجهل والخطأ، هذا في النار؛ لأنه ليس للجاهل أن يحكم، ولا أن يجتهد، وهو جاهل، فإذا فعل، فهو في النار؛ لأنه ليس عنده مؤهلات للاجتهاد.

هَذَا إِذَا كَانَ عَالِمًا عَادِلًا ، [١].

الشرح :

[١] إذا كان عالما عادلا ، يصيب ويخطئ، أما إذا كان جاهلا ، فإنه لايجوز له أن يحكم، وكذلك إذا كان عالما بالحق ، لا يجوز له أن يتركه ، ويحكم بالهوى، وبغير الحق ، بل يجب أن يحكم بينهم بما أنزل الله : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، هذا هو الواجب على العالم، وعلى القاضي بالذات؛ ألا يحكم بهواه، وإنما يحكم بما أنزل الله ، وإذا كان عالما ، واجتهد ، وأخطأ ، فهو معذور ، وإن أصاب، فله أجران، أما إذا كان جاهلا ، فليس له من الأصل أن يدخل في هذا الشيء، فإن دخل، فهو في النار؛ لأنه حكم بغير علم.

وَإِلَّا فَفِي (السُّنَنِ) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ [١] رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، [٢] وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِغَيْرِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»، [٣] وَأَفْضَلُ الْقُضَاةِ الْعَالِمِينَ الْعَادِلِينَ: سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذُهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ»(١). [٤].

الشرح:

[١] علم الحق، وقضى به، فهو في الجنة؛ لأنه قضى بعلم، وأصاب الحق.

[٢] رجل ليس عنده علم؛ فلا يجوز أن يقضي بين الناس، وليس عنده علم.

[٣] لأنه تعمد -والعياذ بالله- القضاء بالباطل، وهو يعرف الحق، لكن هواه انحرف به.

[٤] هذه مسألة عظيمة، وهي أن القاضي يقضي في الظاهر على نحو ما يسمع، وأما في الباطن، فحكمه إلى الله ﷻ، فإذا اجتهد القاضي، وحكم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

بناء على الظاهر، وفي الباطن الحكم خطأ، فهذا اختلفوا فيه: هل حكم الحاكم يحل له ما قضي له به، أو لا يحله له؟ الصحيح أنه لا يحله له، حكم الحاكم لا يحل الحرام، ولا يحرم الحلال في الباطن، بل تعاد الخصومات يوم القيامة، ويقضي الله بين الناس، فمن علم من الخصوم أنه مخطئ في دعواه أو مزور في بينته، فإنه يجب عليه التوبة إلى الله ورد الحق إلى أهله، ولا يأخذه. هذا القاضي يحكم، لا يعلم الغيب، حتى الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، هو يقضي على نحو ما يسمع للبينة بالشهود، يقضي بالشهود، وربما يكون أحد الخصوم عنده بلاغة وفصاحة، فيزور الحجة، والآخر مسكين، ليس عنده فصاحة ولا بلاغة، وهو المحق، لكن ليس عنده لسان، ولا قوة بيان، فيتغلب عليه الفصيح البليغ، والقاضي يحكم على نحو ما يسمع؛ لأنه لا يعلم الحقائق الباطنة، ما يعلمها إلا الله، فلا يسوغ لمن حكم له بظلم أن يأخذه، ويقول: هذا قضى لي القاضي فيه، بل عليه أن يرده: «فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ»، فهذا الرسول ﷺ، فكيف بغيره من القضاة؟! بعض الناس يقول: إذا حكم القاضي، هذا حق، وهو يعلم أنه كذاب، وأنه مزور، وأنه . . . ، ويريد حكم الحاكم أن يسوغ له الشيء هذا، هذا لا يجوز، حكم الحاكم لا يقلب الباطل إلى حق، الباطل هو الباطل.

فَقَدْ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى بِشَيْءٍ مِمَّا سَمِعَهُ، وَكَانَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قَضَى بِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ. [١] وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْلَاكِ الْمُطْلَقَةِ إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ بِمَا ظَنَّهُ حُجَّةً شَرْعِيَّةً كَالْبَيِّنَةِ وَالْإِقْرَارِ، وَكَانَ الْبَاطِنُ بِخِلَافِ الظَّاهِرِ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قُضِيَ بِهِ لَهُ بِالِاتِّفَاقِ. [٢].

الشرح:

[١] فليحذر الخصوم أن يأخذوا حقوق الناس بحكم الحاكم، وهم يعلمون أنهم مبطلون، وليحذر أيضا المحامون الذين يحامون عن الخصوم، ويفتحون مكاتب محاماة أن يخاصموا بالباطل، وأن يزوروا، وأن يقلبوا الحقائق على القاضي، ليحذروا من هذا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، فلا يجوز للإنسان أن يتوكل، أو يحامي في قضية يعلم أنها باطلة، لا يجوز له ذلك.

[٢] بإجماع أهل العلم لا يحل له ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ».

وَإِنْ حَكَمَ فِي الْعُقُودِ وَالْفُسُوخِ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ [١] فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَفَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ. [٢] فَلَفْظُ الشَّرْعِ وَالشَّرِيعَةِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ، [٣].

الشرح:

[١] الحديث عام في العقود وفي الفسوخ: كالطلاق، وغيره من فسوخ العقود. لعموم الحديث.

[٢] فرّق بين العقود والفسوخ: فعنده أن حكم الحاكم يكون في العقود إذا صارت خطأ، والقاضي لا يدري، فليس للمبطل أن يأخذ ما قضي به، أما الفسوخ كالطلاق، فلا يجوز للقاضي أن يحكم إلا بتثبت. لا يكتفي بالظاهر، بل يتأكد، ويتحقق من الأمر.

[٣] الناس على ألسنتهم دائما الشرع، يريدون بذلك حكم القاضي، يسمونه شرعا، ولكن الشرع الصحيح والحق هو ما أنزله الله ﷻ، أما حكم القاضي، فهو اجتهاد؛ يخطئ ويصيب، الشرع الذي لا يخطئ هو ما أنزله الله ﷻ، أما الشرع الذي هو حكم الحاكم، فهو يخطئ ويصيب، ولا تقل: أنا أخذت هذا الحكم الشرعي - يعني: بقضاء القاضي-؛ لأن القاضي يجتهد، وقد يصيب، وقد يخطئ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَلَمْ يُتَابِعْهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَهُوَ كَافِرٌ. [١] وَمَنْ احْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ كَانَ غَالِطًا مِنْ وَجْهَيْنِ: [٢].

الشرح:

[١] هذا كغلاة الصوفية الذين يقولون: نحن وصلنا إلى الله. وبعضهم يقول: أنا آخذ عن الله مباشرة، ولا أحتاج إلى الرسل، إنما الرسل للعوام، أما الخواص، فليسوا بحاجة إلى الرسل. هذا كفر وإلحاد - والعياذ بالله -؛ فإنه ليس للناس طريق إلى الله ﷻ إلا عن طريق الرسل، فالذي يزعم أنه يستغني عن الرسل، هذا ملحد، وإن كان يزعم أنه من أولياء الله، فهو من أولياء الشيطان، ليس من أولياء الله.

[٢] يحتجون بأنه يجوز للإنسان أن يخرج عن الشريعة إذا كان عنده ذوق، أو أنه يزعم أنه ولي من أولياء الله، فليس بحاجة إلى الرسول، ويحتجون بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، فإن الخضر في وقت موسى، ومع هذا هو ليس من أتباع موسى. نقول: موسى عليه السلام رسالته ليست عامة كرسالة نبينا محمد ﷺ، ولذلك قد يكون في الزمان الواحد والوقت الواحد أنبياء متعددون، وكل له شريعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ لأن الرسالات السابقة ليست عامة، أما رسالة نبينا محمد ﷺ، فهي عامة للثقلين - الجن والإنس -، فلا يسع أحدا الخروج عنها، مهما بلغ من الولاية ومن العلم، ليس له أن يخرج عنها، بخلاف الخضر؛ فإن رسالة موسى عليه السلام

ليست عامة، وإنما هي خاصة ببني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ يعني: بني إسرائيل، فهو رسول إلى بني إسرائيل، وليست رسالته عامة للثقلين؛ كنبينا محمد ﷺ، ولذلك وسع الخضر أن يخرج عن شريعة موسى؛ لأن شريعة موسى خاصة، لا تتناول كل أهل الأرض.

والخضر عبد صالح، اختلفوا فيه: هل هو نبي أو ولي من أولياء الله؟ عنده علم، أعطاه الله علما، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: ٦٥]، فهو عنده علم من الله ﷻ، وليس من ذوقه، أو من وجده، أو من. . . ، بل من الله، أعطاه الله له، وقيل: إنه نبي يوحى إليه. رجح بعض العلماء أنه نبي، ومنهم الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يرجح أن الخضر نبي؛ لأنه ظهر على يده معجزات لا تكون إلا للأنبياء، والفريق الثاني على أنه عالم وولي من أولياء الله.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ، [١] وَلَا كَانَ عَلَى الْخَضِرِ اتِّبَاعُهُ؛ فَإِنَّ مُوسَى كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْخَضِرِ - كَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى - وَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، فَكَيْفَ بِالْخَضِرِ، سَوَاءٌ كَانَ نَبِيًّا أَوْ وليًّا؟! [٢].

الشرح:

[١] رسالة موسى عليه السلام خاصة، وليست عامة، لا تعم الخضر، ما عمت أهل الأرض كلهم مثل رسالة محمد ﷺ، وقال ﷺ لما ذكر خصائصه، قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي**» ذكر منها «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»(١) وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

[٢] كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ يعني: محمدا ﷺ، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، أخذ الله الميثاق على الأنبياء جميعا أنه

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

لو بعث محمدا ﷺ، ومنهم أحد حي أنه لا يسعه إلا اتباعه، فكيف بغيرهم؟! وعلى الخلاف: سواء كان نبيا أو وليًّا، ما يلزمه اتباع موسى؛ لأنه لم يرسل إليه، وبهذا يجزم بأن الخضر ميت؛ ردا على الذين يزعمون أنه حي؛ لأنه لو كان حياء، لجاء إلى الرسول ﷺ، واتبعه.

وَلِهَذَا قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: «إِنَّا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَاتَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»(١). [١] وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا. [٢].

الثاني: أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ لَمْ يَكُنْ مُخَالِفًا لِشَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام، لَمْ يَكُنْ عَلِمَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُبِيحُ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] فدل على أن الخضر عنده علم؛ كما أن موسى عليه السلام عنده علم.

[٢] ليس لأحد أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، ويقول: أنا عندي علم ليس عند محمد ﷺ. كما قاله الخضر مع موسى، ليس لأحد أن يقول هذا؛ لأن الله أوجب على الخلق اتباعه ﷺ.

[٣] الجواب الثاني: أن الخضر لم يعمل أشياء مخالفة لشريعة موسى عليه السلام؛ فلم يكن لأحد أن يخرج على الشريعة، ويحتج بالخضر؛ لأن الخضر لم يعمل شيئا يخالف شريعة موسى عليه السلام، لكن فعل أشياء خفيت على موسى عليه السلام، فلما وضحها له، أقره على ذلك واعترف له.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

فَلَمَّا بَيَّنَهَا لَهُ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ ثُمَّ تَرْقِيعُهَا لِمَصْلَحَةِ أَهْلِهَا خَوْفًا مِنَ الظَّالِمِ أَنْ يَأْخُذَهَا إِحْسَانٌ إِلَيْهِمْ، [١] وَذَلِكَ جَائِزٌ، [٢] وَقَتْلُ الصَّائِلِ جَائِزٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، [٣].

الشرح:

[١] قصة خرقه للسفينة في البحر، وقصة قتله للغلام، وقصة إقامته للجدار في البلد الذي لم يضيفوه، هذه تخفى على موسى، فبينها له الخضر: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

[٢] موسى عليه السلام قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١] هذا في الظاهر، ولم يكن يعلم مقصود الخضر، الخضر علم أن هناك ملكا غاصبا يأخذ كل سفينة صالحة، فالخضر عليه السلام خرقها ليعيبها؛ فلا يأخذها ذلك الجبار، ثم رقعها، فإذا رأى الملك هذه السفينة مرقعة، تركها.

[٣] وقتله للغلام لأنه خاف على أبويه أن يضلهما إذا كبر؛ لأن الله أطلعه على أن هذا الغلام لو كبر، لأضل أبويه، فقتله؛ لأن هذا له حكم الصائل، والصائل يجوز قتله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]، فهو من باب قتل الصائل؛ لأنه لو كبر، لصال على والديه، فأضلهما، وهذا مما أطلعه الله عليه. لو جاء واحد يريد أن يقتلك، وهو صغير له سبع سنين، ولا يندفع إلا بقتله، تقتله. فهذا الغلام صائل على أبويه، علم الخضر بما علمه الله أنه لو كبر، لصال على أبويه بالكفر والطغيان.

وَمَنْ كَانَ تَكْفِيرُهُ لِأَبَوَيْهِ لَا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِقَتْلِهِ جَازَ قَتْلُهُ. [١] قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِنَجْدَةَ الْحَرُورِيِّ(١) [٢] -لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَتْلِ الغِلْمَانِ- قَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْت عَلِمْت مِنْهُمْ مَا عَلِمَهُ الْخَضِرُ مِنْ ذَلِكَ الْغُلَامِ، فَاقْتُلْهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَقْتُلْهُمْ»(٢). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الشرح:

[١] من كان دفعه عن حمل أبويه على الكفر لا يندفع إلا بقتله، جاز قتله.

[٢] نجدة الحروري من رؤوس الخوارج، سأل ابن عباس عن قتل الغلمان: هل يجوز أو لا يجوز؟ لأن الخوارج ديدنهم القتل وسفك الدماء، فيقتلون الصغار والكبار، الصغار لا يجوز قتلهم إلا إذا أُعطي الإنسان ما أعطيه الخضر، من أنه يعلم مآلهم، وما يكون من شأنهم، ويعلم أنهم سيفسدون في الأرض، فيقتلهم. أما إذا كان لا يعلم، فلا يجوز قتل الصغار.

---

(١) نجدة بن عامر الحروري من رؤوس الخوارج، وزاد على معتقد الخوارج أن من لم يخرج ويحارب المسلمين فهو كافر، ولو اعتقد معتقدهم، خرج باليمامة عقب موت يزيد بن معاوية، وقدم مكة، وله مقالات معروفة، وأتباع انقرضوا، ووقع ذكره في صحيح مسلم، وأنه كاتب ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن سهم ذي القربى وعن قتل الأطفال الذين يخالفونه، وغير ذلك، قُتل سنة ٦٩هـ. انظر: لسان الميزان (٦/ ١٤٨)، والأعلام للزركلي (٨/ ١٠)، والكامل لابن الأثير (٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١٢).

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْيَتِيمِ بِلَا عِوَضٍ وَالصَّبْرُ عَلَى الْجُوعِ، [١].

الشرح:

[١] هذا الأمر الثالث، وهو اليتيمان، لما بنى الجدار، وأهل القرية لم يطعموهم، قال له موسى: كيف تبني لهم جدارا، وهم لم يطعمونا؟ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢]؛ يعني: لو ترك الجدار، ظهر الكنز، فهو بنى الجدار ليستر الكنز ويخفيه، هذا إحسان إلى الأيتام، وليس إحسانًا إلى أهل القرية ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ هذا من أمر الله ﷻ.

وأما قوله (إحسان بلا عوض)؛ لأنه قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]؛ يعني: عوضًا، هو بناه بلا عوض.

صبر الخضر عليه السلام على الجوع مع موسى عليه السلام؛ لأنهم لم يضيفوهما، فأحسنا إلى الأيتام، وصبرا على الجوع.

فَهَذَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مُخَالِفًا شَرْعَ اللَّهِ. [١] وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِالشَّرْعِ حُكْمُ الْحَاكِمِ؛ [٢].

الشرح:

[١] فما كان الخضر في هذا مخالفا شرع الله، ولهذا قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ تأويل يعني: تفسير، تفسير ما غمض على موسى عليه السلام.

[٢] **الأول**: أن يراد بالشرع ما أنزل الله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: أن يراد بالشرع حكم الحاكم؛ كما عند العوام الآن قولهم: الشرع حكم لي... إلى آخره، والتعبير هذا فيه نظر؛ لأن حكم الحاكم ليس الشرع، ولكنه اجتهاد منه؛ ولهذا كان من وصية النبي ﷺ لبعض قواده: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لاَ**»(١)؛ لا تقل: هذا هو الشرع، قل: هذا هو قضاء القاضي؛ لأنه اجتهاد يكون مصيبا، أو يكون مخطئا، يكون مصيبًا، وله أجران، أو يكون مخطئًا، وله أجر واحد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة رضي الله عنه.

فَقَدْ يَكُونُ ظَالِمًا، وَقَدْ يَكُونُ عَادِلًا، وَقَدْ يَكُونُ صَوَابًا، وَقَدْ يَكُونُ خَطأً، [١] وَقَدْ يُرَادُ بِالشَّرْعِ قَوْلُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ: [٢] كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ(١)، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَد، وَإِسْحَاقَ(٢)، وَدَاوُدَ(٣)، وَغَيْرِهِمْ، [٣].

الشرح:

[١] حكم الحاكم يحتمل هذه الأمور: أنه ظالم، أو أنه عادل، أو أنه مخطئ، أو أنه مصيب، هذه الأمور لا ترد على شرع الله ﷻ؛ شرع الله معصوم.

[٢] وقد يراد بالشرع أيضا قول أئمة الفقه المجتهدين، ولهذا تجدون بعض السائلين يقول: أعطني شرع الله في هذه المسألة، أعطني حكم

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث، الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، ولد سنة ثلاث وتسعين، واستقل بالفتوى والكرم بمصر، كان ورعًا فاضلًا كثير الحديث، توفي سنة ١٧٥هـ. انظر: صفة الصفوة (٤/ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ١٣٦).

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن راهويه عالم المشرق، وأحد الأئمة المجتهدين، له تصانيف منها المسند، جمع الحديث، وأخذ عنه أحمد والبخاري، ومسلم والترمذي، والنسائي، سكن نيسابور ومات بها سنة ٢٣٨هـ. انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٥٨).

(٣) أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الملقب بالظاهري، ولد في سنة ٢٠٢، ومات سنة ٢٧٠هـ، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه، وأبي ثور، وكان زاهدًا متقللًا. انظر: طبقات الفقهاء (ص١٠٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ١٠٢).

الله في هذه المسألة، أسألك عن حكم الله. هذا سؤال لا يجوز، ولكن يقول: ماذا ترى لي أنت؛ بناء على ما يظهر لك من شرع الله ﷻ؟

[٣] كأبي حنيفة معروف، والثوري: سفيان الثوري الإمام الجليل.

والأوزاعي إمام أهل الشام.

وفي مصر الليث بن سعد إمام أهل مصر.

وإسحاق بن راهويه وداود الظاهري.

فَهَؤُلَاءِ أَقْوَالُهُمْ يُحْتَجُّ لَهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِذَا قَلَّدَ غَيْرَهُ حَيْثُ يَجُوزُ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا، [١].

الشرح:

[١] هؤلاء أقوالهم يحتج لها، ولا يحتج بها، إنما يحتج بالكتاب والسنة، أما أحكام الفقهاء، فهذه يحتج لها، فما وافق الدليل، فهو حق، وما خالف الدليل، فهو خطأ. الآن يتمتمون بالخلافات، وأن الناس يسعهم ما يفعلون؛ لأنه ليس هناك شيء إلا وفيه خلاف بين الفقهاء، فيقولون: هذا من سماحة الشريعة، يجعلون خلاف الفقهاء شريعة، وهذا من الجهل أو من الضلال، الشريعة حكم الله وحكم رسوله ﷺ، أما أقوال الفقهاء، فإنها قابلة للخطأ والصواب: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فأقوال الفقهاء ترد إلى الله والرسول؛ إلى الكتاب والسنة.

وإذا قلد أحدا منهم حيث يجوز ذلك، يجوز.

الذي يجوز له التقليد من هو؟ هو العامي، والمبتدئ في طلب العلم، هذا يجب عليه التقليد؛ لأنه لا يجوز له أن يجتهد، وهو ليس عنده أهلية، يجب عليه أن يقلد أحد الأئمة، وأيضا طالب العلم الذي يعرف الأدلة أحسن من العامي، وأحسن من المبتدئ، هذا عليه الترجيح، فإذا قلد أحد الأئمة، فلا يقلده تقليدا أعمى، وإنما يعرض أقواله على الأدلة، فإذا دل الدليل على مسألة، أخذ بها، سواء قال بها إمامه، أو قال به غيره؛ لأن المدار على الدليل، فالحنبلي إذا تبين له أن قول الحنفي هو الذي عليه الدليل،

يجب عليه أن يأخذ بقول الحنفي، هذا إذا كان عنده أهلية للترجيح ومعرفة الراجح من المرجوح، فلا يجوز له أن يجمد، ويقول: أنا حنبلي، أنا حنفي، أنا . . . ، أنا . . . ، بل عليه أن يعرض أقوال إمامه على الأدلة، فما وافق، أخذ به، وما خالف، تركه، وأخذ بالدليل؛ فالناس على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة العوام والمبتدئين، هؤلاء لا يسعهم إلا التقليد؛ فهم ليسوا من أهل الترجيح، بل يقلدون.

الثانية: طبقة المتعلمين المتمكنين من الترجيح، فهؤلاء يرجحون، وهذا يسمى مجتهد المذهب، ومجتهد المذهب يرجح.

الثالثة: المجتهد المطلق؛ كالإمام أحمد، ومالك، وأبي حنيفة، والثوري، هذا مجتهد مطلق، عليه أن يأخذ الحكم من الكتاب والسنة، ولا يقلد أحدا، يحرم عليه التقليد. وهذا سبب احتراز الشيخ بقوله: (حيث يجوز ذلك)؛ لأن المجتهد المطلق لا يجوز له التقليد.

أَيْ لَيْسَ اتِّبَاعُ أَحَدِهِمْ وَاجِبًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا يَحْرُمُ تَقْلِيدُ أَحَدِهِمْ كَمَا يَحْرُمُ اتِّبَاعُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ. [١].

الشرح:

[١] التقليد جائز للمحتاج والمضطر، وليس واجبا، إلا إذا كان عاميا، العلماء يقولون: مذهب العامي مذهب من أفتاه. قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فيسأل، وإذا أفتاه العالم، أخذ بقوله، ولا يلحقه شيء؛ لأن هذا منتهى قدرته، لكن ما يسأل أي واحد، وإنما يسأل من يثق بعلمه ودينه، ليس بعلمه فقط، بل دينه، وليس دينه فقط، بل لابد من العلم والدين، فيسأل من يثق بعلمه ودينه، ويأخذ بقوله، وليس اتباعه واجبًا إلا على المحتاج والعامي.

لا يجب اتباع أحد بعينه إلا الرسول ﷺ، أما من عدا الرسول من العلماء، فهذا يجوز اتباعه، إلا إذا خالف الدليل، فلا يجوز اتباعه مع مخالفة الدليل؛ ولهذا الشيخ في بعض كتبه يقول: من زعم أن أحدا يجب اتباعه غير الرسول ﷺ، وجب أن يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ما يجب اتباع أحد من الخلق إلا الرسول ﷺ.

فالتقليد ليس حراما مطلقا، ولا جائزا مطلقا، لابد من التفصيل.

وَأَمَّا إِنْ أَضَافَ أَحَدٌ إِلَى الشَّرِيعَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا مِنْ أَحَادِيثَ مُفْتَرَاةٍ، أَوْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ بِخِلَافِ مُرَادِ اللَّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ نَوْعِ التَّبْدِيلِ[١] فَيَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُؤَوَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُبَدَّلِ[٢].

الشرح:

[١] الذي يستدل بالأحاديث المكذوبة، التي توافق هواه، هذا يبدل الشرع المنزل، يستبدل الأدلة من الكتاب والسنة بأدلة مكذوبة، هذا بدل الشريعة - والعياذ بالله -. والتبديل منه الافتراء بأحاديث مكذوبة، هذا واحد.

أو تأول النصوص بخلاف مراد الله؛ كتأويل الباطنية الذين يقولون: إن النصوص لها ظاهر، ولها باطن. وهم يأخذون بالباطن، والناس يأخذون بالظاهر، فهذا كفر - والعياذ بالله -، هذا تبديل لشرع الله، وهذا الثاني.

[٢] الشرع المنزل: هو الكتاب والسنة، والشرع المبدل: هو ما يعتمد على الأحاديث المكذوبة، أو يفسر بغير تفسيره، وغير مراد الله ﷻ؛ يقولون: هذا ظاهر، والباطن نحن نعلمه. فيجعلون للنصوص ظاهرا وباطنا، هؤلاء الباطنية، وهم أضل الناس - والعياذ بالله -، هذا الشرع المبدل، وأما الشرع المؤول، فهو محل الاجتهاد بين العلماء، فمنه ما يكون تأويله صحيحا، ومنه ما يكون تأويله غير صحيح، ولا يقال: باطل، بل يقال: خطأ.

كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الأَمْرِيَّةِ، وَبَيْنَ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، [١] وَبَيْنَ مَا يُكْتَفَى فِيهَا بِذَوْقِ صَاحِبِهَا وَوَجْدِهِ. [٢].

الشرح:

[١] كما سبق أن هناك حقيقة كونية، وهي القضاء والقدر، وحقيقة شرعية، وهي التي أمر الله بها، وأمر بها رسوله ﷺ.

[٢] هذا إعادة لما سبق من أن من الناس من يأخذ بذوقه ووجده وعقله، ويترك الكتاب والسنة.

فَصْلٌ

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ، وَالْأَمْرِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِذْنِ، وَالتَّحْرِيمِ، وَالْبَعْثِ، وَالْإِرْسَالِ، وَالْكَلَامِ، وَالْجَعْلِ، بَيْنَ الْكَوْنِيِّ الَّذِي خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ، وَلَا يُحِبُّهُ، وَلَا يُثِيبُ أَصْحَابَهُ، وَلَا يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرد على من يحتجون بالقدر، وأنه ليس حجة لهم على فعل الكفر والمعاصي والشرك؛ لأنهم يقولون: إن الله قدر الكفر والإيمان والشرك والمعاصي، فمعناه أنه يرضى بالكفر، كما يرضى بالإيمان، ويرضى بالمعصية، كما يرضى بالطاعة؛ لأنه قدر الجميع، وقضى الجميع على الناس، فالطاعة عندهم موافقة القدر. الشيخ أراد أن يرد عليهم، ويقول: هناك فرق بين القدر وبين الشرع، الله فرق بينهما في كتابه، والطاعة هي موافقة الشرع، وليست موافقة القدر؛ القدر قد يكون طاعة، وقد يكون معصية، أما الشرع، فلا يكون إلا طاعة. الله فرق بين الأمرين في القرآن: فرق بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي، الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية، الإذن الكوني، والإذن الشرعي، وسيذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نماذج من القرآن تفرق بين الأمرين؛ ردا على الذين يحتجون بالقدر.

وَبَيْنَ الدِّينِيِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَشَرَعَهُ، وَأَثَابَ عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُمْ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ الَّتِي يُفَرَّقُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُ الرَّبُّ ﷻ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، [١] وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ فِيمَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ. [٢].

الشرح:

[١] الله فرق بين هذه الأشياء الكونية والشرعية، وفرق بين أوليائه وأولياء الشيطان، فالذين يتبعون شرعه وأمره هؤلاء أولياء الرحمن، والذين يتبعون قدره، ويخالفون شرعه، ويقولون: لا فرق بينهما. هؤلاء أولياء الشيطان.

[٢] فالله فرق بين المؤمنين والكفار، والمطيعين والعاصين، ولم يجعلهم سواء، وإن كان قدر عليهم جميعا الطاعة والمعصية، والكفر والإيمان، فهو فرق بينهما في الجزاء: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار؛ فلم يكونوا سواء: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، هذا خلاف العدل، الله ﷻ حكم عدل، لا يمكن أن يسوي بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والمؤمن والمنافق، لا يمكن أن يسوي بينهم؛ لأن المطيع اتبع أمره وشرعه ودينه، والعاصي اتبع معصيته والكفر به والشرك، ففرق بين العملين، وفرق بين العبدين، وفرق بين الجزاءين عند الله ﷻ. فعدم التفريق بين هؤلاء إلحاد في آيات الله ﷻ، وقد نجمت في هذا العصر فكرة خبيثة، وهي الحرية، وأن الناس أحرار،

وأنهم لا حجر عليهم، ولا مصادرة لآرائهم وأفكارهم، ولا يتقيدون بالشرع، وأن كل إنسان يقول ما يفعل، ويكتب ما يريد، ولو كان كفرا وإلحادًا؛ هذا من حرية الرأي، يقولون: من حرية الكلمة. هذا خروج عن شرع الله ﷻ، هذا يشبه قول هؤلاء (حزب الشيطان)، الذين لا يفرقون بين الشرع والقدر.

فَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ مَشِيئَتُهُ لِمَا خَلَقَهُ، [١] وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ فِي مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَجَعَلَهُ شَرْعًا وَدِينًا. [٢].

الشرح:

[١] المشيئة هذه لا تنقسم، لا تكون إلا كونية، المشيئة لا تكون إلا كونية، وهي ترادف الإرادة الكونية.

[٢] جميع المخلوقات؛ من المؤمنين والكفار، والجن والإنس والشياطين، كلها داخلة في إرادته الكونية وخلقه ﷻ، كلهم خلقه، خلق إبليس والكفار، وخلق الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، خلق هذا وهذا، من جهة الخلق لا فرق، أما من جهة الشرع والجزاء، فهناك فرق.

فالإرادة الكونية لا تستلزم المحبة والرضا، فقد يريد الله كونا وقدرا ما لا يحبه دينا، فالكفر أراده الله كونًا وقضاه، وهو لا يحبه، ولكن قدره وقضاه؛ ليمتحن عباده من باب الابتلاء والامتحان، ليتميز المطيع من العاصي؛ ولي الله من ولي الشيطان، من باب الامتحان والابتلاء، وإلا فهو لا يحبه. أما الإرادة الدينية، فإن الله يحبها، ويرضاها، وسيذكر الشيخ أمثلة في الإرادة الكونية والإرادة الشرعية من القرآن.

وَهَذِهِ مُخْتَصَّةٌ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] [٢] وَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود: ٣٤]، [٣].

الشرح:

[١] الإرادة الدينية مختصة بالإيمان وبالعمل الصالح، أما الإرادة الكونية، فهي لا تختص بالإيمان والعمل الصالح، هي تشمل الكفر والإيمان، تشمل العمل الباطل، والعمل الصالح، كله بقضاء الله وقدره.

[٢] هذه فيها الإرادتان، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾، هذه الإرادة الشرعية، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، هذه الإرادة الكونية، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ الهداية لها أسباب، وهي العمل الصالح. والضلال له أسباب، وهي المعصية والكفر.

[٣] ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الشاهد في قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ هذه الإرادة الكونية التي لا حيلة فيها.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، [١] وَقَالَ تَعَالَى فِي الثَّانِيَةِ(١): ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، هذه الإرادة الكونية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾؛ فالله يريد السوء بمن يستحقه من الظلمة والطغاة والمشركين والكفار؛ لأن الله أراد بهم سوءا؛ حيث لم يقبلوا هدى الله ﷻ.

[٢] الإرادة الثانية: الشرعية. الآيات التي ذكرها هذه في الإرادة الكونية، والآيات الآتية هذه في الإرادة الشرعية. هذه إرادة شرعية، الله ﷻ رخص للمريض أن يفطر في رمضان، ورخص للمسافر أن يفطر في رمضان، ويقضيان من أيام أخر، ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾؛ هذه إرادة شرعية، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، هذا مثال للإرادة الشرعية، التي يرضاها الله ﷻ، ويحبها.

---

(١) يعني: الإرادة الشرعية الدينية.

وَقَالَ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، [١].

الشرح:

[١] قال ﷻ في آية الطهارة من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦]، فأمر بالطهارة من الحدث الأصغر، والطهارة من الحدث الأكبر، وهو الجنابة. والطهارة بماذا تكون؟ تكون بالماء، فإذا لم يجد الماء، فإنه يعدل إلى التيمم بالتراب، يضرب بيديه الأرض، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه، والتراب طهور عند عدم الماء، أو العجز عن استعماله، ثم قال ﷻ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، هذا مثال للإرادة الشرعية.

وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَحَلَّهُ وَمَا حَرَّمَهُ مِنَ النِّكَاحِ، قَالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨] [١].

الشرح:

[١] لما ذكر المحرمات من النساء المحرمات في النكاح من النساء من ذوات النسب وذوات السبب وذوات الرضاع، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٣-٢٤]؛ يعني: المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ثم قال ﷻ بعد هذه الآيات ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]. فالإرادة في هذه الآيات كلها إرادة شرعية دينية.

وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر ما وعظ به نساء النبي ﷺ، ذكر ﷻ أنه أراد من ذلك أن يطهر بيت النبي ﷺ؛ فهي إرادة شرعية، قال ﷻ في آيات الأحزاب: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣١- ٣٣]؛ الرجس هو النجاسة ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ بيت الرسول ﷺ، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣- ٣٤].

فالشاهد منه أن الله أراد من هذه الأوامر -التي وجهها لنساء نبيه أمهات المؤمنين- أنه يريد تطهير نساء النبي ﷺ من الأخلاق السيئة والمخالفات الشرعية، ويطهرهن من ذلك تطهيرا، فدل على أن لزوم الحجاب، ولزوم العفة والبيت والحياء، وتجنب التبرج، وتجنب المغازلات، والكلام الذي يجر إلى الشر أن ذلك طهارة للقلوب، وطهارة للأعراض، وطهارة للبيوت، وأما الملاحدة اليوم، فيقولون: لا، هذا كبت لحرية النساء، وهضم لحقوقهن، دعوا النساء يفعلن ما شئن، لا حجر عليهن. هكذا يقولون

-قبحهم الله-، فهم لا يريدون الطهارة للأمة، وإنما يريدون الرجس للأمة -قبحهم الله-، وكفى الله المسلمين شرهم، ونساء النبي هن القدوة، إذا كانت نساء النبي -وهن أطهر نساء على وجه الأرض- وجههن الله هذه التوجيهات، فكيف بغيرهن من سائر النساء من باب أولى؟!

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا فَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُ كَانَ مُطَهَّرًا قَدْ أُذْهِبَ عَنْهُ الرِّجْسُ بِخِلَافِ مَنْ عَصَاهُ. [١].

وَأَمَّا الْأَمْرُ، فَقَالَ فِي الْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، [٢].

الشرح:

[١] من أطاع أمر الله، فإن الله ﷻ يطهره من الرجس: الرجس الخلقي، والرجس الحسي. ومن عصاه، فإنه تنجس النجاسة الحسية، والمعنوية، فلا طهارة إلا بالإيمان والأخلاق الكريمة والعفة والنزاهة.

[٢] انتهينا من الإرادة، وعرفنا أمثلة الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية الدينية؛ الأمر منه كوني، ومنه شرعي. لا يتأخر عن أمر الله ﷻ، ولا يستعصي، بل إنه يكون، ويوجد بمجرد أن يقول الله له: كن. هذا الأمر الكوني، الذي لايتخلف مقتضاه، أما الأمر الشرعي، فقد يتخلف مقتضاه، وقد يتحقق، أما الكوني، فلا يتخلف أبدا: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]؛ لأن الله لا يأمر بالفسق شرعا، وإنما يأمر به كونا، ويشاؤه كونا؛ لحكمة منه ﷻ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. [٢].

الشرح:

[١] هذا في قيام الساعة: إذا أمر الله بقيام الساعة، لحظة كلمح بالبصر، هل هناك أسرع من لمح البصر؟! ليس هناك أسرع منه، الله إذا أمر بوجود شيء وخلق شيء، إنما هو كلمح البصر.

[٢] ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، يسلط الله عليها شيئا يتلفها، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ أمرنا الكوني القدري ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، فذهب ما فيها من النبات والزخرف الزهر، في لحظة ليلا أو نهارا تصبح كأن لم تغن بالأمس، فالأمر الكوني لا يتخلف عنه مقتضاه، ويوجد في الحال، هذا أمر كوني.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الدِّينِيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، [١].

الشرح:

[١] أما مثال الأمر الديني، فهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، إن الله يأمر أمرا شرعيا دينيا بالعدل، وهو القسط: العدل في القول، والعدل في الحكم، والعدل في كل شيء، وهو عدم الجور؛ العدل ضده الجور، العدل هو القسط، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، فالعدل في كل شيء: في المكاييل، والموازين، وفي كل شيء، الله أمر بالعدل في كل شيء، ونهى عن الجور، والظلم. يأمر بالعدل، والقصاص عدل منه ﷻ؛ القصاص من القتلى، والقصاص في الجراحات والأطراف، والقصاص في الكلام أيضا، كل هذا من العدل، والإحسان فضل، العدل هذا هو الانتصاف من الظالم بمثل ظلمه، فيقتص من القاتل، ويقتص من الظالم والجائر بمثل ما اعتدى، من غير زيادة، من غير زيادة في القصاص، وأخذ الحق من المعتدي، ولكن أفضل منه الإحسان، وهو العفو؛ قال ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، هذا قصاص وعدل، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، القصاص عدل، والعفو فضل، والفضل

أحسن وأفضل من العدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو القصاص من المعتدين، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو العفو عن المعتدي والتسامح؛ لأن هذا يجلب المودة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، القربى: كل من تربطك بهم قرابة؛ قرابة رحم من جهة الأب، أو من جهة الأم، لهم حق عليك، قال ﷻ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، فله حق عليك بعد حق الوالدين، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، فبعد الوالدين القرابة من جهتهما؛ لهم حق عليك بالصلة؛ صلة الرحم، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، والفحشاء هي كل ما استقبح من المعاصي، فالفحشاء هي المعصية المستقبحة، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: سائر المعاصي، ينهى عن الكبائر والصغائر من المعاصي، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾: وهو التعدي على الناس في دمائهم، أو في أموالهم، أو في أعراضهم، هذا بغي، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾، فهذه الآية فيها الأمر الشرعي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، فهذا أمر شرعي ديني.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨]. [١].

الشرح:

[١] ومن الأمر الشرعي الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، أيها العباد ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾، وهي كل ما اؤتمنتم عليه من حق الله، أو من حق المخلوقين، فهو أمانة، يجب عليك أن تؤديها ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، الذين ائتمنوك عليها، لا تبخس منها شيئا، ولا تخن فيها، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، الشاهد من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ هذا أمر شرعي ديني.

وَأَمَّا الْإِذْنُ، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ لَمَّا ذَكَرَ السِّحْرَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ [١] أَيْ: بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَمَا هُم﴾ أي: السحرة، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي بالسحر، السحر يضر: إما بالقتل، وإما بالمرض، فهو يضر - نسأل الله العافية -، وهو من عمل الشياطين، ولكنه لا يضر أحدا إلا بإذن الله؛ إذن الله وقدره الكوني، فلا يمكن للسحرة أن يتسلطوا على أحد، ويؤذوه بسحرهم إلا بقضاء الله وقدره، فعلى المسلم أن يتوكل على الله، وأن يستعيذ بالله من السحرة ومن غيرهم، الشاهد من الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إذنه الكوني، وإلا فإن الله لا يأذن بالسحر شرعا، بل ينكره ﷻ، ويكفر من فعله، وإنما هذا إذن كوني قدري. فإذا قدر الله أن السحر يضر، وقع الضرر منه، فهذا يستدعي من العبد أن يلجأ إلى الله، وأن يستعيذ به من السحرة وغيرهم.

[٢] وأما هم، فلا يستطيعون أن يضروا أحدا إذا لم يقدر الله الضرر؛ فهو الذي يسلط السحرة وغيرهم لحكمة منه ﷻ يبتلي بها العباد، أو جزاء على سيئاتهم، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، فقد يسلط الله السحرة على إنسان بسبب ظلمه ومعصيته لله ﷻ.

وَإِلَّا فَالسِّحْرُ لَمْ يُبِحْهُ اللَّهُ ﷻ، [١] وَقَالَ فِي الْإِذْنِ الدِّينِيِّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، **[٢] وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، **[٣].**

الشرح:

[١] السحر لم يبحه الله؛ لأنه كفر، والله لا يرضى بالكفر، وهو من عمل الشياطين، وهو ضرر على الناس؛ فالله لا يبيحه.

[٢] يعني ما لم يشرعه الله؛ فالإذن يكون شرعيا؛ كما أنه يكون قدريا. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ هذا في الذين يحللون ويحرمون بدون دليل من كتاب الله أو من سنة رسوله، فهؤلاء شرعوا للناس شرعا لم يشرعه الله، لم يأذن به الله ﷻ، وقالوا على الله بغير علم.

[٣] قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، هذه شهادة للرسول ﷺ بالرسالة، شهادة من الله ﷻ أن الله أرسله، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، شاهدا على هذه الأمة، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] على هذه الأمة، كل أمة يوم القيامة يشهد عليها نبيها أنه قد بلغها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ مبشرا للمؤمنين بالجنة، ونذير للكافرين

بالنار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]؛ تدعو الكفار إلى الإسلام، وتدعو العصاة والمذنبين إلى التوبة، ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بشرعه، هذا محل الشاهد، فالرسول جاء بإذن من الله؛ أي: بشرع من الله أنزله عليه، وأوحاه إليه. فهذا فيه دليل على الإذن الشرعي.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥]. [٢].

الشرح:

[١] عموم الرسل من أولهم إلى آخرهم، ما أرسلهم الله إلا لأجل أن يطاعوا؛ لأن من أطاعهم، فقد أطاع الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فما أرسلهم إلا لأجل أن يطاعوا بإذن الله؛ أي: بشرعه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بشرعه، هذا محل الشاهد، فدل على أن الإذن يكون شرعيًا؛ كما أنه يكون قدريًا.

[٢] هذا في غزوة بني النضير؛ أن الرسول ﷺ غزاهم في مكانهم هو وصحابته الكرام، وحاصروهم، وقطعوا بعض النخيل نكاية بهم، فقال ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾؛ أي: من نخلة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بشرعه، وأن الله أذن لكم بذلك، وشرع لكم النكاية باليهود.

وَأَمَّا الْقَضَاءُ، [١] فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، [٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. [٣].

الشرح:

[١] في القضاء الكوني، القضاء ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني قدري، وقضاء شرعي ديني، القضاء الكوني ما مثاله في القرآن؟

[٢] ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾؛ أي: السماوات، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، هذا قضاء كوني.

[٣] ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ﴾؛ أي: الله تعالى ﴿أَمْرًا﴾؛ أي: قدره، وشاءه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ في الحال، لا يتأخر، إذا قال الله له: كن. فإنه يكون في الحال، الشاهد من قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: القضاء الكوني، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أَيْ أَمَرَ، [١] وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ قَدَّرَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ عُبِدَ غَيْرُهُ؛ كَمَا أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ [٢] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. [٣].

الشرح:

[١] هذا قضاء ديني شرعي؛ أي: أمر، ووصى. قضى أي: أمر، ووصى، وليس معناه: حكم وقدر - كما يقوله أهل الضلال -، وإنما معناه: أمر، ووصى ألا تعبدوا إلا إياه، شرع لكم هذا.

[٢] القضاء الشرعي لا يلزم أن يقع؛ قد يقع، وقد لا يقع، أما القضاء الكوني، فلا يتخلف، فلو أن معنى الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ أي قدر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ما كفر أحد، ما أحد يتخلف عن القضاء الكوني لكن الناس انقسموا إلى: مؤمن، وكافر، إلى: مشرك، وموحد، فهذا دليل على أن المراد القضاء الشرعي، الذي يستجيب له من يستجيب، ويخالفه من يخالفه، والجزاء في المستقبل لهؤلاء وهؤلاء.

[٣] الدليل على أنه ليس القضاء الكوني أنه تخلف مقتضاه في كثير من الناس، فكثير من الناس أشركوا بالله، مع أن الله قضى ألا تعبدوا إلا إياه، فدل على أنه قضاء شرعي يفعله من يريد، ويتركه من يريد. فلو أن المراد بالقضاء القضاء الكوني، ما عبدوا هؤلاء؛ لأن هذا يخالف القضاء الشرعي.

وَقَوْلُ الْخَلِيلِ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، [١] وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، [٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون]. [٣].

الشرح:

[١] لأن قوم إبراهيم أشركوا بالله، فلو أن المراد بالقضاء القضاء الكوني، ما خالفوا، ولا أشركوا.

[٢] ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فدل على أنهم عبدوا غير الله، ولو كان القضاء كونيا، ما عبدوا غير الله، فدل على أنه قضاء شرعي. ولو كان القضاء قدريا، لما كفروا بالله، بل آمنوا جميعا، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس: ٩٩]، لو شاء ذلك كونا وقدرا، ما تخلف أحد عن ذلك، ولكنه قضاه، وأراده شرعا ودينا، فمن الناس من امتثل، ومنهم من خالف.

[٣] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، فدل على أن هناك من يعبد غير الله،

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾، فدل على أن هناك من يعبد غير الله، وهناك من يعبد الله، فالرسول ﷺ يعبد الله؛ امتثالا لأمره الشرعي، وأما الكفار، فهم يعبدون غير الله، فدل على أن المراد بالقضاء هنا ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أنه القضاء الشرعي.

ليس معنى ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أنه كل على حق، أنا وأنتم - كما يقوله بعض الكتاب اليوم -، وأن كل الناس يعبدون الله: هذا على طريق اليهود، وهذا على طريق النصارى، وهذا على طريق كذا، والمسلمون يعبدون الله؛ فكل الناس يعبدون الله، يقولون: كل الناس يعبدون الله، هذا من جنس قول الملاحدة: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فلا في فرق بين دين المسلمين ودين الكافرين، وليس قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أنني راض عن دينكم، ومقر لكم عليه، بل معناه: البراءة، معنى السورة وهذه الآية خصوصا: البراءة من دين المشركين، هذا معناها، وما تبرأ منه إلا لأنه باطل وكفر.

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَقْتَضِي بَرَاءَتَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَلَا تَقْتَضِي رِضَاهُ بِذَلِكَ؛ [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. [٢].

الشرح:

[١] رضاه بدينهم، وأن كلنا نعبد الله؛ يقولون: وإن تعددت الطرق، فكلهم يعبدون الله. نقول: لا، الله لا يُعبد إلا بما شرع، ما يعبده الناس بأهوائهم ورغباتهم، إنما يعبد الله بما شرع، ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار، فهو من أكذب الناس وأكفرهم؛ كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، بمعنى قدر، وأن الله ﷻ ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، فإن هذا من أعظم الناس كفرا بالكتب. وأما لفظ البعث، فقال الله ﷻ في البعث الكوني: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٥]، على لسان رسوله ﷺ، ليس هناك طريق إلا طريق الرسول ﷺ.

[٢] فهذه الآية تفسر قوله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]؛ أن معناه البراءة من دينهم، وليس الإقرار لهم على دينهم، وأنه دين حق، وأن كلنا سواء، كلنا نعبد الله، وإن اختلفت الطرق. هذا كلام باطل.

وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ أَنَّ هَذَا رِضَا مِنْهُ بِدِينِ الْكُفَّارِ، فَهُوَ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ وَأَكْفَرِهِمْ؛ كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] بِمَعْنَى قَدَّرَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا قَضَى بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَعَ، وَجَعَلَ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كُفْرًا بِالْكُتُبِ [١] وَأَمَّا لَفْظُ الْبَعْثِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي الْبَعْثِ الْكَوْنِيِّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]. [٢].

الشرح:

[١] من ظن أن هذا من الرسول ﷺ رضا بدين الكفار، فهو من أكذب الناس على الله وعلى رسوله؛ لأن الرسول لم يرض بدين الكفار، ولا أحد من المؤمنين يرضى بدين الكفار.

[٢] البعث على قسمين: بعث كوني قدري، وبعث شرعي. البعث الكوني مثل قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، قال ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]؛ يعني: في التوراة التي معهم، (قضينا) يعني: أخبرناهم؛ القضاء يطلق أحيانا، ويراد به الإخبار: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أخبرناهم، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، والإفساد في الأرض: إفسادها بالمعاصي والكفر والشرك، وإصلاحها: بالطاعة والعبادة؛ فالأرض لا تصلح إلا بعبادة الله ﷻ، وأما الكفر بالله، فهو

إفساد في الأرض، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، فالإفساد في الأرض هو النفاق، والكفر، والمعاصي، وأما الطاعة والعبادة لله، فهي إصلاح في الأرض، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾؛ بالكفر والمعاصي، يحصل منهم كفر ومعاصي مرتين، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يحصل منكم كبر وأشر وبطر، فعند ذلك يعاقبهم الله في المرتين، يعاقبهم الله في كل مرة على إفسادهم، وعلى كبرهم وطغيانهم، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٤- ٥]؛ أي: أولى المرتين، وأفسدتم في الأرض، ﴿بَعَثْنَا﴾ هذا محل الشاهد: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ من الكفار؛ لأنه سبق أن كل الناس عباد لله؛ العبادة العامة، كلهم عباد الله، تنفذ فيهم أقداره وتدابيره ﷻ، لا يخرجون عن ذلك، كلهم عباد عبادة قهرية، أما العبادة الاختيارية، فهي للمؤمنين خاصة، العبودية الاختيارية هذه للمؤمنين خاصة، أما العبودية القهرية، فهي عامة للمؤمنين والكفار، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، قوله: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾؛ أي: من الكفار، يسلط الله الكفار على المسلمين بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾؛ أي: من الكفار، ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، والعياذ بالله معهم قوة وعتاد وبطش، ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، أفسدوا بلادكم، ودخلوا بيوتكم، ونهبوا أموالكم، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾؛ بسبب الإفساد الذي حصل منكم، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٥-٦]، بعد ذلك

إذا تاب بنو إسرائيل، واستقاموا بعد النكبة، وعرفوا خطأهم، وأصلحوا شأنهم، أعاد الله لهم العزة، وأخرج الكفار من بلادهم، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار الذين غزوكم في بيت المقدس، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٦ - ٧]؛ أي: المرة الثانية؛ لأنه قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، المرة الأولى مضت، المرة الثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: المرة الثانية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، إذا تبتم وأصلحتم، أعاد الله لكم عزكم، ونصركم على عدوكم؛ فأخرجتموهم من بلادكم، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، إذا عصيتم مرة ثانية، وأفسدتم في الأرض، أعاد الله عليكم العقوبة، وأعاد عليكم العدو، فسودوا وجوهكم بالهزيمة النكراء -والعياذ بالله-، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ المسجد الأقصى، يدخلون المسجد، ويفسدون فيه، في بيت المقدس، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٧]؛ يعني: يهلكوا، ويتلفوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾؛ أي: علا بنو إسرائيل من الأموال والمباني والعمران، ﴿تَتْبِيرًا﴾؛ يدمروه تدميرا بسبب فسادكم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]؛ المرة الثالثة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، وقد عادوا، فبعث الله نبيه محمدا ﷺ، ونصره الله عليهم، وقتلهم شر قتلة في وقعة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وسلط الله عليهم رسوله ﷺ، وأجلوا من جزيرة العرب، وفرقوا، وشتتوا - والعياذ بالله -، فهذه المداولات مع بني إسرائيل، كلما أفسدوا، سلط الله عليهم.

وَقَالَ فِي الْبَعْثِ الدِّينِيِّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. [٢].

وَأَمَّا لَفْظُ الْإِرْسَالِ، فَقَالَ فِي الْإِرْسَالِ الْكَوْنِيِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، [٣].

الشرح:

[١] والبعث الديني ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، بعثه؛ أي: أرسله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، هذا في البعث الديني.

[٢] فهذا بعث خيري وبعث ديني؛ بعث الرسل، أما بعث الجبابرة والطغاة، فهذا بعث كوني؛ عقوبة، وأما البعث الديني، فهو نعمة ورحمة من الله ﷻ. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1]، يبعث يعني: هذا بعث ديني.

[٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، هذا إرسال كوني، وليس بإرسال شرعي؛ الإرسال الشرعي هو إرسال الرسل، أما إرسال الشياطين، فهذا إرسال كوني قدري، يسلط الله الشياطين على الكافرين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] [١] وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] [٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، [٣].

الشرح:

[١] هذا إرسال كوني قدري، يرسل الرياح بشرا بين السحاب، هناك رياح تثير السحاب، وهناك رياح تجمع السحاب، وتؤلفه، وهناك رياح تفرق السحاب، وهناك رياح تلقح السحاب، وهناك رياح تحمل السحاب وتسيره، ولذلك قال الله: (رياح) متعددة، ليست ريحًا واحدة، وهناك رياح مهلكة - والعياذ بالله -، رياح رحمة ورياح عذاب، أرسلنا الرياح؛ يعني: إرسالا كونيا قدريا.

[٢] الإرسال الديني هو إرسال الرسل عموما، ومنهم نبينا محمد ﷺ، هذا إرسال ديني ورحمة للأمة؛ رحمة للعالم، أما الإرسال الكوني، فإنه يكون نقمة.

[٣] كذلك هذا إرسال ديني: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، [١] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. [٢].

وَأَمَّا لَفْظُ الْجُعْلِ فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، [٣].

الشرح:

[١] الله أرسل إلينا رسولا - وهو محمد ﷺ -؛ كما أرسل الله إلى فرعون رسولا، وهو موسى عليه السلام: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، أنتم إن عصيتم، أخذناكم مثلما أخذنا فرعون وقومه.

[٢] الرسل على قسمين:

رسل من الملائكة، وهو الرسول الملكي.

ورسل من البشر: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ الرسل قسمان: بشري، وملكي.

[٣] وجعلنا الكفار: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾؛ أي: قوم فرعون ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١] (جعلنا) هذا جعل كوني؛ يعني: صيرنا.

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾، هذا جعل شرعي ديني ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

[٢] أي: ما شرع الله ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، هذه أنواع كان المشركون يجعلونها في بهيمة الأنعام لأصنامهم، البحيرة: هي التي تشق أذنها؛ علامة على أنها للصنم، تشق أذنها، والسائبة: هي التي لايحمل عليها، إذا بلغت سنا معينا، أو أنتجت نتاجا من الأولاد معينا، سيبوها للأصنام، فلا تركب، ولا تحلب، ولا تؤكل؛ مسيبة للأصنام، ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، إذا واصلت الحمل عدة مرات أيضا، سبلوها للأصنام -والعياذ بالله-، ﴿وَلَا حَامٍ﴾، يقولون: الفحل من الإبل إذا بلغ مبلغا من الضراب، فإنه يحمى، ظهره حام، يعني يحمى ظهره من الركوب والحمل، فيسيبونه، ولا ينتفعون منه[(١)]. هذه تصرفات من المشركين، ما أنزل الله بها من سلطان، ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾؛ يعني ما شرع الله ذلك، وإنما هم الذين شرعوه لأنفسهم من دون الله ﷻ، حرموا ما أحل الله - والعياذ بالله -، الشاهد من قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما شرع الله ذلك، وإنما هذا من الكفار.

---

(١) انظر في تفسير الآية: زاد المسير (١/ ٥٩٢- ٥٩٣)، والقرطبي (٦/ ٣٣٥ - ٣٤١).

وَأَمَّا لَفْظُ التَّحْرِيم، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، [٢].

الشرح:

[١] (حرمنا) أي: منعنا، التحريم معناه: المنع، فالله منع موسى أن يرضع من امرأة لأجل ماذا؟ لأجل أن يرده إلى أمه، لما خافوا عليه الهلاك، ولم يرضع من امرأة، لم يقبل ثديها أبدا، عرضوا عليه المراضع، لم يقبل ثديها؛ لأن الله منعه، (حرم عليه) يعني: منعه؛ لأجل أن يرده إلى أمه؛ كي تقر عينها. فالشاهد قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾؛ يعني: منعناه من الرضاع، هذا منع كوني، وإلا فالرضاع حلال في الشرع، ولكن الله منعه كونا وقدرا.

[٢] لما أبى بنو إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس؛ لأن فيه جبابرة، وهم جبناء لا يستطيعون مقابلة الجبابرة، في النهاية قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، أنزل الله عليهم العقوبة، فقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: دخولها ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، لا يأوون إلى مبان وإلى بلاد، وإنما يكونون في البرية يتيهون، يذهبون، ويجيئون؛ عقوبة لهم، إلى أن أنشأ الله جيلا بعدهم شجعانًا، فدخلوا بيت المقدس، وهزموا المشركين، وطردوهم

منه . الشاهد في قوله : ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ ؛ أي : بيت المقدس ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] ؛ أي : ممنوعون من دخولها ، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] ؛ عقوبة لهم ؛ لما أبوا أن يدخلوا مع نبيهم، ويُخرجوا المشركين من بيت المقدس (من المسجد الأقصى)، عاقبهم الله ﷻ ، لكن رحمهم في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأرسل الغمام يظلهم من الشمس؛ رحمة منه ﷻ بهم .

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]. [٢] وَأَمَّا لَفْظُ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ فِي الْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]. [٣].

الشرح:

[١] هذا تحريم ديني، وليس بكوني، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ يعني: تناول لحوم الميتة، ﴿وَٱلدَّمُ﴾، وهو الدم المسفوح، ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾، وهو الحيوان القذر النجس المعروف.

[٢] حرم شرعًا ودينًا أن تتزوجوا من هؤلاء القريبات، أو المرضعات، أو المصاهرات، أو المزوجات.

[٣] أما انقسام كلمات الله إلى:

كلمات كونية: يدبر الله بها الأشياء، ويأمر بها.

وكلمات شرعية: يشرع الله فيها لعباده ما يصلحهم وما يقربهم إليه.

فقد جاءت في القرآن أيضا، وجاءت في السنة. في القرآن هذه الآية أن الله ذكر عن مريم بنت عمران أنها صدقت بكلمات الله الكونية، فآمنت بالقضاء والقدر، وصدقت بكتب الله الشرعية، التي هي كلماته الشرعية،

فهي صدقت بالكلمات الكونية والكلمات الشرعية، وهكذا المؤمن يصدق بالكلمات الكونية، ويصدق أيضا بالكلمات الشرعية، فلا يأخذ الكلمات الكونية فقط، ويترك الشرعية؛ كحالة الجبرية، ولا يأخذ بالشرعية فقط، ويترك الكونية.

وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»(١). وَقَالَ ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»(٢)، وَكَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»(٣). [١].

الشرح:

[١] فالحديثان الأولان: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» هذه الكلمات الشرعية، وأما قوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ...» في الحديث الثالث: «الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»؛ فهي الكلمات الكونية؛ لأن الكلمات الكونية قاضية على كل مخلوق، مؤمنا كان، أو كافرا،

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وأحمد (٢/ ١٨١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولفظه: «إذا فَزِعَ أحدكم في النَّوْمِ، فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ من غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٥٠)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٤١٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨).

لامناص له من إجراء الكلمات الكونية عليه والقضاء والقدر، أما الكلمات الشرعية، فإنما يلتزم بها أهل الإيمان، أما أهل الكفر، فيتجاوزونها، ولا يعملون بها، فهذه الأحاديث فيها الكلمات الشرعية، وفيها الكلمات الكونية.

وَكَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّاتُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ هِيَ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ، فَلَا يَخْرُجُ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ عَنْ تَكْوِينِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ، وَهِيَ كُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَأَطَاعَهَا الْأَبْرَارُ وَعَصَاهَا الْفُجَّارُ. [١] وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَجَعْلِهِ الدِّينِيِّ، وَإِذْنِهِ الدِّينِيِّ، وَإِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ. [٢] وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ، حَتَّى إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَالْخَلْقُ وَإِنْ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ، فَقَدْ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ. [٣].

الشرح:

[١] هذا هو الفرق ما بين الكلمات الكونية والشرعية: أن الكلمات الكونية لا يخرج أحد عنها، وأما الشرعية، فيخرج عنها الفجار والأشرار، ويعصونها.

[٢] وكذلك فإن أولياءه مطيعون لكلماته الدينية، وأما أعداؤه، فيعصون الكلمات الدينية، ولذلك إبليس لما أُمِرَ بالسجود، عصى. هذا أمر شرعي، أما لو كان أمرا كونيا، فما يقدر على أن يخالفه.

[٣] الافتراق إنما هو في الكلمات الدينية الشرعية، وأما الكلمات

الكونية، فلا افتراق فيها؛ كل يطيعها طوعا واختيارا: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، لا أحد يستطيع أن يخرج عن الكلمات الكونية، والمشيئة: مشيئة الله القدرية لا أحد يخرج عنها.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ، وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ، [١] وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، [٢] فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. [٣] وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ - وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ - فَهُوَ يُبْغِضُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ. [٤].

الشرح:

[١] هم الذين امتثلوا الكلمات الدينية، ففعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه.

[٢] وصبروا على القضاء والقدر، لم يجزعوا، ولم يتسخطوا، فجرى عليهم القضاء والقدر، وهو الكلمات الكونية، رضوا بذلك، وامتثلوا أيضا الكلمات الشرعية، فعملوا بها؛ فجمعوا بين الأمرين.

[٣] كانت نتيجة ذلك أن الله ﷻ رضي عنهم، ورضوا عنه، وأحبهم، وأحبوه؛ لأنهم أطاعوه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه. أما الكفار، فإنهم عصوا أمره، فغضب الله عليهم، ولعنهم، ومقتهم.

[٤] لأنهم عصوا أمره، وخالفوا نهيه، فهو يبغضهم، ويمقتهم؛ لأنهم خالفوا شرعه ودينه، ولم ينفعهم أنهم وافقوا قضاءه وقدره وكلامه الكوني.

وَبَسْطُ هَذِهِ الْجُمَلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ، وَإِنَّمَا كَتَبْت هُنَا تَنْبِيهًا عَلَى مَجَامِعِ الْفَرْقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَجَمْعُ الْفَرْقِ [١] بَيْنَهُمَا اعْتِبَارُهُمْ بِمُوَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ السُّعَدَاءِ وَأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ، [٢].

الشرح:

[١] ولذلك عنوان الكتاب: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، هذا هو الفرقان.

[٢] لما بعث الله محمدا ﷺ إلى الناس كافة، منهم من أطاعه، وآمن به؛ فنال رضا الله تعالى وكرامته، ومنهم من عصى هذا الرسول، وكفر به؛ فنال غضب الله وسخطه ولعنته: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥-١٦]، فمن أطاع هذا الرسول، واتبع أمره، واجتنب نهيه، واقتدى به، فإنه ينال رضا الله، ومن خالف أمره، وكفر به، فإنه ينال غضب الله تعالى، هذا هو الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ أن أولياء الرحمن أطاعوا الرسول، وأما أولياء الشيطان، فهم عصوا الرسول. ولو تركهم، ولم يرسل رسولا، لما حصل فرق، ولا تبين هذا من هذا، إنما يتبين هذا بإرسال الرسل وإنزال الأوامر والنواهي، هي التي تفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، أما لو لم ترسل الرسل، وتنزل الكتب، لما تميز هذا من هذا.

وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْدَائِهِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، وَأَعْدَائِهِ حِزْبِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ. [١] قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، [٢].

الشرح:

[١] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، علق الجزاء بالوصف؛ الأبرار في نعيم؛ لبرهم، والفجار في جحيم؛ لفجورهم ومعصيتهم. فرق الله به بين هؤلاء وهؤلاء.

[٢] هذا مما فرق الله به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمن يوالون ويعادون في الله ﷻ، يوالون من أطاع الله، ويعادون من عصى الله؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ كفر بالله، وعصى الله ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثبت الله الإيمان في قلوبهم، فنتج عنه أنهم أحبوا في الله، وعادوا في الله ﷻ، حتى أقرب الناس إليهم، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ يعني: قواهم، وأمدهم ﴿بِرُوحٍ مِنْهُ﴾؛ أي: بقوة إيمان منه ﷻ ثبتهم على هذا الولاء والبراء، أما الذي لا يفرق بين المؤمن والكافر، وبين المطيع والعاصي، فهذا ليس بمؤمن: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾،

هذا ليس بمؤمن، الذي يقول: الناس سواء، وحرية الأديان، وحرية الرأي، ولا حجر على أحد. هذا ليس بمؤمن؛ لأنه لا يفرق بين مؤمن وكافر، فما دام أنه لا يفرق، والناس عنده سواء، فإنه ليس بمؤمن؛ الإيمان يقتضي التفريق.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ [الأنفال: ١٢]. [١].

الشرح:

[١] هذا في غزوة بدر، لما أنزل الله الملائكة؛ لتثبت المؤمنين على لقاء العدو، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، الذين أنزلهم إلى بدر، ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معية خاصة، معية نصرة وتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ثبتوهم أمام عدوهم كان من ذلك أن المؤمنين ثبتوا على قلتهم وكثرة عدوهم، الملائكة تثبتهم بإذن الله ﷻ: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ الذين آمنوا، أما الكفار، فقال فيهم: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، المؤمنون يلقي الله في قلوبهم الثبات في المعركة، وأما الكفار على كثرتهم وقوتهم، ألقى الله في قلوبهم الرعب، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ فوق الأعناق؛ لأن القتل يكون في أعلى الرقبة مع المفصل فوق العظم، القتل والضرب بالسيف له موضع في الرقبة ليس فيه عظم، فوق الأعناق، ما قال: اضربوا الأعناق، بل قال: اضربوا فوق الأعناق[١]، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ الأصابع التي يمسكون بها السلاح اضربوها؛ حتى لا يستطيعوا حمل السلاح، هذه نتيجة الكفر بالله ﷻ، فالله فرق بين المؤمنين والكفار، فرق بين أوليائه وأعدائه في هذه المعركة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٧، ١٩٨)، وابن كثير (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

وَقَالَ فِي أَعْدَائِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، [١].

الشرح:

[١] لما كان المشركون يستحلون الميتة، التي ماتت بغير ذكاة، الله أمر المؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وهي المذكاة ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١١٨- ١٢١]؛ أي: الأكل من الميتة فسق، إلا عند الضرورة، إذا كان الإنسان اضطر، وخاف من الموت، الله رخص له أن يأكل من الميتة لإبقاء حياته، ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾؛ أي: خروج عن طاعة الله ﷻ، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، جاء في تفسير الآية أن الفرس يوحون إلى الكفار - كفار الجاهلية - أن الميتة حلال؛ لأن الله ذبحها، الميتة الله ذبحها، أما المذكاة، فأنتم تذكونها، فكيف تأكلون مما ذكيتم، ولا تأكلون مما ذكى الله(١). هذا جدال باطل، مخالف لشرع الله ﷻ، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ شياطين الإنس من فارس، وكذلك شياطين الجن: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾؛ أتباعهم من الكفار الذين يأكلون الميتة، ويجادلون فيها، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فمن أطاع أحدا في تحليل ما حرم الله، فإنه مشرك شرك الطاعة، من أطاع مخلوقا - أيا كان هذا المخلوق -

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٥، ١٦)، وابن كثير (٢/ ١٧١).

في تحليل ما حرم الله، وهو يعلم أنه مستحل لما حرم الله، فإنه مشرك -والعياذ بالله-؛ لأنه أطاع هؤلاء في أنهم شرعوا استباحة الميتة. والتحليل والتحريم حق لله، لا يجوز لأحد أن يحلل ويحرم من عنده؛ حق لله، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، الله هو الذي يشرع، وهو الذي يحل ويحرم، ولا دخل لأحد في ذلك، فمن استحل محرما مجمعا على تحريمه، كفر، وكذلك من أطاعه، وهو يعلم ذلك، يكفر مثله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أما من أطاعه، وهو لم يعلم أنه حلل ما حرم الله، فهذا يعتبر ضالا، ولكن لا يصل إلى حد الكفر.

وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] [١].

الشرح:

[١] يعني: ليس لك أيها الرسول خاصة، بل لكل نبي يكون له أعداء، ابتلاء وامتحان، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، من هم؟ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، فدل على أن الإنس منهم شياطين؛ مثلما أن الجن لهم شياطين، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويتآمرون في معصية الرسول ﷺ ومخالفته، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، فالرسل لهم أعداء من باب الابتلاء والامتحان، فهذا فيه التحذير من طاعة أعداء الرسل، ومن متابعتهم واستحسان قولهم. الشاهد في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فدل على أن هناك أولياء للشياطين من بني آدم.

وَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧]، [١].

الشرح:

[١] هذا في القرآن قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢ -١٩٣]، وهو جبريل عليه السلام: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٤ - ١٩٦]، مذكور القرآن أنه سيبعث هذا الرسول، وأن الله سينزل عليه هذا القرآن، عندهم خبر من هذا، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]، علماء بني إسرائيل يعلمون هذا القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]، صدقوا بالقرآن، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهم يعرفون هذا، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾؛ أي: دلالة على صحة هذا القرآن أن علماء بني إسرائيل يعرفونه، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧](١)، إلى قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ١١٣)، وابن كثير (٣/ ٣٤٨).

ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]؛ لأنهم يقولون: إن هذا القرآن شعر، وإنه كهانة، وإنه أساطير الأولين، وإنه. . . ، وإنه. . . ، الله نفى عنه هذا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾، وإنما نزل به جبريل عليه السلام، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾؛ كما تتنزل على الكهان، فالرسل لا تنزل عليهم الشياطين، إنما ينزل عليهم الملك من الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، الشياطين ما يقربون الوحي، وما يقربون القرآن؛ محروس محفوظ، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾، هناك شهب ترميهم، تبعدهم، إذا حاولوا استراق السمع، طردتهم الشهب الحارسة للسماء، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾، فالشياطين لا تقرب القرآن، لا تقربه عند النزول، ولا تقربه عند التلاوة، أيضا تفر من القرآن، تبعد عن القرآن، ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾، أنتم تقولون: إن القرآن من الشياطين، الله كذبهم وقال: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، الشياطين لا تتنزل على الرسل أبدا، إنما تنزل على أعداء الرسل، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ من الكهان، ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾، هم يحاولون استراق السمع (الوحي والكلام) من السماء، ويرتفعون في الجو (في العنان) لاستراق السمع، ثم يأتيهم الشهاب، شهاب ثاقب، لكن أحيانا قد يخطف كلمة مما يسمع من السماء، فيلقيها إلى الكاهن، الكاهن يكذب معها مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب هذه الكلمة التي سمعت من السماء، يقبلون تسعة وتسعين كذبة بسبب كلمة واحدة سمعت من السماء؛ كما قال

النبي ﷺ[(١)]، ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾؛ يعني: يكذب مع الكلمة الواحدة مائة كذبة، ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾، هم يقولون: إن الرسول شاعر، يقولون: الرسول لما نفى الله عنه أنه كاهن، وأنه لا تنزل الشياطين عليه، قالوا: هو شاعر، الرسول شاعر من الشعراء، الله نفى عنه الشعر، قال ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]؛ لأن الشعراء أكثرهم كما وصفهم الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، الشاعر يأتي بأشياء بعيدة وأشياء؛ لأن الشيطان يساعده، الشاعر يساعده الشيطان؛ ولذلك يذكر أشياء ما ذهب إليها، ولا رآها، ولا شاهدها، ويأتي بها في شعره؛ لأن الشياطين تعينه على ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، الشاعر جبان في الغالب، يتكلم في الشجاعة والإقدام، ولكنه أجبن الناس، يقولون ما لا يفعلون، ثم استثنى الله من الشعراء من آمن بالله ونصر الحق؛ مثل: حسان بن ثابت، وشعراء الرسول ﷺ الذين استعملوا شعرهم لنصرة الحق، والذَّبِّ عن الرسول ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، ثم قال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، فاستثنى الله من الشعراء الذين آمنوا، الشعراء المؤمنون استثناهم الله من الذين ذكرهم في الذم.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٠٠): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، =

وَقَالَ تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٥٢]، [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من آخر سورة الحاقة؛ مثل الآيات التي في آخر سورة الشعراء السابقة؛ أن الله نفى عن هذا الرسول أنه كاهن، أو أنه شاعر، نفى عنه ذلك، وأقسم على ذلك ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ (لا) هذه صلة للتأكيد، والأصل أقسم، أو (لا) نافية؛ أي: ليس الأمر كما زعمتم، أقسم ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾، من المخلوقات ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، نحن لا نبصر من المخلوقات إلا القليل، هناك مخلوقات لا نبصرها، الله أقسم بهذه المخلوقات العظيمة التي نبصرها، والتي لا نبصرها، والله ﷻ يقسم بما شاء، ولا يقسم

= وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

إلا بشيء له شأن عظيم، أما المخلوق، فلا يقسم إلا بالله؛ كما هو معلوم. المقسم عليه ما هو؟ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ يعني محمدا ﷺ الرسول البشري، رسول كريم ﷺ، هو قول المبلغ، ليس قوله هو؛ فهو لم يبتدئه ابتداء، وإنما قاله مبلغا عن الله ﷻ، وإلا فهو كلام الله، لكن أضيف إلى الرسول إضافة البلاغ والبيان[1]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم يقولون: الرسول شاعر، وهذا القرآن شعر، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾؛ كما تقولون: الرسول كاهن. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فرق بين الرسول وبين الشاعر، وبين الكاهن، هؤلاء الكهان والشعراء تنزل عليهم الشياطين وأما الرسل، فتنزل عليهم الملائكة، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا يبين أنه ليس بقول الرسول ابتداء، وإنما هو تنزيل من رب العالمين، والرسول قاله مبلغا، وتلاه تلاوة، تلاه لأمته مبلغا لهم، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا، لا من قاله مبلغا مؤديا؛ كما هي القاعدة، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم بيَّن أن الرسول ليس بكذاب أيضا، يقولون: كذاب؛ تارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كذاب. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾؛ يعني: لو كذب علينا، ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾؛ لو تقول علينا بعض الأقاويل، لعاقبناه أشد العقوبة، فكون الله لم يعاقبه دليل على رسالته ﷺ، وأن الله أقره: ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة، أو باليد اليمنى، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، قتلناه شر قتلة، والوتين هو العرق الذي في الرقبة، يجري منه الدم، إذا قطع، مات الإنسان، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾؛ قتلناه شر

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٤)، وابن كثير (٤/ ٤١٨).

قتلة، ولا نمهله[١] يكذب على الله ﷻ، ألم تروا أن الله قتل الكذابين على الله: قتل مسيلمة، وقتل الأسود العنسي، وقتل المتنبئين، هل الله أمهلهم؟ لا، الله قتلهم، وقطع دابرهم، ولم يبق لهم ذكرًا، أما هذا الرسول ﷺ، فإن الله أقره، وبقي ذكره ﷺ، وبقي هذا القرآن يتلى، هذا دليل على أنه من عند الله ﷻ، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، هل أحد يستطيع أن يمنع الرسول إذا أراد الله قتله؟ لا أحد يستطيع، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، لا أحد يمنعنا من قتله والانتقام منه، . . . إلى آخر الآيات، الشاهد أن هذا تزكية للقرآن، وأنه من الله، ونفيٌ أن يكون شعرا، أو يكون كهانة، أو يكون كذبا على الله ﷻ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٦)، وابن كثير (٤/ ٤١٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٤]. [١].

الشرح:

[١] هذا نفي لما وصفوه به: إنه كاهن، وإنه مجنون، إنه شاعر، إنه كذاب. هذا دليل على اضطرابهم، يتخرصون؛ تارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: كذاب. وتارة يقولون: إنه يعلمه بشر، يعلمه بشر من أهل الكتاب يملي عليه، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥]، هو ما يكتب ﷺ، لكن اكتتبها، كتبها له هذا الإسرائيلي، وهو غلام في مكة، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]، هذا البشر أعجمي، وهذا القرآن عربي، فكيف يأتي الأعجمي بهذا القرآن العربي الفصيح، وهو أعجمي؟! ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، هذا يدل على كذبهم في هذا الأعجمي ما يقدر على أنه يأتي بهذا القرآن الفصيح البليغ أبدا، ليس هذا من لغته[(١)]. ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، هذه في سورة الطور، فذكّر أيها الرسول، ذكّر بما أوحى الله إليك، ولا تلتفت إلى اتهاماتهم، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ كما يقولون، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ كما يقولون، هم أيضا مضطربون، لم يثبتوا على قول، هل المجنون يقول شعرا؟! المجنون مجنون، لا يستطيع أن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٧٨)، تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٧)، وابن كثير (٢/ ٥٨٧).

يتكلم، هل يأتي بهذا القرآن الفصيح البليغ وهو مجنون؟! المجنون يهذي، ولا يحسن الكلام، لكن هم مضطربون: هل هذا القرآن شعر؟! قارن بينه وبين الشعر، تجد الفرق واضحا، هل هو كهانة؟! بينه وبين الكهانة فرق، الكهان تجد أساجيعهم تضحك العقلاء، ليست من كلام رب العالمين؛ مثل: سجع مسليمة وسجاح وغيرهم من الكهان.

يقولون: شاعر، أحيانا يقولون: كاهن، وحينا يقولون: مجنون، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ننتظر أن يموت ونستريح منه؛ مثل: الشعراء الذين كانوا في الجاهلية، يعيش مدة، ويؤذي الناس بشعره، ثم يموت، وينقطع ذكره، هم يقولون: اصبروا على هذا الرجل إلى أن يموت، ونستريح منه.

هل لما مات الرسول ﷺ انقطع ذكره وانقطع القرآن الكريم؟ ما انقطع؛ لأنه من عند الله ﷻ.

فَنَزَّهَ الله ﷻ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّنْ تَقْتَرِنُ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكُهَّانِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْمَجَانِينِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ بِالْقُرْآنِ مَلَكٌ كَرِيمٌ اصْطَفَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] [٢].

الشرح:

[١] الذي جاء بالقرآن ملك كريم، وهو جبريل عليه السلام الروح الأمين، (اصطفاه)؛ أي: اختاره من بين الملائكة.

[٢] الرسل على قسمين: رسل من الملائكة، ورسل من البشر. ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ يختار رسلا من الملائكة، ورسلا من الناس؛ فالرسالة اختيار من الله، واصطفاء من الله، ليست كما يقول الفلاسفة: إنها يكتسبها الإنسان بصفائه، وصفاء فطرته، وذهنه، وفلسفته. يتطلعون إلى أن يكونوا رسلا وأنبياء، الرسالة من الله، هو الذي يصطفي ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، الْآيَةَ [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٢]، [٢].

الشرح:

[١] هذا يبين أن قوله: (الروح الأمين)؛ أنه جبريل عليه السلام، كانت اليهود لما بعث الرسول ﷺ - من سخرياتهم وعنجهياتهم - يقولون: لو كان الذي ينزل عليه غير جبريل عليه السلام، لآمنا به، ولكن جبريل عليه السلام عدو لنا، فلا نؤمن بهذا[1]، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، جبريل عليه السلام ما جاء به من عنده، وإنما جاء به من عند الله تعالى.

[٢] يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]، فإذا أراد المسلم أن يقرأ القرآن، فإنه يبدأ بالاستعاذة؛ لأجل أن يطرد الشيطان؛ لئلا يشوش عليه قراءته، ويغلطه في القراءة، فإذا استعاذ بالله، انطرد عنه الشيطان: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المرجوم المبعد، ثم بين أن الشيطان ليس له سلطان

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٣٢)، وابن كثير (١/ ١٣٠. ١٣٢).

على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وهو قال هذا، قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فعباد الله المخلصين والمؤمنون ليس له عليهم سلطان، ليس له عليهم سلطة، ينطرد، ويبعد عنهم.

فَسَمَّاهُ الرُّوحَ الْأَمِينَ وَسَمَّاهُ رُوحَ الْقُدُسِ. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، [٢].

الشرح:

[١] سمى جبريل عليه السلام الروح الأمين، وسماه روح القدس؛ أي: الطهر، القدس: الطهر، فهو المطهر ﷺ، وسماه جبريل عليه السلام: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّـجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]

[٢] (لا) هذه إما أنها نافية؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون، وإما أنها صلة للتأكيد، تأكيد الكلام، (أقسم)؛ أي: أحلف بالخنس، وهي النجوم التي تختفي، وتنخنس إذا جاء النهار، وتبرز إذا جاء الليل. (الجواري) تخنس في المغيب، ثم تظهر، وتجري إلى مغيبها من المطلع إلى المغرب، تشاهدونها تجري، أنت تراها في مكان، وبينما إذا مضت مدة، ونظرت إليها، وجدتها قد سارت، وتقدمت عن مكانها الأول.

فهي خنس وجوارٍ، خنس إذا غربت، وجوارٍ إذا ظهرت.

يَعْنِي: الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّمَاءِ خَانِسَةً أَيْ: مُخْتَفِيَةً قَبْلَ طُلُوعِهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ رَآهَا النَّاسُ جَارِيَةً فِي السَّمَاءِ [١] فَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَتْ إِلَى كُنَّاسِهَا الَّذِي يَحْجُبُهَا [٢] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]؛ أَي إِذَا أَدْبَرَ وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ [٣] ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، أَيْ أَقْبَلَ [٤] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير: ١٩]. [٥].

الشرح:

[١] كما قال ﷻ عن الشيطان: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، الذي إذا ذكر الله، انخنس، وإذا غفل عن ذكر الله، وسوس، فالشاهد أن الانخناس هو التأخر.

[٢] تغيب في الأفق، ولا يراها الناس.

[٣] أي: أدبر، انتهى، وجاء الصبح.

[٤] هذه كلها إقسامات من الله، أقسم الله بهذه الآيات العظيمة، لكن المقسم عليه ما هو؟ سيأتي.

[٥] هذا جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾، هذا جبريل عليه السلام، وهو القوي الأمين، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]؛ يعني: قوة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، هو جبريل عليه السلام.

وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ [١] ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، [٢] أَيْ مُطَاعٍ فِي السَّمَاءِ أَمِينٍ، [٣] ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، أَيْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ جِنْسِكُمْ يَصْحَبُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ لَا تُطِيقُونَ أَنْ تَرَوْا الْمَلَائِكَةَ [٤].

الشرح:

[١] الآيات الأولى في آخر الشعراء، المراد بالرسول هو محمد ﷺ، وفي هذه الآيات من سورة التكوير المراد بالرسول: جبريل عليه السلام؛ لأنه هو الذي ألقاه على محمد.

[٢] ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ عند الله تبارك وتعالى، مكين عند الله، قريب من الله. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾؛ أي: في السماء تطيعه الملائكة، وهو أكبر الملائكة، وسيد الملائكة عليه السلام.

[٣] أمين على ما استحفظ عليه من الوحي.

[٤] هذا الرسول ﷺ، لما مدح جبريل عليه السلام، مدح الرسول ﷺ؛ فهذا سند القرآن: عن محمد، عن جبريل عليه السلام، عن الله تبارك وتعالى.

﴿بِمَجْنُونٍ﴾؛ كما يقوله الكفار: إنه مجنون أصابه الجن والمس من الجن؛ فصار يهذي. هل المجنون يأتي بهذا القرآن؟! لكن ليس لهم عقول.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فمن مِنة الله أن هذا الرسول من جنسنا، نكلمه، ونجالسه، ونمشي معه، ويأكل معنا، ونأكل معه، ونسمع منه، لو كان من الملائكة، ما استطعنا أن ننظر إليه، ولا أن نخاطبه. فهو يصحبكم في السفر وفي الحضر وفي كل مكان، تتلقون عنه الوحي والشريعة، هذا من نعمة الله ﷻ، ثم أنتم تعرفون هذا، لا تقولوا: هذا لا نعرفه، ولا ندري من أين جاء. هو منكم، من أشرف قبائلكم، ويعيش بينكم، تعرفون أمانته وصدقه، ما جاءكم غريب.

البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة، ولهذا لما قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]؛ نحن لا نصدق محمدا، لابد أن يأتينا ملك - هذا من تعسفاتهم -، ويكلمنا، ولا نصدق واحدا من جنسنا، هو بشر مثلنا؛ فلا نصدقه، فالله ﷻ أخبرهم أن هذا من فضله عليهم أنه لو جاءهم الملك، لما استطاعوا أن يستفيدوا منه، ولا أن يكلموه؛ لأنه من غير جنسهم، إنما الملائكة تنزل عند العذاب - والعياذ بالله -، عند الهلاك: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، إذا نزلت الملائكة، ورآهم الناس، حصل الهلاك، وهم لا ينزلون إلا عند الموت والاحتضار، أو عند نزول العذاب -والعياذ بالله- أو عند قيام الساعة.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨- ٩]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أَيْ: رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام. [٢].

الشرح:

[١] ولذلك ما كان جبريل عليه السلام يأتي إلى الرسول ﷺ إلا في صورة رجل، يأتيه في صورة رجل، ويجلس معه، والناس ينظرون، ويتكلم معه؛ كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ...»(١)؛ يأتي في صورة رجل يألفونه، وينظرون إليه، ويسمعون كلامه، ويستفيدون منه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، لو أنزل الملك، ورأوه، لقضي الأمر، ولهلكوا، ثم لا يؤجلون، بل تحل بهم العقوبة والعذاب -والعياذ بالله-.

﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ لأجل أن يكلموه، ويروه؛ رجل من جنسهم.

[٢] ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]؛ أي: محمد ﷺ ليس بمجنون؛ كما تقولون، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾؛ أي: رأى جبريل عليه السلام على خلقته ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، رآه في بطحاء مكة، لما رفع رأسه، وإذا بجبريل عليه السلام بين

(١) أخرجه مسلم مطولا (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو معروف بحديث جبريل عليه السلام.

السماء والأرض على هيئته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، كل جناح سد الأفق، هذه الرؤية الأولى، الرؤية الثانية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣-١٤]، ليلة المعراج، فالرسول ﷺ ما رأى جبريل عليه السلام على خلقته الملكية إلا مرتين: مرة في بطحاء مكة، ومرة ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، وما عدا ذلك يأتيه في صورة رجل.

﴿وما هو على الغيب بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] أَيْ: بِمُتَّهَمٍ، [١] وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ﴿بِضَنِينٍ﴾ أَيْ: بِبَخِيلٍ يَكْتُمُ الْعِلْمَ وَلَا يَبْذُلُهُ إِلَّا بِجُعْلٍ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَكْتُمُ الْعِلْمَ إِلَّا بِالْعِوَضِ [٢] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، فَنَزَّهَ جِبْرِيلَ عليه السلام عَنْ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا، كَمَا نَزَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا. [٣] فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ، وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِيمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ، [٤].

الشرح:

[١] (بظنين) بالظاء أي: بمتهم؛ من الظنة، وهي الاتهام، أو ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾؛ بالضاد؛ أي: ببخيل، فيكتم ما أوحاه الله إليه، بل إنه يبلغ ما أنزل الله إليه، لا يبخل بما أوحاه الله إليه.

[٢] (بضنين) بالضاد؛ أي: بكاتم ما أوحي إليه، وبخيل بما أوحي إليه، أو لا يبلغه إلا بجعل أو مال، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، فهو يبلغ ما أنزل إليه، ولا يطلب أجرا من الناس.

[٣] كما تقولون: إنه من تنزل الشياطين، الله ﷻ قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠]، إنما هذا على الكهان، لا على الرسل.

[٤] الله تبارك وتعالى بين من هم أولياء الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾،

ومن الإيمان بالله والتقوى اتباع الرسول ﷺ؛ فأولياء الله هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ، فيفعلون ما أمرهم به، ويتركون ما نهاهم عنه؛ لأن هذا معنى التقوى، فالتقوى: هي فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، هؤلاء هم أولياء الله، أما من ادعى أنه من أولياء الله، وهو ليس من المؤمنين المتقين المطيعين لرسول الله ﷺ، فهذا من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن، ليست المسألة الدعوى، وإنما المسألة بالحقيقة، فإذا قيل: هذا ولي، ننظر في عمله: هل هو مطيع لله ورسوله، يتقي ربه ﷻ؟ فهذا ولي لله ﷻ، أو هو عاص لله ورسوله، مخالف للشريعة، فهذا ليس وليًّا لله، وإنما هو من أولياء الشيطان.

فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحٍ مِنْهُ، وَيَقْذِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ، [١] وَلَهُمْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ. [٢].

الشرح:

[١] فهؤلاء يؤيدهم الله بروح منه: بقوة إيمانية، وبنور في قلوبهم، وهذا كما سبق في قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هؤلاء هم أولياء الله الذين يوالون في الله، ويعادون في الله، يحبون في الله، ويبغضون في الله، هؤلاء هم أولياء الله ﷻ، أما الذي ليس عنده فرق بين المؤمن والكافر - كلهم عنده سواء -، وبين المطيع والعاصي، فهذا ليس وليًّا لله، هذا ولي للشيطان.

[٢] وأولياء الله أيضا يمدهم الله بالإيمان - قوة الإيمان -، والنور الذي يجعله الله في قلوبهم، يميزون به بين الحق والباطل، ينظرون بنور الله ﷻ، ويميزون، وهؤلاء تكون لهم كرامات؛ يعني: ليس بلازم أن الولي تكون له كرامات، لكن قد تكون له كرامات، والكرامة: هي الأمر الخارق للعادة، يجريها الله على يد الولي؛ إما لإقامة الحجة على المخالف، وبرهانًا على صدقه، وإما لحاجة بالناس، فهذا يأتي شرحه - إن شاء الله تعالى -، فالكرامة تكون إما بحجة في الدين، أو لحاجة للمسلمين، وهي الأمر الخارق للعادة الذي لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فالأمر الخارق للعادة إذا

جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإذا جرى على يد ولي، فهو كرامة، وإذا جرى على يد كافر، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة، وهذا كما سبق بيانه وتفصيله؛ فإن الكفرة والسحرة وأتباع الشياطين تكون لهم خوارق أيضا: يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، ويدخلون النار، وغير ذلك، ولا تضرهم، هذا كله من المخاريق الشيطانية، فلا يغتر بها ما دام أنهم ليسوا من المؤمنين المتقين المطيعين لله ورسوله، فهذه الخوارق إنما هي خوارق شيطانية، من باب الابتلاء والامتحان، تخدمهم الشياطين؛ فتطير بهم في الهواء، وتمشي بهم على الماء، تحضر لهم الأشياء البعيدة، تخدمهم الشياطين؛ فليسوا أولياء لله، ولا يغتر بما معهم من الخوارق. أما إذا جرى الخارق على يد مؤمن تقي، فهذه كرامة من الله ﷻ، أعانه الله بها، وأمده بها، فكرامات الأولياء ثابتة بالقرآن وبالسنة، أما في القرآن، فكما في قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم من الأمر الخارق للعادة، وكما في قصة مريم أنها يأتيها رزقها، وهي في مصلاها، لا تخرج، ولا تذهب، ويأتيها رزقها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ أي: المصلى الذي اعتزلت فيه احتجبت فيه عن الناس، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ مع أنها لا يدخل عليها أحد، ولا يأتيها أحد، ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، هذا من الكرامات؛ لأن مريم صديقة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهي من أولياء الله، فالله يرزقها، وهي في مصلاها، هذا من الكرامات التي يجريها الله على يد عبد تقي مؤمن من عباده لحاجته إليها، أو لأجل أن يحتج بها على المخالفين.

وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّهِمْ ﷺ كَذَلِكَ. [١].

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهُ إِنَّمَا حَصَلَتْ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ: [٢].

الشرح:

[١] وليس بلازم أن الولي يكون له كرامة، لكن الله ﷻ قد يجريها عند الحاجة إليها؛ إما للاحتجاج على المخالفين، أو للحاجة في الناس، وهذا يأتي بيانه.

وليست لأجل الفتنة كالخوارق التي عند السحرة والكهان، وعملاء الجن والشياطين، هذه ليست لحجة في الدين ولا لحاجة للمسلمين، وإنما هي شر وفتنة.

[٢] فالخارق للعادة إن جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإن جرى على يد ولي، فهو كرامة، وهو في نفس الوقت معجزة للرسول؛ لأن الولي ما حاز على ذلك، ولا حصل عليه إلا باتباعه للرسول ﷺ، فكرامات الأولياء معجزات للأنبياء.

مِثْلُ انْشِقَاقُ الْقَمَرِ(١) [١]، وَتَسْبِيحِ الْحَصَا فِي كَفِّهِ(٢) [٢]،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٣٦، ٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٠)، واللفظ للبخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٤٣)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٣١)، والخلال في السنة (١/ ٢٨٨)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٥٩، ٤/ ٢٤٥) والشاميين (٣/ ٧٩، ٤/ ٢٤٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٨٨٦)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٤٣١، ٤٣٢، ٥٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (ص٢١٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، ورواه الطبراني في الأوسط: عَنْ سُوَيْدِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: «رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ جَالِسًا وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَاغْتَنَمْتُ ذَلِكَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ عُثْمَانَ، فَقَالَ: لَا أَقُولُ لِعُثْمَانَ أَبَدًا إِلَّا خَيْرًا لِشَيْءٍ رَأَيْتُهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُنْتُ أَتْبَعُ خَلَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْهُ، فَذَهَبْتُ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ، فَاتَّبَعْتُهُ، فَجَلَسَ فِي مَوْضِعٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ مَا جَاءَ بِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «**مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ، فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ مَا جَاءَ بِكَ؟**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ عُمَرَ، فَقَالَ: «**يَا عُثْمَانُ مَا جَاءَ بِكَ**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، أَوْ تِسْعَ حَصَيَاتٍ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ وُضِعْنَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعَ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، فَوَضَعَهُنَّ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي يَدِ عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وُضِعْنَ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي يَدِ عُثْمَانَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وُضِعْنَ فَخَرِسْنَ».

الشرح:

[١] من معجزات الرسول ﷺ انشقاق القمر، لما اقترح عليه المشركون أن يشق القمر، فالله ﷻ شق القمر، فجعله فلقتين: فلقة على أبي قبيس، وفلقة على قعيقعان، فصار الناس ينظرون إليه، قال ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١-٢]، لما انشق القمر، قالوا: سحرنا محمد، هذا سحر، وليس معجزة له.

[٢] سبح الحصا في كفه ﷺ، حتى سمع الناس تسبيحه، هذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ.

وَإِتْيَانِ الشَّجَرِ إِلَيْهِ(١)، [١].

الشرح:

[١] كان ﷺ إذا ذهب لحاجته يستتر، فلما ذهب لقضاء حاجته، لم يجد شجرة يستتر بها، إلا شجرا متفرقا، فدعاه ﷺ، فاجتمع له، واستتر به ﷺ بأمر الله، فهذه معجزة رآها الناس من حديث جابر رضي الله عنه، الذي ذهب معه يحمل معه الماء، رأى هذا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٠١٢) من حديث جابر رضي الله عنه: «سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا، لَأَمَ بَيْنَهُمَا - يَعْنِي جَمَعَهُمَا - فَقَالَ: الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَالْتَأَمَتَا، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ - وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبَّادٍ - فَيَتَبَعَّدَ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ وَقْفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا - وَأَشَارَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا».

وَحَنِينِ الْجِذْعِ إِلَيْهِ[(١)]، [١] وَإِخْبَارِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِصِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ[(٢)]، [٢].

الشرح:

[١] حنين جذع النخلة إليه؛ لأنه ﷺ في أول الأمر كان يخطب على جذع نخلة، يتكئ عليه حال الخطبة، ثم صُنع له منبر، فصار يخطب على المنبر، فحن الجذع إليه، بكى كما يبكي الغلام والطفل الصغير؛ لأنه فقد الذكر الذي كان يسمعه من الرسول ﷺ، فسمع الناس حنين الجذع. فهذا من معجزاته ﷺ.

[٢] ومن معجزاته ﷺ الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، الإسراء إلى بيت المقدس، وبينه وبين المسجد الحرام مسافات، وعروجه إلى السماء، ثم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٩٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما: «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا قَالَ: إِنْ شِئْتِ، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ».

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا. فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ...».

نزوله إلى بيت المقدس، ورجوعه إلى مكة في ليلة واحدة، فأصبح وحدث الناس بذلك، فحصلت فتنة عظيمة، وفرح المشركون بالتنفير من رسول الله، وقالوا: إنه كذاب، كيف يذهب في ليلة واحدة، ويأتي إلى بيت المقدس، ونحن نضرب أكباد الإبل كذا وكذا من المدة والمسافة؟! فكأنهم بذلك أظهروا كذب النبي ﷺ، وأثروا على ضعاف الإيمان.

أبو بكر رضي الله عنه لما قالوا له: أما علمت بما قال صاحبك؟ قال: لا. قالوا: إنه يقول: إنه ذهب إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء، وعاد في ليلة واحدة، فقال رضي الله عنه: إن كان قال هذا، فقد صدق ﷺ؛ لأنه لا يُكَذِّب الرسول ﷺ أبدا، يصدقه في الوحي، فكيف لا يصدقه بهذه الحادثة الغريبة؟ هذه قوة الإيمان واطمئنان الإيمان في القلب، الذي لا يتزحزح عند الفتن، طلبوا من النبي ﷺ أن يصف لهم بيت المقدس؛ لأنهم يعرفون علاماته، وهو قائم يحدثهم عن ذلك، فرفع الله بيت المقدس، وجعله أمام الرسول ﷺ ينظر إليه، وهو في مكة، ويصفه لهم، فعند ذلك حيرهم، وبهتهم، هذا من معجزاته ﷺ.

وَإِخْبَارِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ(١)، [١].

الشرح:

[١] من معجزاته ﷺ إخباره بما يطلعه الله عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة، يخبر عن الغيوب التي أطلعه الله عليها، الله هو الذي يعلم الغيب، ولكن يطلع أنبياءه على شيء من الغيب: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فالله يطلع الأنبياء على شيء من الغيب؛ ليخبروا به الناس؛ لأجل إقامة الحجة عليهم. هذا من المعجزات؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ. أخبر ﷺ عن الأمم الماضية، وأخبر عن المستقبل، وكان خبره عن المستقبل وعن الماضي يأتي كما أخبر ﷺ، وحتى أنه لما انشق القمر، وكذبه أهل مكة، جاء المسافرون من البراري، وأخبروا أن القمر انشق في تلك الليلة(٢).

---

(١) أخرج البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (٢٨٩١) من حديث عمر رضي الله عنه قال: «قام فِينَا النبي ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عن بَدْءِ الْخَلْقِ، حتى دخل أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذلك من حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ من نَسِيَهُ» الحديث، ورواه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) انظر: الطبري (٢٢/ ٥٦٧).

وَإِتْيَانِهِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ(١)، [١].

الشرح:

[١] أعظم المعجزات هذا القرآن الذي أتى به، وهو أمي لا يقرأ، ولا يكتب ﷺ، وجاء بهذا القرآن الذي أعجز الجن والإنس: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذه الآية نزلت في مكة قبل الهجرة، تحداهم، وهو في مكة، لا يأتون بمثله؛ يعني: لا حاضرا، ولا مستقبلا، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، و(لن) هذه للمستقبل، إلى أن تقوم الساعة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، تحداهم الله أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا، تحداهم أن يأتوا بعشر سور، فعجزوا، تحداهم الله أن يأتوا بسورة، فعجزوا، عجزوا أن يأتوا بمثل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١] عجزوا أن يأتوا بمثله، بمثل: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١-٢]، عجزوا أن يأتوا بمثله، فهذا أعظم البراهين، وهذا هو المعجزة الباقية، القرآن هو المعجزة الباقية المستمرة إلى أن تقوم الساعة، فهذا هو أعظم معجزاته ﷺ.

---

(١) حيث تحدى به ﷺ المشركين أن يأتوا بسورة مثله.

وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً(١)، [١] كَمَا أَشْبَعَ فِي الْخَنْدَقِ الْعَسْكَرَ مِنْ قِدْرِ طَعَامٍ وَهُوَ لَمْ يَنْقُصْ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ الْمَشْهُورِ(٢) [٢].

الشرح:

[١] ومن معجزاته ﷺ تكثير الشيء القليل من الطعام والشراب، فكان إذا وضع يده في الطعام أو دعا، فإن الطعام القليل يشبع الجماعات الكثيرة،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩) عن سَعِيد بْن مِينَاءَ، قَالَ: «سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ». وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) «... وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: اذْهَبَا، فَابْتَغِيَا المَاءَ، فَانْطَلَقَا، فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقَالاَ لَهَا: أَيْنَ المَاءُ؟ قَالَتْ: عَهْدِي بِالْمَاءِ أَمْسِ هَذِهِ السَّاعَةَ وَنَفَرُنَا خُلُوفٌ، قَالاَ لَهَا: انْطَلِقِي، إِذًا قَالَتْ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالاَ: إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، قَالاَ: هُوَ الَّذِي تَعْنِينَ، فَانْطَلِقِي، فَجَاءَا بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَحَدَّثَاهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ، فَفَرَّغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ المَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - وَأَوْكَأَ أَفْوَاهَهُمَا وَأَطْلَقَ العَزَالِيَ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ اسْقُوا وَاسْتَقُوا، فَسَقَى مَنْ شَاءَ وَاسْتَقَى مَنْ شَاءَ وَكَانَ آخِرُ ذَاكَ أَنْ أَعْطَى الَّذِي أَصَابَتْهُ الجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ، قَالَ: اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ، وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَى مَا يُفْعَلُ بِمَائِهَا، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أُقْلِعَ عَنْهَا، وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا أَشَدُّ مِلْأَةً مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْمَعُوا لَهَا فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ وَدَقِيقَةٍ وَسَوِيقَةٍ حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا، فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قَالَ لَهَا: تَعْلَمِينَ، مَا رَزِئْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا»، وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩).

ويبقى منه. إذا كان الناس عطاشًا، وليس عندهم ماء في الصحاري في الأسفار، فإنه ﷺ يضع يده في الماء القليل، حتى يفور من بين أصابعه، فيكفي الناس الحاضرين معه -وهذا سيأتي-، فيشربون ويتوضؤون من ماء أصله قليل، فهذا من معجزاته ﷺ.

[٢] في غزوة الخندق، والخندق المراد به الحفر الذي حفره النبي ﷺ حول المدينة ليمنع المشركين من دخول المدينة، لما غزوا رسول الله ﷺ في وقعة الأحزاب، أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يحفر خندقا حول المدينة، فحفره هو وأصحابه، فلما وصل المشركون، لم يستطيعوا تجاوزه، وقالوا: هذه مكيدة لا تعرفها العرب، هذه مكيدة - يعني: حفر الخندق - لا تعرفها العرب. فنفع الله بهذا الخندق، وكانوا يحفرون الخندق، ومعهم الرسول ﷺ يحفر، فكأن أم سليم - أم أنس رضي الله عنه أم أنس ابن مالك خادم الرسول ﷺ- رأت في وجه رسول الله ﷺ الجوع، فذهبت، وصنعت شيئا من الطعام، وقالت لأنس: ادع رسول الله ﷺ. فدعاه، فذهب، فوجدها قد عملت شيئا قليلا من الطعام، فأرسل أنسا يدعو أهل الخندق كلهم، كل أهل الخندق يزيدون على الألف، فوضع يده ﷺ في هذا الطعام، فأكلوا منه، وشبعوا، وبقي منه بقية، هذه من معجزاته ﷺ.

وَأَرْوَى الْعَسْكَرَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِنْ مَزَادَةِ مَاءٍ وَلَمْ تَنْقُصْ(١)، [١] وَمَلأَ أَوْعِيَةَ الْعَسْكَرِ عَامَ تَبُوكَ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ وَلَمْ يَنْقُصْ وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا(٢)، [٢] وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى كَفَى النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ(٣)، [١].

الشرح:

[١] المزادة هي: القربة الكبيرة(٤)، وهم كثيرون، ما تكفيهم المزادة ولا المزادات، ولكنه ﷺ عمل عملا بارك الله فيه، فزاد هذا الماء؛ حتى كفى العسكر كلهم.

[٢] في غزوة تبوك الغزو نحو ثلاثين ألف مقاتل، قلت أزوادهم، وخشوا من الجوع، فأمرهم ﷺ أن يجمعوا ما معهم، فجمعوه على بساط، فدعا ﷺ عليه وبارك، وقال: خذوا، فجعلوا يأخذون لمنازلهم، يأخذون من هذا الطعام لمنازلهم ورحالهم، حتى أنهم أخذوا كلهم ما يكفيهم وبقي بقية.

[٣] ولما كان الماء لا يكفي الناس لوضوئهم وشربهم وطبخهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٤)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٤) انظر: لسان العرب (٣/ ١٩٨) مادة (زيد).

وضع ﷺ يده فيه، فجعل يفور من بين أصابع يده، والناس يستقون، حتى ملؤوا أوعيتهم من الماء، وأخذوا حاجتهم، هذا من معجزاته ﷺ. في عدة مرات، وليس في مرة واحدة.

كَمَا كَانُوا فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعْمِائَةٍ أَوْ خَمْسُمِائَةٍ(١)، [١] وَرَدِّهِ لِعَيْنِ أَبِي قتادة حِينَ سَالَتْ عَلَى خَدِّهِ، فَرَجَعَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ(٢)، [٢].

الشرح:

[١] غزوة الحديبية التي جاء النبي ﷺ وأصحابه للعمرة، فصدهم المشركون، ونزلوا على غير ماء في الحديبية، وهي على حدود الحرم من جهة الغرب، متصلة بالتنعيم، فالماء قل معهم، فالنبي ﷺ دعا لهم، حتى أنزل الله البركة في الماء، وكفاهم.

[٢] أبو قتادة من أصحاب النبي ﷺ أصيب في بعض الغزوات في عينه، وخرجت عينه، فردها النبي ﷺ في مكانها، حتى أبرأها الله، وصارت أحسن عينيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٧): رواه الطبراني وأبو يعلى وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

وَلَمَّا أَرْسَلَ مُحَمَّدَ بْنَ مسلمة لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَوَقَعَ وَانْكَسَرَتْ رِجْلُهُ فَمَسَحَهَا فَبَرِئَتْ(١)، [١] وَأَطْعَمَ مِنْ شِوَاءٍ مِائَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا كُلًّا مِنْهُمْ حَزَّ لَهُ قِطْعَةً وَجَعَلَ مِنْهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَكَلُوا مِنْهَا جَمِيعُهُمْ ثُمَّ فَضَلَ فَضْلَةٌ(٢)، [٢].

الشرح:

[١] كذلك كعب بن الأشرف اليهودي الذي آذى النبي ﷺ، وألَّب عليه المشركين، النبي ﷺ أرسل إليه محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ليقتله، فذهب، وقتله، ولكنه سقط رضي الله عنه، فانكسرت رجله، فمسحها النبي ﷺ، فبرئت كأن لم يصبها شيء.

[٢] وكذلك اللحم، لحم قليل من شاة واحدة، وهم كثيرون، النبي ﷺ جعل يقطع لهم من هذا اللحم، حتى شبعوا كلهم، وبقي منه بقية.

---

(١) أخرج البخاري (٤٠٣٩) قصة قتل أبي رافع - عبد الله بن أبي الحقيق -، والذي قتله هو عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وهو الذي انكسرت رجله. أما قصة قتل ابن الأشرف، فقد أخرجها البخاري (٤٠٣٧)، ولم يذكر فيها أنه انكسرت رجل محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وإنما الذي جرح عباد بن بشر رضي الله عنه، أو الحارث بن أوس رضي الله عنه، فتفل النبي ﷺ على جرحه، فلم يؤذه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).

وَدَيْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَابِرٍ لِلْيَهُودِيِّ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَسْقًا[١]، قَالَ جَابِرٌ: فَأَمَرَ صَاحِبَ الدَّيْنِ أَنْ يَأْخُذَ التَّمْرَ جَمِيعَهُ بِالَّذِي كَانَ لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَمَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «جُدْ لَهُ»، فَوَفَّاهُ الثَّلَاثِينَ وَسْقًا، وَفَضَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقًا[٢]، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ[٣]. [١].

الشرح:

[١] وكذلك قصة دين عبد الله بن حرام رضي الله عنه، الذي استشهد في وقعة أحد. والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان عليه دين ليهودي، وهو ثلاثون وسقا من التمر، والوسق: ستون صاعا، وهو مبلغ كبير، وثمرة النخل قليلة، فطلبوا من اليهودي أن يأخذ ثمر النخل وينتهي، فأبى إلا أن يأخذ دينه كله، جاء النبي ﷺ ومشى في حائط عبد الله، وقال له: جذ له، فجعل يجذ له، حتى وفاه ثلاثين وسقا، وبقي سبعة عشر وسقا، هذا من معجزاته ﷺ.

قوله: (وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ)؛ مثل هذه المعجزات للنبي ﷺ كثيرة، إنما هذه نماذج منها. جمع له ﷺ نحو ألف معجزة، تسمى

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٦).

(٣) انظر: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١/ ٣٠٩ - ٤٠٢، ٦/ ٣٢٤ - ٣٢٦، ٦/ ٣٥٥ - ٣٦٠) وفي الباب أيضًا دلائل النبوة للبيهقي، والفريابي، وأبي نعيم.

بدلائل النبوة، ومنها كتاب دلائل النبوة للبيهقي، ولأبي نعيم وغيرهم. هذه معجزات الرسول ﷺ، هذه أمثلة منها، أما كرامات الأولياء، كرامات أصحابه ﷺ، فهي كثيرة أيضا.

وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا؛ [١] مِثْلُ: مَا كَانَ أسيد بْنُ حضير يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، فَنَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَتِهِ(١). [٢].

الشرح:

[١] ليست الكرامات مقصورة على الصحابة ﷺ، بل تجري على التابعين، وأتباعهم، وسائر المؤمنين.

[٢] أسيد بن حضير ﷺ كان يقوم من الليل، ويقرأ القرآن، وكان له صوت حسن، فقام يقرأ من الليل يصلي ويقرأ، فنزل عليه شيء مثل الظلة من السماء، فيه أمثال السرج، فلما رأتها الفرس - وهي مربوطة -، نفرت، حتى كادت أن تطأ ابنه يحيى، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، وأخبره، فقال: هذه الملائكة نزلت تستمع لقراءتك، ولو أنك استمررت لاستمرت، حتى يراها الناس، فهذا من كرامات أسيد بن حضير ﷺ نزول الملائكة تستمع لقراءته.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨) معلقًا، وذكر أن أسيد كان يقرأ سورة البقرة، وأخرجه مسلم (٧٩٦)، ولم يذكر اسم السورة. وأخرج البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) عن البراء أن رجلًا كان يقرأ سورة الكهف... الحديث.

وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ(١)، [١] وَكَانَ سَلْمَانُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ يَأْكُلَانِ فِي صَحْفَةٍ، فَسَبَّحَتْ الصَّحْفَةُ أَوْ سَبَّحَ مَا فِيهَا(٢)، [٢] وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ وأسيد بْنُ حضير خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَأَضَاءَ لَهُمَا نُورٌ مِثْلُ طَرَفِ السَّوْطِ، فَلَمَّا افْتَرَقَا افْتَرَقَ الضَّوْءُ مَعَهُمَا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ(٣). [٣].

الشرح:

[١] ومن كرامات الأولياء تسليم الملائكة عليهم السلام على عمران بن حصين الصحابي الجليل.

[٢] ومن كرامات الأولياء ما حصل لسلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما؛ أنهما كانا يأكلان من صحفة، فسمعا تسبيح الصحفة، أو تسبيح الطعام، الله ﷻ قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، تارة يظهر الله ذلك؛ لأجل كرامة الولي.

[٣] وعباد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما كانا عند النبي ﷺ في أول الليل، فخرجا من عنده يريدان الذهاب إلى مساكنهما، وكانت ليلة مظلمة، فسطع

---

(١) انظر: ترجمته وقصة سلام الملائكة عليه في أسد الغابة (٤/ ١٣٧)، والإصابة (٤/ ٧٠٥).

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٥).

لهما نور كالسوط يمشي معهما، ولما افترقا انقسم النور مع كل واحد منهما، هذا من كرامات الأولياء.

وَقِصَّةُ الصِّدِّيقِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَضْيَافٍ مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَجَعَلَ لَا يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا رَبَّى مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ وَامْرَأَتُهُ، فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ، فَرَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَشَبِعُوا(١). [١] وَخبيب بْنُ عَدِيٍّ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ يُؤْتَى بِعِنَبٍ يَأْكُلُهُ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ عِنَبَةٌ(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذه أيضا لأبي بكر رضي الله عنه أنه ذهب بثلاثة أضياف، وليس عنده إلا شيء قليل، فبارك الله في طعامه، فصار لا ينقص، بل يزيد، كلما أخذوا منه، زاد، حتى أخذوا بقيته إلى رسول الله ﷺ، فأكل منها، وأكل معه ناس كثيرون.

هذا من تكثير الطعام، وهذه كرامة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

[٢] وهذا خبيب بن عدي رضي الله عنه أسره المشركون، وذهبوا به إلى مكة، ودفعوه إلى جماعة من أهل مكة، كان خبيب قد قتل أباهم، دفعوه إليهم، فحبسوه وسجنوه، ولم يكن عنده طعام، فكان يؤتى بالعنب في سجنه، وليس في مكة عنب، معروف أن مكة ليس فيها عنب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٥).

وَعَامِرُ بْنُ فهيرة قُتِلَ شَهِيدًا فَالْتَمَسُوا جَسَدَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ رُفِعَ، فَرَآهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَدْ رُفِعَ، وَقَالَ عُرْوَةُ: فَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْهُ(١). [١] وَخَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً وَلَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ، فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنْ الْعَطَشِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا، فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رُوِيَتْ وَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا(٢). [٢].

الشرح:

[١] عامر بن فهيرة هذا مولى أبي بكر الصديق، الذي كان مع أبي بكر ومع النبي ﷺ في طريق الهجرة، كان عامر بن الطفيل الخبيث جاء إلى النبي ﷺ، وطلب منه أن يبعث معه جماعة من القراء؛ ليعلموا جماعة العرب، وهدفه من ذلك الغدر والخيانة، فذهب معه سبعون من أهل الصفة، وأوعز إلى المشركين، فأحدقوا بهم في منزلهم، وقتلوهم ﷺ وعامر بن فهيرة منهم، قتل واستشهد، ورأى عامر بن الطفيل الخبيث جثة عامر بن فهيرة ترتفع إلى السماء؛ يعني: ترفعها الملائكة، ثم إنه لم يعثر له على جثة بعد ذلك، بحثوا عنه، فلم يجدوه، استلمته الملائكة، ودفنته الملائكة، فهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٣).

(٢) انظر: ترجمة أم أيمن وقصتها في الإصابة (٨/ ١٦٩)، والحلية (٢/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٢٢٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٤).

[٢] أم أيمن الحبشية التي ورثها النبي ﷺ من أبيه، وحضنته ﷺ، وتزوجت بزيد بن حارثة، وولدت له أسامة بن زيد - رضي الله عن الجميع - خرجت مهاجرة - وليس معها شيء - فارة بدينها من أهل مكة، وليس معها شيء، وكانت صائمة، فلما حضر الإفطار، وليس معها لا ماء ولا شيء، فأبصرت بدلو معلق بين السماء والأرض فوق رأسها، فشربت منه، فأذهب الله عنها الظمأ، ولم تظمأ بعد ذلك لبقية حياتها، فهذا من كرامات الأولياء.
ربما يسأل سائل، فيقول: خرجت ليس معها محرم؟ نقول: هذه ضرورة، إذا خرجت المرأة مهاجرة، هذه ضرورة يعفى عن المحرم؛ لأنها فارة بدينها.

وَسَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ(١) [١].

الشرح:

[١] وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أرسله رسول الله ﷺ في حاجة، ركب في السفينة، خربت في البحر، فهو تعلق في لوح منها، حتى وصل إلى جزيرة، فخرج في الجزيرة، فإذا بالأسد، والأسد جائع، وخشيَ سفينة أن يفترسه، فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ، فأطرق الأسد برأسه، ثم جاء يدله على الطريق، حتى أوصله مقصده. هذا من كرامات الأولياء.

---

(١) انظر: ترجمة سفينة وقصته مع الأسد في الإصابة (٣/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٧٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٧١). وأخرج الحاكم (٢/ ٦٧٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٩) قصته مع الأسد.

وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ كَانَ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبَرَّ قَسَمَهُ، وَكَانَ الْحَرْبُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّك، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ، فَيُهْزَمُ الْعَدُوُّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقَادِسِيَّةِ قَالَ: أَقْسَمْت عَلَيْك يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا(١). [١].

الشرح:

[١] البراء بن مالك رضي الله عنه، وكان رث الهيئة لا يعتني بنفسه، وكان من العباد الزهاد الأتقياء، وكان إذا أقسم على الله أبر الله قسمه، فكان في الغزو إذا اشتد بهم الأمر، طلبوا منه أن يقسم على الله أن ينصرهم، فينصرون، وقد قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(٢)، منهم البراء بن مالك هذا، في آخر الأمر دعا الله بالنصر للمسلمين، ودعا الله أن يكتب له الشهادة، وأقسم على الله، الله، أجاب دعاءه، فنصر المسلمين، واستشهد رضي الله عنه، وهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٣١)، ورواه الترمذي (٣٨٥٤) مختصرًا. وانظر ترجمة البراء في الحلية (١/ ٣٥٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١٩٥)، والإصابة (١/ ٢٧٩)، وصفة الصفوة (١/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَاصَرَ حِصْنًا مَنِيعًا، فَقَالُوا: لَا نُسْلِمُ حَتَّى تَشْرَبَ السُّمَّ، فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ(١). [١].

وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ(٢)؛ مَا دَعَا قَطُّ إِلَّا أُسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي هَزَمَ جُنُودَ كِسْرَى وَفَتَحَ الْعِرَاقَ. [٢].

الشرح:

[١] وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه الفارس المشهور، والقائد المظفر، حاصر حصنا من حصون المشركين، فقالوا: لا نسَلِّم حتى تشرب السم، تحدي؛ من باب التحدي، فشربه، وهم ينظرون، فلم يضره رضي الله عنه، مع أن السم يقتل، فهذا من كرامات الأولياء.

[٢] هذا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان مجاب الدعوة، هذا من كراماته أنه مجاب الدعوة، ما دعا الله بشيء إلا أجاب الله دعوته، وهو القائد المظفر الذي قاد القادسية، وفتح العراق، وهزم كسرى وقيصر.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ١٤١)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٠٥)، وانظر ترجمة خالد رضي الله عنه في سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٦٦)، وصفة الصفوة (١/ ٦٥٠).

(٢) أخرج الترمذي (٣٧٥١) أن النبي ﷺ قال: «اللهم اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إذا دَعَاكَ» وانظر ترجمة سعد في الإصابة (٣/ ٧٣)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٩٢)، وصفة الصفوة (١/ ٣٥٦)، وتاريخ دمشق (٢٠/ ٢٨٠).

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا أَرْسَلَ جَيْشًا أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُسَمَّى سَارِيَةَ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ فَجَعَلَ يَصِيحُ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا، فَإِذَا بِصَائِحٍ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ(١). [١].

الشرح:

[١] وهذا من كرامات الأولياء التي جرت على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جهز جيشا إلى المشرق، فبينما هو يخطب الجمعة على منبر المدينة، إذا صوت، فقال: يا سارية، الجبل - ينادي القائد - يا سارية الجبل، فسمعوا صوته، وهم في المشرق، ولَجَؤُوا إلى الجبل، فحماهم الله، وهزموا عدوهم، هذا من كرامات الأولياء أن الله بلغ صوت عمر إلى المسافة البعيدة، ونفع الله بذلك، وهذا من كرامات الأولياء، وإلا فالصوت لا يذهب بعيدا، لكن هذا من الكرامات التي هي معجزة للرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٥٧٩)، والبيهقي في الاعتقاد (١/ ٣١٤).

وَلَمَّا عُذِّبَتْ الزِّنِيرَةُ(١) عَلَى الْإِسْلَامِ فِي اللَّهِ، فَأَبَتْ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَذَهَبَ بَصَرُهَا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَصَابَ بَصَرَهَا اللَّاتُ وَالْعُزَّى. قَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا. [١].

الشرح:

[١] وهذا من كرامات الأولياء أن هذه المرأة الصالحة لما تمسكت بدينها، وصبرت على أذى المشركين، وذهب بصرها، قال المشركون: هذا مس من اللات والعزى؛ من آلهتهم، فقالت ﵂: كلا والله، فأعاد الله بصرها بعد العمى، فهذا من كرامات الأولياء.

(١) هي زنيرة الرومية مولاة أبي بكر الصديق ﵁ كانت ممن عُذب في مكة، فاشتراها الصديق ﵁، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى، فرد الله بصرها. انظر: الإصابة (٧/ ٦٦٤)، والاستيعاب (٤/ ١٨٤٩).

وَدَعَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ عَلَى أَرْوَى بِنْتِ الْحَكَمِ، فَأُعْمِيَ بَصَرُهَا لَمَّا كَذَبَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، فَعَمِيَتْ وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ مِنْ أَرْضِهَا، فَمَاتَتْ(١). [١].

الشرح:

[١] وهذا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب، وأبوه زيد بن عمرو بن نفيل من الذين هداهم الله في الجاهلية للتوحيد، فوحد الله، وأنكر عبادة الأوثان، وله أشعار في هذا، في الدعوة إلى التوحيد وإنكار الشرك، ابنه هذا سعيد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة، وله بستان أو حائط في المدينة، وبجواره بستان امرأة، فادعت عليه المرأة أنه أخذ شيئا من حائطها، وكذبت عليه في ذلك، فدعا عليها؛ لأنها كذبت عليه، فدعا عليها أن يقتلها الله في أرضها، فالله ﷻ استجاب دعوته، فأهلك هذه الكاذبة في أرضها بأن أعمى بصرها، وسقطت في حفرة وماتت، هذا من كرامات الأولياء.

---

(١) سعيد بن زيد بن عمرو العدوي القرشي صحابي جليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة انظر: ترجمته في الحلية (١/ ٩٥)، والإصابة (٣/ ١٠٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٤)، وصفة الصفوة (١/ ٣٦٢)، وقد أخرج مسلم (١٦١٠) قصته مع أروي، وأخرجها البخاري (٣١٩٨) مختصرًا. وانظر ترجمة أروي بنت أنيس أو أويس في الإصابة (٧/ ٤٨٧).

وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ، [١] وَدَعَا اللَّهَ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّؤوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ فَأُجِيبَ، [٢] وَدَعَا اللَّهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ، [٣] وَدَعَا اللَّهَ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ(١). [٤].

الشرح:

[١] العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان عاملا للنبي ﷺ على البحرين - يعني: الأحساء؛ لأن الأحساء كانت في ذلك الوقت تسمى البحرين -، وكان يدعو بهذا الدعاء، فيستجيب الله له، هذا من كرامات الأولياء.

[٢] وكذلك من كراماته رضي الله عنه أنهم لما فقدوا الماء، وأشرفوا على الهلاك دعا الله لهم، فاستسقى لهم، فسقاهم الله.

[٣] لما حال البحر دونهم، دعا الله تعالى أن يمشي الخيل على البحر، فمشت، ولم تبتل سرج الخيل، هذا من كرامات الأولياء.

[٤] رفعه الله تعالى، أجاب الله دعوته.

---

(١) أخرج هذه القصة الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥)، وانظر ترجمة العلاء في الإصابة (٤/ ٥٤١)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٩٤).

وَجَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِأَبِي مُسْلِم الخولاني(١) الَّذِي أُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَإِنَّهُ مَشَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعَسْكَرِ عَلَى دِجْلَةَ وَهِيَ تُرْمَى بِالْخَشَبِ مِنْ مَدِّهَا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: تَفْقِدُونَ مِنْ مَتَاعِكُمْ شَيْئًا حَتَّى أَدْعُوَ اللَّهَ ﷻ فِيهِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَقَدْت مِخْلَاةً، فَقَالَ: اتْبَعْنِي، فَتَبِعَهُ فَوَجَدَهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَأَخَذَهَا(٢). وَطَلَبَهُ الْأَسْوَدُ العنسي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَقَالَ لَهُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَسْمَعُ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا، فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا(٣). [١] وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ(٤).

الشرح:

[١] وفي سياق ذكر الكرامات لأولياء الله، فمنها هذه الواقعة لأبي مسلم

---

(١) هو عبد الله بن ثوب الخولاني أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يره، قدم المدينة في خلافة الصديق. انظر: ترجمته في الاستيعاب (٤/ ١٧٥٧)، وصفة الصفوة (٤/ ٢٠٨)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٧)، وحلية الأولياء (٢/ ١٢٢).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٥٤)، وسبل الهدى والرشاد (١٠/ ٢٤٤).

(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد (١٠/ ٢٦٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩).

الخولاني، وهو ولي من أولياء الله في اليمن، ومن التابعين، عذبه الأسود العنسي الذي يدعي النبوة، فأحضره، وقال له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله، قال: لا أسمع، فأمر به فألقي في النار، فلم تضره النار. هذه كرامة له أن الله ﷻ وقاه من النار، وقد وقع هذا لإبراهيم الخليل ﷺ، فهي للخليل معجزة، ولأبي مسلم كرامة، ولما وفد جاء إلى المدينة في حياة أبي بكر رضي الله عنه، فأجلسوه بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ إكراما له، وقال عمر: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ**»، وكما سبق أن الكرامة للولي معجزة للنبي، فكرامة أبي مسلم هذه معجزة لرسول الله ﷺ.

ومن كرامته الثانية هذه الواقعة في المشي على نهر دجلة على الخيول، قطعوه ولم تتأثر خيلهم وركابهم بالماء، حتى إنه قال لأصحابه: هل أحد منكم ضاع له شيء؟ فقال رجل منهم: نعم، ضاع لي مخلاة، مثل المخلب يقطع به الخلا، وهو العشب، فدعا الله، فوجدها متعلقة بشيء فأخذها.

وَوَضَعَتْ لَهُ جَارِيَةٌ السُّمَّ فِي طَعَامِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ، [١] وَخَبَّبَتْ(١) امْرَأَةٌ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ، فَدَعَا عَلَيْهَا فَعَمِيَتْ وَجَاءَتْ وَتَابَتْ، فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا(٢). [٢].

الشرح:

[١] مع أنه من عادة السم أن يقتل، فالذي أنجاه من النار قادر على أن ينجيه من السم، والله ﷻ يسلب هذه المواد خصائصها إذا شاء، فيسلب النار الإحراق، ويسلب السم القتل.

[٢] وهذه القصة الثالثة له، كرامة ثالثة له. والتخبيب هو: تنفير الزوجة من زوجها، ومن الملعونين من خبب امرأة على زوجها(٣).

(١) خببت: أي أفسدت، انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١).

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا...» أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، والحاكم (٢/ ٢١٤)، وقال: صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٦٧).

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ(١) يَأْخُذُ عَطَاءَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ فِي كُمِّهِ، وَمَا يَلْقَاهُ سَائِلٌ فِي طَرِيقِهِ إِلَّا أَعْطَاهُ بِغَيْرِ عَدَدٍ، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَدَدُهَا وَلَا وَزْنُهَا. [١].

الشرح:

[١] يأخذ عطاءه - يعني: نصيبه من بيت المال -، فما لقيه من فقير، أعطاه، فلا ينقص عدد ما معه، والنبي ﷺ قال: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»(٢)، فإما أنه يزيد بركة، ينقص عددا، لكنه يزيد بركة، وإما أنه لا ينقص عدده أيضا -كما في هذه القصة-، وهذه كرامة. أما لغيره فالمال إذا تصدق منه، ينقص، ينقص عدده، لكن يزيده بركة، أما هذا الولي، فلم ينقص عددا أيضا، هذه من كرامات الأولياء.

---

(١) عامر بن عبد الله، ويعرف بابن عبد قيس، ثقة من عباد التابعين، توفي في زمن معاوية، انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٥)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٠١)، والحلية (٢/ ٨٧)، وهذه القصة أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٨١)، واللالكائي في الكرامات (ص٢٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح.

وَمَرَّ بِقَافِلَةٍ قَدْ حَبَسَهُمُ الْأَسَدُ، فَجَاءَ حَتَّى مَسَّ بِثِيَابِهِ الْأَسَدَ، ثُمَّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَالَ: إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الرَّحْمَنِ، وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ، وَمَرَّتْ الْقَافِلَةُ، [١] وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الطَّهُورَ فِي الشِّتَاءِ، فَكَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لَهُ بُخَارٌ، [٢] وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَمْنَعَ قَلْبَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ. [٣].

الشرح:

[١] أذل الله له الأسد السبع الفاتك الذي أرعب الناس، وسد عليهم الطريق، فجاءه، ومسه بثيابه، ووضع رجله على رقبته، وقال له: إنما أنت كلب من كلاب الله، يعني: أن الله قادر على أن يمنعك من أذى الناس، وقال: وإني أستحي من الله أن أخشى شيئا غيره، فتركهم الأسد، ومروا سالمين.

[٢] ودعا الله أن يهون عليه برودة الماء في الشتاء؛ لأنه يقوم للصلاة، فيتوضأ بماء بارد، فكان يؤتى بالماء ساخنا بدون تسخين؛ إجابة لدعوته، هذا من كراماته.

[٣] لأن الشيطان يوسوس للمصلي ويشغله، قل من يسلم من ذلك، ولكن هذا الولي دعا الله أن يمنع الشيطان عنه، فمنعه في صلاته، فكان لا يقدر على أن يوسوس له.

وَتَغَيَّبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ الْحَجَّاجِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ، فَدَعَا اللَّهَ ﷻ فَلَمْ يَرَوْهُ، [١] وَدَعَا عَلَى بَعْضِ الْخَوَارِجِ كَانَ يُؤْذِيه فَخَرَّ مَيِّتًا(١). [٢].

الشرح:

[١] الحسن البصري بن أبي الحسن إمام التابعين العالم المشهور، الحسن البصري كان الحجاج يغضب عليه؛ لأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وينكر على الحجاج، والحجاج - كما تعلمون - رجل فاتك سفاك للدماء، مخيف، أرسل إليه في طلبه، دخل عليه جند الحجاج في بيته، فدعا الله ألا يروه، فلم يروه؛ الله قادر على كل شيء، فكما أخذ أبصار المشركين عن عيسى بن مريم عليه السلام حتى رفعه الله من بينهم، وهم مجتمعون لقتله، وكما أنجى الله محمدا ﷺ من المشركين في مكة، عندما كانوا يريدون قتله، فخرج من بينهم، وكذلك في غار ثور وقفوا عليه هو وصاحبه، فلم يروه، ونجاه الله منهم، هذه معجزة للرسول ﷺ، وهي كرامة للحسن البصري، والكرامة إنما تحدث عند الحاجة، أو عند الحجة في الدين.

[٢] كان رجل من الخوارج -وهم الفئة الضالة التي تشق عصا المسلمين،

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي جليل توفي، بالبصرة سنة ١١٠هـ، انظر: ترجمته في حلية الأولياء (٢/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٦٣). وسبقت قصته مع جند الحجاج (ص١٥٥)، وذكر ابن رجب قصة الخارجي في جامع العلوم والحكم (ص٣٢٢).

ولا ترى السمع والطاعة لولي الأمر، تكفر المسلمين بالذنوب التي دون الشرك- كان يؤذي الحسن البصري؛ لأن الحسن يخالف الخوارج، وينقض كلامهم، فتأذوا منه، فجاء هذا الخارجي يهددهم، يهدد الحسن البصري، فدعا الله عليه، فخر في مكانه، هذا من كرامات الأولياء إجابة الدعوة في الحال.

وَصِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ(١) مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَدَعَا اللَّهَ ﷻ، فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ: يَا بُنَيَّ خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ؛ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَهُ، فَمَاتَ الْفَرَسُ، [١].

الشرح:

[١] كذلك من الكرامات أن الله قد يحيي بعض الدواب التي تكون مع ولي من الأولياء يحمل عليها متاعه، ويقطع بها مسافة الطريق، قد تموت، فيدعو الله أن يحييها؛ حتى توصله، فالله ﷻ يستجيب له، ويحيي هذه الدابة، وهذا تكرر وقوعه لأولياء الله، الله قادر على أن يحيي الموتى، إما حياة دائمة، أو حياة مؤقتة؛ مثلما وقع في القتل من بني إسرائيل، لما ضربوه بجزء من البقرة، أحياه الله، وأخبر بمن قتله، وقصة الذين خرجوا من ديارهم يخشون الموت لما وقع الوباء في بلدهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وكذلك قصة الذين قالوا لموسى ﵇: أرنا الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة، فهلكوا، ثم إن موسى ﵇ دعا الله أن يحييهم؛ ليرجعوا معه إلى بني إسرائيل؛ لئلايقولوا: قتل خيارنا، فأحياهم الله، ورجعوا معه، الله قادر

(١) صلة بن أشيم، أبو الصهباء، تابعي من زهاد البصرة وعبادهم، توفي سنة ٧٥هـ.
انظر: قصته ضمن ترجمته في صفة الصفوة (٣/ ٢١٦)، والحلية (٢/ ٢٣٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٩٥)، والإصابة (٣/ ٤٦٣).

على كل شيء، الذي مر بالقرية وهي خاوية على عروشها ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] مات هو وحماره مائة عام، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وبعث حماره، هذه قدرة الله ﷻ لا يعجزها شيء.

فلما وصل إلى بيته، قال: يا بني خذ سرج الفرس؛ فإنه عارية. فأخذ سرجه، فمات الفرس، عاد إلى الموت.

وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللَّهَ ﷻ وَاسْتَطْعَمَهُ، فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةٍ(١) رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ، فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا. [١] وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ: أُطْلُبْ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ(٢). [٢].

الشرح:

[١] الدوخلة: هي الوعاء من الخوص - خوص النخل -، يوضع فيه التمر وغيره، والغالب أنه يوضع فيه التمر، فلما جاع هذا الولي، دعا الله أن يطعمه، فأتته دوخلة فيها التمر، أو فيها الطعام، فأكل منها، ومعها حرير، فأعطاه لزوجته؛ لأن الحرير لا يحل للرجال، فبقي الثوب عند زوجته تلبسه مدة، فهذا من كرامات الأولياء.

[٢] أيضا تكرر ما يقع منه مع أولياء الله، ومنها هذه القصة: أنه جاء إلى صلة بن أشيم، وهو يصلي في أشجار ملتفة، غيضة: يعني أشجار ملتفة(٣)، فلما سلم - الأسد لم يمس المصلي حتى سلم- فلما سلم، قال له: التمس الرزق في غير هذا الموضع، فذهب. هذا من كرامات أولياء الله. يجد رجلا ليس عنده أحد، وهو جائع، ثم يتركه، ويولي. هذا من كرامات الأولياء.

---

(١) الدَّوْخَلَّة، مشدّدة اللام: سَفِيفة من خوص يوضع فيها التمر والرُّطَب، لسان العرب (١١/ ٢٤٣).

(٢) انظر: الحلية (٢/ ٢٤٠)، والزهد لابن المبارك (ص٢٩٥).

(٣) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٠١).

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ(١). [١].

الشرح:

[١] كان سعيد بن المسيب إمام التابعين المخزومي رضي الله عنه، أحد الفقهاء السبعة، مشهورًا بالعلم، كان لما وقعت الحرة، والحرة هي وقعة غزا فيها جيش يزيد أهل المدينة؛ لأن أهل المدينة خرجوا على يزيد بن معاوية، وقد أخطؤوا في هذا؛ لأنه لا يجوز الخروج على ولي الأمر، فغزاهم بجيش تسلط عليهم، وفتك بهم فتكا ذريعا، وبالغ في الانتقام. ابن عمر رضي الله عنه اعتزل الفتنة، ومنع أولاده أن يشاركوا فيها، ويرى أن بيعة يزيد في أعناقهم، ونهاهم عن الخروج عليه، فلم يقبلوا، فكانت العاقبة ما حصل وقعة الحرة المشهورة عقوبة لهم، كذلك سعيد بن المسيب اعتزل في المسجد، ولم يبق فيه غيره، والمسجد لا يؤذن فيه في تلك الفترة، لكنه كان يسمع أذانا من جهة القبر النبوي، فهذه كرامة من كرامات الأولياء، والأذان هذا لأجل أن ينبهه على دخول الوقت.

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن تابعي ثقة مشهور توفي سنة ٩٤هـ، انظر: هذه القصة ضمن ترجمته في طبقات ابن سعد (٥/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢١٧)، وانظر حلية الأولياء (٢/ ١٦١)، وصفة الصفوة (٢/ ٧٩).

وَرَجُلٌ مِنَ النَّخَعِ كَانَ لَهُ حِمَارٌ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَك عَلَى رِحَالِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَمْهِلُونِي هُنَيْهَةً، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ(١). [١].

وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِيُّ وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ، وَوَجَدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ، فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذا مثل قصة صلة بن أشيم السابقة أن الله أحيا له حماره، وأغناه عن الناس لما دعا الله ﷻ أن يغنيه عن منة الناس، فأغناه الله، وأحيا له حماره؛ حتى وصل إلى مقصوده.

[٢] أويس القرني سبق ذكره، وهو من أولياء الله؛ من التابعين، من أهل اليمن، وكان مجاب الدعوة، وكان بارا بأمه، أخبر عنه الرسول ﷺ بأنه سيأتي إلى المدينة، فمن استطاع أن يدعو له، فليفعل. فلما جاء معهم،

(١) نباتة بن يزيد النخعي أدرك النبي ﷺ وغزا في خلافة عمر ؓ، انظر: قصته ضمن ترجمته في الإصابة (٦/ ٤٩١)، والبداية والنهاية (٦/ ١٥٣).

(٢) أويس بن عامر القرني، من سادات التابعين، أصله من اليمن، توفي سنة ٣٧هـ.
انظر: قصته ضمن ترجمته في الحلية (٢/ ٧٩)، وتاريخ دمشق (٩/ ٤٠٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٤٣). وانظر الإصابة (١/ ٢١٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٩).

فعلم به عمر رضي الله عنه، فبحث عنه حتى أدركه، فطلب منه أن يستغفر الله له. فهذا أويس القرني من أولياء الله، لما مات، وجدوا معه أكفانا لم تكن معه في حياته، ثم لما ذهبوا به ليدفنوه، وجدوا قبره مجهزا، لم يحفره أحد، فدفنوه فيه. هذا من كرامات الأولياء التي يجريها الله على أيديهم.

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُقْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَأَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ، وَكَانَ السَّبُعُ يَحْمِيه وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغَزْوِ أَنَّهُ يَخْدِمُهُمْ(١). [١].

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشخير إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَتُهُ، وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ(٢) [٢].

الشرح:

[١] هذا الولي من أولياء الله عمرو بن عقبة بن فرقد، هذا من أولياء الله، وكان يغزو في الجهاد في سبيل الله، وكان يقوم يصلي في شدة الحر في النهار، في شدة الصيف، فتظله سحابة في السماء، وكان يحرس دواب الغزاة، ويشترط عليهم أنه يخدمهم، والسبع لا يجرؤ أن يقرب المعسكر، كل هذا من كرامات هذا الولي من أولياء الله.

[٢] وهذا مطرف بن عبد الله بن الشخير الراوي المشهور عند المحدثين كان إذا دخل بيته، يسمع تسبيح الأواني في بيته، والله ﷻ أخبر أن كل شيء يسبح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، ولكن هذا الولي يسمع تسبيح

---

(١) عمرو بن عتبة بن فرقد تابعي مشهور بالتعبد والزهد، انظر: الحلية (٤/ ١٥٥) وصفة الصفوة (٣/ ٦٨).

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير أبو عبد الله البصري، ثقة عابد فاضل توفي سنة ٩٥ هـ. انظر: أخباره في الزهد للإمام أحمد (ص ٢٣٨)، والحلية (٢/ ١٩٨)، والإصابة (٦/ ٢٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٢٢).

الأواني، وكان يسير هو وصاحب له في ظلمة، فأنار الله لهما الطريق، وهذا وقع للصحابة الذين جاؤوا للنبي ﷺ، وجلسوا معه في الليل، فلما ذهبوا في ظلام الليل أعطاهم النبي ﷺ عصا، فكانت تنير لهم الطريق إلى أن وصلوا إلى بيوتهم، فهذا من كرامات الأولياء. عباد بن بشر وغيره حصل لهم هذا مع النبي ﷺ(١).

---

(١) انظر: البخاري (٤٦٥، ٣٦٣٩) حَدَّثَنَا أَنَسٌ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمِصْبَاحَيْنِ، يُضِيآنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ».

وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعَتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلٍ فِي قَبْرِهِ، فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الأحنف بن قيس التميمي من التابعين، وكان مشهورا بالحلم، يضرب به المثل في الحلم، وكان من المجاهدين في سبيل الله، ومن القادة والأمراء، وكان محبوبا عند الناس، فلما مات، وشيعوه، سقطت قلنسوة رجل من المشيعين له، والقلنسوة: ما يلبس على الرأس مثل: الطاقية تقريبا، فأهوى ليأخذها، فرأى القبر قد وسع، وهذا مصداقه من الحديث؛ أن المؤمن يوسع عليه قبره مد بصره، هذا في الحديث الصحيح، وأما المنافق، فيضيق عليه، حتى تختلف أضلاعه(٢).

---

(١) الأحنف بن قيس التميمي، سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم، توفي سنة ٦٧ هـ. انظر: الإصابة (١/ ١٨٧)، والاستيعاب (١/ ١٤٤)، والقصة في سير الذهبي(٤/ ٨٦) ضمن ترجمته.

(٢) كما في الحديث الطويل الذي أخرجه أبو داود في سننه عن البراء بن عازب ﷺ (٤٧٥٣): «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ».

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التيمي يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا[(١)]، وَخَرَجَ يَمْتَارُ لِأَهْلِهِ طَعَامًا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ، فَأَخَذَ مِنْهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَفَتَحَهَا، فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ، فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا، تَخْرُجُ السُّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتَرَاكِبًا[(٢)]. [١].

الشرح:

[١] إبراهيم التيمي الإمام المشهور، والزاهد والواعظ البليغ وقع له من كرامات الأولياء أنه كان يصبر عن الطعام لمدة شهرين بما يعطيه الله من القوة واللذة في عبادة الله ﷻ، وأيضا خرج ليمتار لأهله - يشتري لهم ميرة، يعني: الطعام -، ولم يكن معه نقود، فلم يشتر شيئا، مر برملة حمراء، فملأ أوعيته منها؛ من أجل أن يظهر أمام الناس أنه جاء بشيء، فلما فتحوها، وجدوها حنطة حمراء، قلبها الله ﷻ، وكانت مباركة بحيث إنه إذا زرع من هذه الحنطة، تخرج القصبة كلها حب حنطة. فهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد مشهور توفي سنة ٩٢ هـ. انظر: سير الذهبي (٥/ ٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٩٠).

(٢) هذا الخبر رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٣٠) أنه وقع لإبراهيم ﷺ وليس لإبراهيم التيمي.

وَكَانَ عتبة الْغُلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: صَوْتًا حَسَنًا، وَدَمْعًا غَزِيرًا، وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ. فَكَانَ إِذَا قَرَأَ بَكَى وَأَبْكَى وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرَهُ، وَكَانَ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيُصِيبُ فِيهِ قُوتَهُ، وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيه(١)[١].

الشرح:

[١] هذا عتبة الغلام العابد المشهور، والمجاهد في سبيل الله سأل الله هذه الطلبات: أن يرزقه صوتا حسنا، فكان صوته حسنا، إذا قرأ بكى، وأبكى، وأن يرزقه البكاء من خشية الله، فكانت لا تجف له دمعة من خشية الله، وسأل الله أن يرزقه رزقا لا كلفة فيه، فكان إذا جاء إلى بيته، وجد فيه الطعام لا يدرى من أين جاء، وهذا كما حصل لمريم بنت عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، كذلك ما حصل لخبيب بن عدي في مكة، وهو أسير عند المشركين، وكان يوجد عنده العنب، مع أن مكة ليس فيها عنب، لكن هذه من كرامات الأولياء.

(١) عتبة بن أبان الغلام الزاهد الخاشع كان يشبه في حزنه بالحسن البصري، سمي بالغلام لجده في العبادة لا لصغر سنه، انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ٢٢٦)، وسير الذهبي (٧/ ٦٢)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٧٠). وأخرج القصة البيهقي في الشعب (٢/ ١١٧)، واللالكائي في الكرامات (ص٢٢٥).

وَكَانَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ الْفَالِجُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقْتَ الْوُضُوءِ، فَكَانَ وَقْتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهُ(١) [١].

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. [٢].

الشرح:

[١] أصابه الفالج، والفالج داء يصيب الجسم أو الأعضاء، فلا تتحرك، فأصابه، فسأل الله أن يطلق له أعضاءه؛ ليتوضأ لعبادة الله وللطاعة، فاستجاب الله له، فكانت أعضاؤه تنطلق عند الوضوء فقط، ثم تعود إلى حالتها.

[٢] ذكر الشيخ رحمه الله من كرامات الأولياء شيئا كثيرا، وأحال على الاستيفاء والاستقصاء فيها إلى كتب أخرى معنية بهذا الشيء، ومنها كتبه، وقد ذكر في مواضع منها جملة كثيرة، وهذا باب ثابت عند أهل السنة والجماعة: الإيمان بكرامات الأولياء، لا ينكر كرامات الأولياء إلا المبتدعة، أما أهل السنة والجماعة، فإن من أصول عقيدتهم الإيمان بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، هذا شيء ثابت. سأل سائل: هل هذه الكرامات لها أسانيد صحيحة؟ والجواب: يكفي أننا نعلم أن كرامات

(١) عبد الواحد بن زيد الزاهد القدوة أبو عبيدة البصري، توفي سنة ١٩٧هـ. انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ١٥٥)، وسير الذهبي (٧/ ١٧٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٢١).

الأولياء الإيمان بها أصل من أصول العقيدة، لا نشك فيها بالجملة، أما التفاصيل، فلا تحتاج إلى أسانيد؛ لأنها ليست أحاديث يبنى عليها أحكام شرعية من الحلال والحرام، ليست أحاديث، وإنما هي وقائع، إن ثبتت، فهي كرامات، وإن لم تثبت، فلا يضر هذا، عدم ثبوتها لا ينقص الدين شيئا، لكنها إذا ثبتت، فإنها تزيد في الإيمان، تزيد في إيمان العبد، تذكره بالله ﷻ.

وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَعْيَانٍ وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ. [١].

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إِيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، [٢] وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] الشيخ يقول: ذكر ما روي، ثم أخبر أنه هو شاهد شيئا كثيرا من هذه الكرامات في زمانه، رآها عيانا؛ فلا مجال للتشكيك فيها.

[٢] الكرامات هذه إنما تحدث لأحد أمرين: إما لحاجة من تجري على يده، بأن يكون ضعيف الإيمان، فتقوي إيمانه بالله، أو يكون محتاجا إلى طعام أو إلى شراب، أو إلى دابة يحمل عليها، أو إلى أن يقويه الله على العبادة، فهي إما لحاجة إيمانية، أو حاجة إنسانية يحتاجها الإنسان، أو تكون لحجة في الدين؛ بأن تؤيد ما يقوله ذلك العالم أو ذلك الولي، فتظهره على خصومه، ومثل هذا ما حصل للمؤلف نفسه، المؤلف رحمه الله ضايقه الناس كلهم، وضايقه السلاطين، وسجنوه، وحبسوه، ولم يستطيعوا منعه من مزاولة نشر العلم والدعوة إلى الله، ولم يستطيعوا بعد موته أن يمنعوا أثره الذي امتد على العالم الإسلامي إلى اليوم، هذا من كرامات الأولياء بلا شك، كذلك الإمام أحمد، ما جرى عليه في وقت المأمون ومن جاء بعده

من الضرب والإهانة والسجن، وثبت، وفي النهاية أظهره الله، وخذل أعداءه، هذا من كرامات أولياء الله ﷻ، هذا من إظهار الحجة، ما يجري لأئمة الدين من الانتصار على خصومهم، هذا من إظهار الحجة في الدين.

[٣] هذا سؤال قد يرد، أو هو وارد بالفعل، وهو: هل لابد أن الولي تجري على يده كرامات؟ لا، ليس بلازم، وإذا لم تجر على يده كرامة، فلا يدل هذا على نقص ولايته، فهناك من أولياء الله من هم من سادات الأولياء، ولا جرى لهم كرامات؛ لقوة إيمانهم، ولأنهم ليسوا بحاجة إليها، وقد تجري الكرامات لمن هو دونهم في الإيمان لحكمة من الله ﷻ، فلا يقال: إنه لا يكون الولي إلا بشرط أن تجري على يده كرامة. هذا إنما يقوله الخرافيون والمبتدعة، أما أهل السنة، فيقولون: ليس من لازم الولاية لله أن تجري على يد الولي كرامة. فينبغي أن يعرف هذا الأمر، فالكرامات إنما تجري لأحد أمرين: إما لحجة في الدين، وإما لحاجة للمسلمين، فإذا لم يكن هناك حاجة، ولا حجة، فإنها لا تجري، ولا يكون هذا نقصا في ولاية ولي الله ﷻ، ثم أيضا ابن القيم رحمه الله يقول: ليس لأولياء الله علامات يعرفون بها، فقد يكون وليًّا لله من خواص الأولياء، وهو لا يُعرف؛ كما قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(١)، فلا يلزم من ولي الله أن يكون له مظهر، وأن يكون حوله هالة من الناس، وأن يروج له دعاية - كما يحصل عند الخرافيين - أبدا، وولي الله يختفي، ولا يعرف، وليس له علامة، لا ملابس، ولا يكون له هالة من حوله ودعاية، ولا يكون له

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٨٨).

جاه؛ مدفوع بالأبواب، ما يكون له جاه عند الناس، فليس من شرط ولي الله أن يكون له علامة يعرف بها، قد يكون خفيا لا يعرف، وقد يكون رث الهيئة، أشعث أغبر، ليس من شرط أن يكون عليه ملابس فاخرة، وأكمام واسعة، وعمامة ضخمة، ليس هذا من شرط أولياء الله ﷻ. ينبغي أن يعرف هذا الأصل؛ لئلا يستغله الخرافيون لخرافتهم، وكل من يدعي أنه ولي لله، ويضعون له من الدعايات - حيا وميتا - والهالات الشيء الكثير، من أولياء الله من يموت، وهو لم يعرف، من أولياء الله من يعيش ويموت، وهو لم يعرف.

فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ؛ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ، [١] وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ، [٢] بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً. [٣].

الشرح:

[١] فليس كل من لا تجري على يده الكرامة يكون ناقص الولاية لله ﷻ، بل قد يكون كامل الولاية، ولا تجري على يده كرامة؛ لأنه مستغن عنها.

[٢] ولأنه لا يشترط في كمال الإيمان وقوة الإيمان وجود الكرامة، كانت هذه الكرامات في التابعين ومن جاء بعدهم أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة لا يحتاجون إليها؛ لفضلهم، ومكانتهم، وصحبتهم لرسول الله ﷺ

[٣] لهدى الخلق يعني: لحجة في الدين، أو لحاجتهم. فهؤلاء الذين لم تجر على أيديهم كرامة أعظم درجة من الذين تجري على أيديهم.

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ مِثْلُ: حَالِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ(١)، الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَّالُ، لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ. [١].

الشرح:

[١] انتهى الآن من الكرامات، وانتقل إلى الخوارق الشيطانية، التي يضل بها كثير من الناس. سبق لنا أن الخارق للعادة إن جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإن جرى على يد ولي، فهو كرامة، وإن جرى على يد عدو لله، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة، وإنما هي خوارق شيطانية، فالشياطين يعملون مع أوليائهم من الإنس أشياء تخرق العادة عند الناس: يطيرون بهم في الهواء، يسيرون بهم على الماء، يحملونهم، يحضرون إليهم الأشياء الغائبة بسرعة؛ من أجل أن يضلوهم، ويضلوا بهم؛ فينبغي الفرق بين كرامة الولي والخوارق الشيطانية التي تجري على أيدي أعداء الله. فإذا جرى الخارق للعادة على أيدي أحد، نظرت، فإن كان تقيا صالحا، فهي كرامة؛

(١) عبد الله بن صائد، وهو الذي يقال له ابن صياد، كان أبوه من اليهود، ولا يدري ممن هو، وهو الذي يقول عنه بعض الناس: إنه الدجال، ولد على عهد رسول الله ﷺ أعورًا مختونًا، قال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن يَكُنْ الذي تَرَى فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ**». ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صياد من خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيب. انظر: أخبار المدينة (١/ ٢٢٧)، والإصابة (٥/ ١٩٢)، وشذرات الذهب (١/ ٢٠).

لأن الله قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾، من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وإن كان فاجرا كفارا، فهي استدراج من الله ﷻ؛ بأن سلط عليه الشياطين، فصارت تظهر على يده أشياء؛ لأجل الدجل والشعوذة، وإضلال من ينخدع بها. فالنظر إلى حالة من تجري على يده الخوارق، فإن كان تقيا مؤمنا، فهي كرامات، وإن كان فاجرا شقيا، فهي استدراج، وهي خوارق شيطانية، فإن الشياطين تخدم أولياءها من الإنس: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، فالله يولي بعض الظالمين بعضا بسبب كسبهم الكفر وإجرامهم في حق الله ﷻ، يسلط الشياطين على بني آدم؛ لأجل أن يضلوهم، ويصدوهم عن دينهم، وهذا من الاستدراج ومن الإهانة، وليس هو من الكرامة، ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ كيف؟ استمتع الجني بالإنسي بأن الإنسي خضع له، وانقاد له، وعصى الله، وعصى رسله، وانقاد للشيطان، هذا يستمتع به الشيطان، ويفرح به، واستمتع الإنسي بالشيطان بما يخدمه به من الأمور الشيطانية: من حمله في الهواء، والمشي به على النار أو على الماء، أو إحضار الأمور البعيدة، أو إخباره بأشياء يعرفها الجن، ولا يعرفها الإنس، فهذا من استمتاع الإنس بالجن - والعياذ بالله -، ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، هذا مصيرهم يوم القيامة، الشياطين ومن اتبعهم، ومن أغووه،

وصار معهم - وإن خدموهم في الدنيا -، وغرر بالناس أنه ولي من أولياء الله، بل إن الخرافيين يعطون الولاية لمن يرون أنه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يترك الفواحش، ويقولون: لأنه ساقط عنه التكاليف، هذا بلغ مرتبة من الولاية والقرب من الله؛ حتى إنه سقط عنه التكليف، فليس في حقه حلال ولا حرام، ولا تجب عليه الفرائض؛ لأنه وصل إلى الله. هكذا يقول الشياطين -والعياذ بالله-، فيعطون الولاية لمن يرونه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يؤمن بالله، ولا يؤمن بالرسل، ويقولون: هذا ولي من أولياء الله؛ لأنه ليس بحاجة إلى الرسل، وليس بحاجة إلى العمل، وليس بحاجة إلى العبادة؛ لأنه وصل إلى الله، انظر كيف يبلغ الشيطان ببني آدم من التغرير - والعياذ بالله! -، الله ﷻ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، بهذين الشرطين: الإيمان، والتقوى، فكيف يكون الفاجر الذي لا يصلي، ولا يصوم، ويفعل اللواط والزنا والفواحش، ويشرب الخمر؟! كيف يكون وليًّا لله، مع أنه من أشد أعداء الله؟! نسأل الله العافية! فينبغي التفطن لهذا الأمر؛ لأنه استشرى في الناس اليوم؛ لضعف الإيمان، ولقلة العلم في هذا الزمان، ولعدم نشر العقيدة الصحيحة من عقيدة أهل السنة والجماعة، لما ضعفت هذه الأمور، جاءت أضدادها في المجتمعات، والآن يقولون: إنهم يقيمون فضائيات بث فضائي للمخرفين، وللسحرة، والكهان، وأعداء الله ورسوله، ويصفونهم بالولاية، وبالعلم، وبالتقوى، فليحذر المسلمون من هذه الأمور.

وعبد الله بن صياد هذا ظهر في وقت النبي ﷺ، وجاء إلى المدينة، وكان يظهر عليه أشياء، ظنوه أنه الدجال الكذاب، النبي ﷺ اختبره بأشياء، فتبين أنه ليس هو الدجال، ولما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»[١]، فتركوه، فهذا دليل على أن الخوارق تأتي على يد من ليس من أولياء الله. الدجال أكبر الكذبة، وأكبر عملاء الشيطان الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، يكون معه خوارق، يكون معه جنة، ومعه نار، ويأمر السماء، فتمطر، ويأمر الأرض، فتنبت، ويقتل الرجل، ويمشي بين قطعه، ثم يأمره، فيقوم حيا، هذه خوارق، لكنها خوارق شيطانية، وتدجيل وكذب، فلا يغتر بهؤلاء.

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ خَبَّأْت لَك خَبْئًا» قَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ. وَقَدْ كَانَ خَبَّأَ لَهُ سُورَةَ الدُّخَانِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»[(١)]، يَعْنِي: إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ. [١] وَالْكُهَّانُ كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ الْقَرِينُ مِنْ الشَّيَاطِينِ يُخْبِرُهُ بِكَثِيرِ مِنْ الْمُغَيَّبَاتِ بِمَا يَسْتَرِقُهُ مِنْ السَّمْعِ، [٢].

الشرح:

[١] اختبره النبي ﷺ، وقال له: «قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبْأً»؛ يعني: شيئا خفيا، فما هو الشيء الخفي؟ فلم يستطع الجواب، فقال له: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»؛ إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ. ما عرف ما الذي خبأ له النبي ﷺ، لم يقل: سورة الدخان.

[٢] القرين من الشياطين كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، قال الله ﷻ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩]؛ بما يسترقه من السمع، هذه ناحية، الناحية الثانية أن الشيطان سريع في قطع الفيافي، يطير في الهواء، ويطلع على أمور لا يطلع عليها ابن آدم، فيخبرونهم، يخبرون بني آدم بذلك فتنة لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠).

وَكَانُوا يَخْلِطُونَ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، [١] كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»(١).

الشرح:

[١] كما أنهم إذا سمعوا الكلمة من السماء كذبوا معها مائة كذبة، فصدقهم الناس بسبب تلك الكلمة التي سمعت من السماء، صدقوهم في تسعة وتسعين كذبة. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، هؤلاء الكهان، وهؤلاء الذين ينخدعون بهم، أكثرهم كاذبون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨).

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْأَلُ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْطَفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَيُرْمُونَ فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ»(١) [١].

الشرح:

[١] هذا حديث النواس بن سمعان ﵁ وحديث أبي هريرة ﵁، كلها تدل على أن الشياطين يحاولون استراق السمع مما يتكلم به الملائكة في السماء، ولكن الله قيض لهم الشهب - وهي النجوم -؛ رجوما للشياطين، تنبثق منها شهب ترمي الشياطين، فتحرقهم، وقد يدركه الشهاب قبل أن يلقي الكلمة التي سمعها، وقد يلقيها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، ويروجونها على الناس من باب الفتنة، هؤلاء هم الشياطين، والكهان

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

أتباع الشياطين، هم كهان، وليسوا أولياء لله، لا يقال: إن هذه كرامات، وإنما هؤلاء كهان من عملاء الشيطان - والعياذ بالله -، ففرق بين ولي الله وعدو الله، وإن جرت على يد عدو الله خوارق، فلا يغتر بها؛ لأنها من الشياطين، وليست من الله ﷻ، بخلاف الكرامات؛ فإنها من الله، أكرم بها عباده المؤمنين المتقين. ففرق بين مصدر الكرامة ومصدر الخارق الشيطاني، وفرق بين ولي الله وولي الشيطان، فرق بين هذا وهذا، الناس بحاجة إلى معرفة هذه الأمور اليوم؛ لأنه كثر الدجل، وكثرت الشعوذة، وكثر السحر والكهانة، فيجب على العلماء أن ينشروا هذا، وطلبة العلم يتلقونه، ويعرفونه؛ حتى ينشروه في الناس، ويحذر من هذه الفضائيات الكافرة الدجالة التي غرت الناس، وهذه الاتصالات، يتصلون على الناس بالجوالات وبالإنترنت، ويروجون لهم، ويهددونهم بأنك ستموت، وأنك سيحصل لك كذا وكذا، ولكن أعطنا كذا وكذا، ونحن نسعى في خلاصك وما أشبه ذلك - والعياذ بالله -.

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مُعَمَّرٌ: قُلْت لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهَا غَلُظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. [١].

الشرح:

[١] كانت الشهب في الجاهلية كثيرة، الشهب يرمى بها في الجاهلية كثيرة على الشياطين، فلما بعث النبي ﷺ، حرست السماء، ولم يبق منها إلا أقل القليل، ولهذا الجن لما سمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١-٢]، إلى قولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٩]؛ أي: من السماء ﴿مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٩-١٠]، فهذا ما حصل عند البعثة، عند بعثة النبي ﷺ، ولما لم تكثر الشهب، أرسل الشيطان جواسيسه يبحثون ما السبب؟ فرجعوا إليه، وقالوا: بعث محمد ﷺ، عند مبعثه حرست السماء. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، هكذا تقول الجن عند بعثة النبي ﷺ.
الشاهد: أن نعرف أن هذه الشهب إنما هي رجوم للشياطين: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وَالْأَسْوَدُ العنسي الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ(١)، [١] كَانَ لَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ، كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ، حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ، فَقَتَلُوهُ. [٢] وَكَذَلِكَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ(٢)، كَانَ مَعَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ. [٣].

الشرح:

[١] الأسود العنسي والمختار بن أبي عبيد اللذان ادعيا النبوة كان لهما عملاء من الشياطين، غروهم وخدعوهم، وظنوا أنهم أنبياء.

[٢] النبي ﷺ أمر المؤمنين الذين في اليمن - وكان في آخر حياة الرسول ﷺ - أمر المؤمنين الذين في اليمن أن يقتلوه، فجاء عبد الله بن فيروز رضي الله عنه ليلا، وتمالأ مع امرأة الأسود العنسي، وكانت مسلمة تقية، فأعانت ابن فيروز على قتله، فقتله شر قتلة - والعياذ بالله -(٣).

[٣] ومسيلمة الكذاب غزاه الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ قتلوه في وقعة اليمامة المشهورة، وأراح الله المسلمين من هؤلاء الكذبة الدجالين.

---

(١) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٢).

(٢) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٠).

(٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ الْكَذَّابِ» أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٠٤).

هذا من الابتلاء والامتحان؛ أن هؤلاء معهم شياطين تساعدهم، فيظن الناس أن هذه معجزات، وأنهم أنبياء في حين أنها خوارق شيطانية، والذين معه ليسوا ملائكة، وإنما هم شياطين. هذا البحث مهم جدا جدا؛ لأنه في صميم العقيدة، وفيه دمغ لهؤلاء الدجالين والكذابين الذين يظهرون بين حين وآخر، ولما سهلت الاتصالات بين العالم، استخدموها لإضلال الناس - والعياذ بالله -.

لاشك أن أولياء الشيطان يظهر على أيديهم من الخوارق ما يغر الناس بهم؛ حتى يظنوا أن هذه كرامات، وهي في الواقع خوارق شيطانية؛ من أجل الفتنة، من ذلك مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وهو من أهل اليمامة، وتبعه قوم من أهل اليمامة، وكان يظهر على يديه خوارق شيطانية، ويأتيه الشيطان ببعض الأمور التي يظن الناس أنها معجزات، وأنه نبي؛ من أجل الفتنة. فلا يغتر بهذه الأمور، والضابط في هذا أن من ظهر على يديه خارق من خوارق العادات، ينظر في عمله، فإن كان من عباد الله المؤمنين المتقين، فهي كرامة من الله ﷻ، أما إن كان من أعداء الله - من المكذبين، ومن الكافرين والمنافقين -، فهذا خارق شيطاني، مهما بلغ من الغرابة، فهو خارق شيطاني، فلا يغتر بهذا، فمن أخذ هذه القاعدة وطبقها، فإنه يستريح من هذه الشبهات؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ولأنه لا نبي بعد محمد ﷺ، هو خاتم النبيين، فمن ادعى النبوة بعده، فهو كاذب، قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ

مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»(١) فكيف يصدق مع ذلك من يدعي النبوة، والنبوة لا تكون بعد الرسول ﷺ، أو يصدق أنه ولي من أولياء الله، وهو كافر ملحد، لا يصلي، ولا يصوم، ولا يتجنب المحرمات، ويقال: إن هذا ولي من أولياء الله. المسيح الدجال في آخر الزمان يأتي بخوارق عظيمة فاتنة، ومع هذا فالدجال كذاب، هو المسيح الدجال، ونهاية أمره أن الله يهلكه، وينتهي أمره، فلا عبرة بالخوارق إذا لم تكن على يد مؤمن تقي، فلا عبرة بها؛ فإنها شيطانية.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٨)، وأصله عند الترمذي (٢٨٦٢) بلفظ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ لَوْلاَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ».

وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ، مِثْلُ: الْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ[(١)] الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، [١] وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُخْرِجُونَ رِجْلَيْهِ مِنْ الْقَيْدِ، وَتَمْنَعُ السِّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، [٢] وَتُسَبِّحُ الرُّخَامَةُ إِذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، [٣].

الشرح:

[١] الحارث الدمشقي ادعى النبوة أيضا، وكان معه شياطين إذا قيد بالحديد، يخرجون رجليه من القيد، فهذه ليست كرامة، إنما هذه خارق شيطاني لا يغتر بها، وغيره وغيره، ولا يزال الدجالون حتى يكون آخرهم الدجال؛ المسيح الدجال.

[٢] والشياطين أيضا تكون سترا له دون أن يصل إليه السلاح، فهذا ليس دليلًا على أنه ولي من أولياء الله، بل هذا من عمل الشياطين، يعملون معه الشعوذة وغير ذلك.

[٣] نعم، وهو شيطان، الرخامة ما تسبح؛ لأنها جماد، الرخامة ما تسبح، لكن هذا شيطان يصوت بالتسبيح، فيظن أنه الرخامة سبحت.

---

(١) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٢).

وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ وَيَقُولُ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، [١] وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّك لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ، فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ(١) [٢].

الشرح:

[١] وهي شياطين، الخيل والرجال يمشون في الهواء؛ شياطين تخدمه؛ لتضل الناس به.

[٢] وإنما كانوا من شياطين الجن، وليسوا ملائكة، الملائكة ما تتنزل على الكذابين والدجالين، إنما تتنزل بأمر الله على الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، إذا أمرها الله ﷻ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، فهذا أفاك وأثيم، فالذي يرى معه من هذه الأمور، فإنما هي شيطانية؛ لأن اسم الله يطرد الشيطان، هو طعنه، ولم يسم، فجاء الشيطان وحال بينه وبين السلاح، فلما سمى الله، هرب الشيطان، فنفذ فيه السلاح.

---

(١) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٤٥٦).

وَهَكَذَا أَهْلُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ [١] فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لَمَّا وَكَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَسَرَقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، وَهُوَ يُمْسِكُهُ فَيَتُوبَ فَيُطْلِقُهُ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» فَيَقُولُ: زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَعُودُ، فَيَقُولُ: «كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ»، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُعَلِّمَكَ مَا يَنْفَعُكَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ(١). [٢].

الشرح:

[١] وهذا أيضا من الفوارق بين خوارق الشياطين والكرامات؛ أن الكرامات تأتي مع ذكر الله، ومع تلاوة القرآن، مع الأعمال الصالحة، وأما الخوارق الشيطانية، فإنها تزول، وتذهب مع ذكر الله ومع تلاوة القرآن، ويذهب الشياطين.

[٢] أبو هريرة رضي الله عنه وكله النبي ﷺ في حفظ التمر، تمر الزكاة كان مجموعا ليوزع، فالنبي ﷺ أمر أبا هريرة أن يحرسه، فكان الشيطان يأتي،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

ويحثو من التمر، ويأكل منه، فيمسكه، ثم يتوب، ويعد بأنه لن يعود، والله ﷻ أطلع رسوله ﷺ على أمر الشيطان، فصار يسأل أبا هريرة كل مرة، في النهاية لما أمسكه، وأبى أن يطلقه حتى يأتي به رسول الله ﷺ، فلما رأى أنه لا مناص له، فإنه ذكر لأبي هريرة أن يقرأ آية الكرسي، فإنه إذا قرأها، لا يقربه شيطان حتى يصبح، ولا يزال عليه من الله حافظ حتى يصبح، فقال له النبي ﷺ: «صَدَقَك وَهُوَ كَذُوبٌ»، فدل على أن قراءة القرآن - ولا سيما آية الكرسي - تطرد الشيطان، فلو كانت كرامة، لزادها القرآن، القرآن يزيد الكرامة، يقويها ويثبتها، أما كونها تزول، فهذا دليل على أنها ليست كرامة، وإنما هي عمل شيطاني، فيهرب الشيطان، ويبطل عمله إذا قرئت آية الكرسي، ومن ثم يستحب للمسلم إذا أراد أن ينام أن يقرأ آية الكرسي؛ حتى يحفظه الله بها، ويبعد عنه الشياطين.

فدل على أن الكذوب قد يصدق بعض المرات، ولكن إذا صدق، فلا يتخذ صدقه هذه المرة دليلا على صدقه في كل شيء، فلا يغتر به.

والنبي ﷺ أخبر أبا هريرة رضي الله عنه أن الذي يأتيه في كل هذه الليالي هو الشيطان، وليس إنسانا.

وَلِهَذَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقٍ أَبْطَلَتْهَا، مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ شَيْطَانِيٍّ، أَوْ يَحْضُرُ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ(١)، [١].

الشرح:

[١] فإذا قرأ آية الكرسي عند الأحوال الشيطانية، عند الشعوذات، عند السحر، عند وسوسة الشياطين، فإنها تزول بإذن الله، إذا قرأها بإخلاص، أما أن يقرأ حروفها بدون استحضار لمعانيها، وبدون إخلاص، فإنها قد لا تنفعه.

الإنسان إذا تعاطى الكفر بالله والشرك واستحلال المحرمات، فإن الشياطين تساعده، وتظهر على يده أشياء من المخاريق الشيطانية؛ لأجل أن يغتر بنفسه، ويغتر به غيره، وهذا من باب الابتلاء والامتحان من الله ﷻ لعباده، فيتظاهر أنه يدخل النار، وهو بنفسه لا يدخلها، وإنما الشياطين تحمله، ويتظاهر أنه يمشي على الماء، ويطير في الهواء، وهو لا يفعل هذا بنفسه، وإنما الشياطين هي التي تحمله؛ لأنه أطاعهم، فهم خدموه لإضلاله ولإضلال غيره، فلا يغتر بالأحوال الشيطانية مهما بلغت، والآن ظهر الدجل والسحر والشعوذة، حتى في القنوات الخبيثة، فعلى المسلمين أن يحذروا من هذا، وألا يغتروا به.

---

(١) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٨)، ولسان العرب (١٥/ ٢٨٩).

فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لَا يُعْلَمُ وَرُبَّمَا لَايُفْقَهُ، وَرُبَّمَا كَاشَفَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، [١] وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِأَلْسِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجِنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، [٢].

الشرح:

[١] الإنسان ما يعلم ما في القلوب، لكن الشيطان قد يطلع؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط الإنسان، وربما يطلع على شيء مما في نفسه أو في قلبه، فيخبره، يقول: أنت تفكر في كذا، أنت تقول كذا في قلبك، وما هو منه، هذا من الشيطان؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيطلع على ما لايطلع عليه الإنسان.

[٢] ويتكلم الشيطان على لسان وليه بكلام قد لا يفهم، وليس هو من كلام بني آدم، فيدل هذا على أنه معه قرين، معه شيطان.

يتكلم بألسنة مختلفة: أحيانا يتكلم بالإنجليزي، وأحيانا يتكلم باللغة الفارسية، وأحيانا يتكلم باللغة العربية، الإنسان يستطيع هذه الأمور، وهو ما تعلم، إنسان ما تعلم، ما يقال: هو متعلم للغات، هو ما تعلم، عامي ويتكلم بألسنة مختلفة، هذا ليس منه، هذا من الشيطان، يتكلم على لسانه؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فلا يصدق بهذا، ولا يقال: هذه كرامة. إنه ما تعلم، ومع هذا يتكلم بألسنة مختلفة، ليس هذا منه، هذا من الشيطان الذي لابسه وقارنه. المصروع الذي ليس من أولياء الشيطان، المؤمن قد

يصاب بالصرع، وقد يصاب بالجنون، وهو مؤمن، يتكلم الشيطان على لسانه بكلام ما كان المصروع يعرفه، ويخبر بأشياء ما كان يعرفها، فهذا دليل على أن هذا ليس منه، إنما هذا من الشيطان الذي لابسه.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ الْحَالُ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ وَلَبِسَهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، فَإِذَا أَفَاقَ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالَ؛ [١] وَلِهَذَا قَدْ يُضْرَبُ الْمَصْرُوعُ، وَذَلِكَ الضَّرْبُ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُخْبِرُ إذَا أَفَاقَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ كَانَ عَلَى الْجِنِّيِّ الَّذِي لَبِسَهُ. [٢].

الشرح:

[١] لا يدري بما يقوله الشيطان، وما يقوله الجني، المجنون إذا أفاق، وقالوا له: إنك فعلت كذا، أو قلت كذا، يقول: أبدا، ما فعلت شيئا، ولا قلت شيئا. لا يدري؛ قاله غيره، هو الشيطان، ربما يضرب المجنون، والمصروع يضرب، ولا يتأثر بالضرب، ولا يحس به؛ لأن الضرب لا يقع عليه، إنما يقع على الشيطان الذي لابسه.

[٢] قد يضرب ضربا شديدا يؤثر، ولو كان على بدنه لأثر، أو تكسرت أعضاؤه، ومع هذا لا يحس، ولا يدري عنه؛ لأنه لم يقع عليه، إنما وقع على الشيطان الجني، على الجني الذي خالطه، وهذا شيء معروف.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِيه الشَّيْطَانُ بِأَطْعِمَةٍ وَفَوَاكِهَ وَحَلْوَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَطِيرُ بِهِمْ الْجِنِّيُّ إِلَى مَكَّةَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ غَيْرِهِمَا، [٢].

الشرح:

[١] قد يأتيه بأطعمة وفواكه يسرقها الجني من أمكنة من الناس، يأخذها من بيوت الناس، ومن بساتينهم، ومن حوانيتهم، ويأتي بها لهذا الآدمي، فيظن أن هذه كرامة، وهي ليست كرامة، هذا خارق شيطاني، نعم المؤمن ولي الله قد يحضر عنده فواكه - كما سبق لنا -، لكن لأنه مؤمن تقي، أما هذا، فهو فاجر شقي، فما يكون عنده من الفواكه إنما هو من سرقة الشياطين التي تخدمه، فلا يلتبس هذا بهذا، ولذلك عنوان هذا الكتاب المبارك: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

[٢] هذا شيء معروف أنهم يطيرون ببني آدم الذين يكفرون بالله، ويشركون بالله، ويطيعون الشياطين، إنهم يطيرون بهم إلى الأمكنة التي يريدونها؛ لأن الشيطان عنده مقدرة على قطع المسافات الطويلة، وعلى الطيران في الهواء، عنده مقدرة، فهو يخدم هذا الإنسي الذي أطاعه في معصية الله، ويذهب به إلى حيث يريد، وهذا معروف حتى عند العوام الآن، يعرفون الذين يطيرون، يعرفون أن هذا سحر، وأنه من الجن، وليس هو من الكرامات.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ثُمَّ يُعِيدُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَا يَحُجُّ حَجًّا شَرْعِيًّا؛ بَلْ يَذْهَبُ بِثِيَابِهِ وَلَا يُحْرِمُ إذَا حَاذَى الْمِيقَاتَ، [١] وَلَا يُلَبِّي، وَلَايَقِفُ بمزدلفة، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَلَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ؛ بَلْ يَقِفُ بِعَرَفَةَ بِثِيَابِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِحَجٍّ [٢].

الشرح:

[١] ومنهم من يحمله الجني إلى عرفة يوم عرفة، ولا يحرم، إنما يذهب إلى عرفة من غير إحرام، ثم يرجع به، فهو لم يحج، وإنما الجني يلعب به، كيف يحج من غير إحرام؟ يتعدى الميقات بدون إحرام، ولا يتجنب محظورات الإحرام؛ لأنه يريد مخالفة أمر الله؛ لأن الله أوجب على من يريد الحج أن يحرم من الميقات، وأمره أن يتجنب محظورات الإحرام، فهو خالف أوامر الله، فلذلك خدمه الشيطان، فلا يغتر بهذا أبدا.

هذه أعمال طاعة، فيتركها متعمدا، الشيطان يخدمه في ذلك إذا عصى الله، وترك الواجبات والعمل الصالح وشروطه، فإن الشيطان يخدمه في ذلك، ويحمله إلى ما يريد، ويرجع به إلى مكانه، فلا يقال: هذا من أولياء الله. بل هذا من أولياء الشيطان.

[٢] ليس بحج؛ لأنه لم تتكامل شروطه، وواجباته، وأركانه، فهو عمل شيطاني، وليس بحج، وإن كانوا يزعمون أنه حج، وأنه يروح ويأتي؛ لأنه من أولياء الله، فهذا من أولياء الشيطان، وهو لم يحج.

[وَلِهَذَا رَأَى بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْحُجَّاجَ]، فَقَالَ: أَلَا تَكْتُبُونِي؟ فَقَالُوا: لَسْت مِنْ الْحُجَّاجِ. يَعْنِي: حَجًّا شَرْعِيًّا. [١].

وَبَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشْبِهُهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فُرُوقٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا: أَنَّ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، وَالْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ سَبَبُهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ﷺ. [٢].

الشرح:

[١] واحد من الذين طار بهم الشيطان إلى عرفة عشية عرفة، رأى الملائكة تكتب الحجاج، فلم يكتبوه، سألهم لماذا لم تكتبوني؟ قالوا: أنت لم تحج. فلا تكتبه الملائكة، الإنسي هذا رأى الملائكة تكتب الحجاج، فقال: لم لاتكتبوني؟ قالوا: أنت لم تحج. لأنه -كما سبق- لم يحرم، ولم يلبِّ، ولم يأت بأعمال الحج.

[٢] هذا هو الفارق الواضح: الإيمان والتقوى، فالذي عنده إيمان وتقوى ما يجري على يده من الخوارق، فهو كرامة، والذي ليس عنده إيمان ولا تقوى ما يجري على يده من الخوارق، فهو خارق شيطاني للاستدراج. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فدل على أن الذين لا يؤمنون ولايتقون أنهم ليسوا من أولياء الله، وإن جرى على أيديهم خوارق.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. [١].

فَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ قَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ سَبَبًا لِكَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَرَامَاتِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ [٢].

الشرح:

[١] فالذي لا يتجنب الفواحش، ولا يتجنب الإثم، ولا يتجنب الشرك، ولا يتجنب القول على الله بغير علم- هذا ليس من أولياء الله، وإن جرى على يده خوارق، هذه خوارق شيطانية، وليست كرامات.

[٢] فهذه الخوارق التي تجري على من لا يترك الفواحش والإثم، ولايترك البغي على الناس، ولا يترك الشرك، ولا يترك القول على الله بغير علم -ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، يستدرج بها الشيطان هذا الإنسان وأتباعه.

إذا كان الخوارق لا تحصل بتلاوة القرآن والذكر والصلاة، فإنها خوارق شيطانية.

بَلْ تَحْصُلُ بِمَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ وَبِالْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ كَالِاسْتِغَاثَةِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى ظُلْمِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَهِيَ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَا مِنْ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. [١].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إذَا حَضَرَ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الدَّارِ، [٢].

الشرح:

[١] إذا كانت على عكس ما جاء في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، إلى آخر الآية، فهذا دليل على أنها ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، وأن من تجري على يده ليس من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان، فيجب على الناس أن يعرفوا هذه الأمور، وعلى طلبة العلم خصوصا أن يعرفوا هذه الأمور، وينبهوا الناس عليها؛ لأنها أهلكت كثيرا من الناس، وتسلط أولياء الشيطان على عباد الله، وغرروا بهم بسبب ما يظهر على أيديهم من خوارق الشيطان، فأضلوهم عن سبيل الله، فيجب العناية بهذا الأمر - أمر الولاية -، وبيان من هو ولي الله، ومن هو ولي الشيطان؛ حتى لا يغتر بهؤلاء، هذا من أعظم الفقه في دين الله ﷻ.

[٢] أيضا هذه الأحوال الشيطانية إنما تحضر عند المكاء والتصدية، والمكاء هو: الصفير، والتصدية: التصفيق، وكانوا في الجاهلية يعملون هذا عند بيت الله العتيق: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، هذه صلاتهم في الجاهلية عند بيت الله العتيق،

من الذي أمرهم بهذا؟ أمرهم بهذا الشيطان، فإذا حصل مجلس فيه هذه الأباطيل، فإن الشياطين تحضر هذا المجلس، فإذا زادت هذه الأمور، وانفعل معها الإنسان، حملته الشياطين، وأخرجته من المكان، وظنوا أن هذه كرامة حضرت له، وهو شيطان مريد، يريد أن يغويه، ويغوي من يغتر به، مجالس اللهو ما تجر إلا الشر، بخلاف مجالس الذكر، مجالس القرآن، فإنها تحضرها الملائكة والسكينة: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[1]، فهذا الفرق بين مجالس الخير ومجالس الشر؛ مجالس الخير تحضرها الملائكة، ومجالس الشر تحضرها الشياطين، فرق بين مجالس أولياء الله، ومجالس أعداء الله. ومن ذلك - والله أعلم - ما يسمونه بالزار الآن، يطربون، ويصلون إلى حد يغشى عليهم، فتحضرهم الشياطين، وربما تُجري على أيديهم خوارق شيطانية، ويظنون أن هذا من كرامات الله، وهذا يحصل عند الصوفية، هذا الأمر لا يحصل عند المُجَّان؛ المجان منحطون، والناس يعرفونهم، وليس لهم قيمة، لكن هذا يحصل عند الذين يدعون العبادة والزهد، وهم الصوفية، ويغتر الناس بهم أكثر.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث أصله في مسلم (٢٧٠٠) بلفظ: «**لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عز وجل إلاَّ حَفَّتْهُمْ...**».

فَإِذَا حَصَلَ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْدَ شَيْطَانِهِ فَيَسْقُطُ، كَمَا جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ. [١].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِمَخْلُوقٍ إِمَّا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْحَيُّ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا، فَيَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، وَيَقْضِي بَعْضَ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغِيثِ، [٢].

الشرح:

[١] الشيطان يحمل هذا الذي تفانى مع المكاء والتصدية، فإذا جاء ولي من أولياء الله، انطرد الشيطان، فسقط هذا الشخص المحمول في الهواء؛ لأن الذي يحمله هرب، فيسقط، فهذا دليل على بطلان الأحوال الشيطانية عند حضور أولياء الله، وعند حضور ذكر الله ﷻ، هذا من الفوارق بين الخوارق الشيطانية والكرامات الربانية.

[٢] هذا سبق في التوسل والوسيلة، وهنا أيضا أن من استغاث بميت، أو استغاث بمخلوق غائب، فإن الشيطان يتمثل به، ويأتي، ويجيب من استغاث به، ويحضر له ما يريد؛ لأجل الفتنة، ولأجل الاستدراج، والسبب في هذا هو الشرك؛ لأن الاستغاثة بالميت، والاستغاثة بالغائب شرك بالله ﷻ، فالمشرك لاشك أنه يرضي الشيطان، فيخدم هذا المشرك، ويأتيه بصورة الإنسان الذي يدعوه أو يناديه، يتشكل بشكله، ويقضي حوائجه، ويظن هذا المسكين أن هذا هو الولي الذي استنجد به أو استغاث به، وأن الميت حضر، أو أن الغائب حضر، فهذا كله من الغرور.

فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلَكٌ عَلَى صُورَتِهِ، [١] وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاللَّهِ، كَمَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ الْأَصْنَامَ وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ. [٢] وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَصَوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِرُ، [٣].

الشرح:

[١] لا يقول هذا شيطان على صورته، بل يغره، ويقول: هذا ملك على صورة هذا الإنسان، الملك لا يحضر عند مجالس السوء، ومجالس الشر ما تحضرها، إنما تحضرها الشياطين، الملائكة إنما تحضر مجالس الخير؛ مجالس القرآن والذكر.

[٢] وهذا سبق أن الشياطين تدخل الأصنام والأحجار والأشجار والقبور، حتى التي تدعى من دون الله، تدخلها الشياطين، ثم تتمثل بصورة هذا المعبود الذي يعبدونه ويقضي حوائجهم؛ بأن يحضر لهم الأشياء، يسرقها من مكان بعيد من أموال الناس، ويحضرها لهم، فيظنون أن هذا ولي من أولياء الله، وأن هذا ملك جاء،... إلى آخر ما يغرون به الناس.

[٣] الخضر هذا هو العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علما، والذي ذهب موسى عليه السلام للقائه والتعلم منه، وهو ميت، لكن منهم من يدعي أنه حي، وأنه يدور في الدنيا، فيقول: أنا الخضر. يأتي الشيطان، ويقول: أنا الخضر، مع أن الخضر ميت من زمان، من عهد موسى، وليس موجودًا:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]؛ الخضر وغيره، هم يزعمون أنه ما مات الخضر، وأنه حي، وأنه يدور في الدنيا، ويحضر عندما يذكره الناس؛ من ذكره، حضر عنده، فهذا كله من الباطل، فإن حضر شيء، فإنه شيطان، وليس الخضر.

وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، [١] كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، [٢] وَكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمُوتُ لَهُمْ الْمَيِّتُ فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ، وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ، [٣].

الشرح:

[١] لأجل أن يخدعه، ويغره، ويغر غيره أيضا ممن يدعي أن هذا ولي من أولياء الله. وإذا قيل له: ما أدراك أنه ولي؟ قال: هذا جرت على يده كرامة، والكرامة لا تجري إلا على يد ولي، فيقال: هذه ليست كرامة، هذه من خوارق الشيطان.

[٢] ويحصل هذا الآن، الآن يحصل بكثرة.

[٣] وهم يظنون أنه ذلك الميت، الميت لا يأتي أبدا؛ من مات، فإنه لا يرجع إلى الدنيا أبدا، غادر الدنيا مغادرة نهائية، ولا يمكن أن يرجع إلى الدنيا، ولهذا الله ﷻ إذا طلب الكفار أن يعودوا إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحا، فإن الله ﷻ يقنطهم من هذا، وييئسهم من هذا أنه لن يحصل أبدا، ولا يرجعون إلى الدنيا، ولن يرد الله الميت إلى الدنيا أبدا، إنما قد يحصل هذا معجزة لبعض الأنبياء، هذا معجزة، وليس من باب أن الميت يرجع دائما وأبدا، إنما قد يحصل هذا معجزة لأجل غرض من الأغراض؛

مثل: قصة القتيل من بني إسرائيل، وقصة الذين خرجوا من ديارهم، ومثل: قصة القرية التي مر عليها الذي قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فالله قد يحيي الأموات في هذه الدنيا؛ لإقامة حجة، وإقامة برهان؛ معجزة لنبي من الأنبياء.

وَيَدْخُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَيَذْهَبُ، وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمْ بِالنَّارِ كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ، [١] فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ. [٢].

الشرح:

[١] في أمة من الأمم أو جنس من البشر مثلما هو في الهند يحرقون ميتهم - إلى الآن كفار الهند يحرقون أمواتهم -، فيأتي بعد الإحراق في أبهى صورة، وأحسن صورة، ويقول: أنا أبشركم أني بخير، وأني في الجنة، وهو شيطان؛ لأجل أن يغريهم، ويحرقون أمواتهم، ومنهم من يحرق الحي، يجملون شخصا من الشبان بأجمل صورة، ثم يوقدون النار، ثم يلقونه فيها، ثم بعد مدة يسيرة يأتيهم مسرورا، وفي أبهى صورة، وأحسن حلة، ويقول: لقيت الخير، وهذا من الشيطان، الشيطان تصور بصورته، وإلا هو ما يأتي أبدا، لكن الشيطان يتصور بصورته من أجل أن يغريهم بإحراق شبابهم، وإحراق. . . ، هذا الذي يريده الشيطان دائما وأبدا مع بني آدم.

[٢] فيظنون أنه رجع إلى الدنيا وحيا، وعادت فيه الروح، وعاد إلى الدنيا . هذا كله من الشيطان، الشيطان جاء على صورته، فيظنون أنه حيا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرَ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتّ فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي، فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسِّلُ نَفْسِي، فَلَمَّا مَاتَ رآى خَادِمُهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغَسَّلَ نَفْسَهُ، فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّاخِلُ غُسْلَهُ - أَيْ غُسْلَ الْمَيِّتِ - غَابَ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا، وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ وَقَالَ: إِنَّك بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسِّلُ نَفْسَك، فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ أَيْضًا فِي صُورَتِهِ لِيُغْوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ. [١].

الشرح:

[١] الميت أغواه؛ لأنه ما ترك الناس يغسلونه كالحال مع الأموات، فالميت قبل أن يموت أجابه، وأوصى خادمه ألا يغسله أحد؛ طاعة للشيطان، فلما مات، جاء شخص في صورة الميت، وغسله، ويظنون أن الميت غسل نفسه، وهو في الحقيقة الشيطان؛ لأجل أن يغرهم، فهو غر الميت، وغر الأحياء هذا الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦] فالحذر الحذر، ومع شياطين الجن شياطين الإنس التي تروج هذه الأفكار الخبيثة، وهذه الترهات والأباطيل.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ وَيَسْمَعُ مَنْ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّك، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ فَزَجَرَهُ وَاسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ مِنْهُ فَيَزُولُ. [١].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقَظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنْ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ، [٢].

الشرح:

[١] منهم من يرى عرشا - يعني: سريرا - بين السماء والأرض، ويرى عليه نور، وهو الشيطان تصور له، وأمره بأشياء، فالمؤمن يكذبه، فيزول، ويطير، يذهب، أما غير المؤمن، فإنه يغتر به، ويطيعه.

ويذكر أن عبد القادر الجيلاني رحمه الله أنه بينما كان يمشي إذا أظله شيء فوقه، فرفع رأسه، فرأى شخصا عليه شخص، قال له: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أبحت لك ما حرمت عليك. فقال: كذبت، إنما أنت شيطان؛ لأنه لا ينزل بعد الرسول ﷺ تحليل ولا تحريم. فدحره، وأبطل كيده، لكن هذا لأهل العلم والإيمان، أما العوام، وأما الجهال، وأما ضعاف الإيمان، فربما يغترون بهذا الشيء.

[٢] يتصورون لبعض الناس في اليقظة، ويدعون أنهم رسل، أو أنهم أنبياء، أو أنهم من الصالحين الأموات حضروا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ: إِمَّا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، أَوْ غَيْرُهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَّتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ، فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَّةٌ وَشَعْرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مُقَصَّرٌ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَّرُوهُ. [١].

وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ، [٢].

الشرح:

[١] يأتي الشيطان لهذا النائم، فيحلق رأسه، ويلبسه طاقية، فيصبح عليه طاقية ومحلوق الرأس، ويظن الناس أن هذا ملك عمل به كذا، وهو شيطان، وليس ملكا.

[٢] هذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، أما الذي تمسك بالكتاب والسنة، فإنه لا يغتر بهذه الأمور. انظروا ماذا قال عبد القادر رحمه الله، قال: إنه لا ينزل بعد الرسول ﷺ تحليل ولا تحريم، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، بركة العلم حمته من هذا الشيطان.

هم درجات؛ يعني: أن هذه الخوارق الشيطانية درجات، بعضها أشد من بعض، بحسب كفر ولي الشيطان، وشدة كفره.

وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَهُمْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، [١] وَالْجِنُّ فِيهِمُ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ، [٢] وَقَدْ يُعَاوِنُونَهُ إِذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ، [٣].

الشرح:

[١] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾، فهم ظالمون، وأولياؤهم من الإنس ظالمون، سلطوا عليهم بسبب ظلمهم وكفرهم بالله ﷻ عقوبة لهم.

[٢] الجن الذين يكونون مع الإنس الشياطين التي تكون مع الإنس منهم الكافر، وهو الشيطان، ومنهم العاصي، ولا يصل إلى حد الكفر، ومنهم المخطئ الذي دون العاصي، فليسوا على درجة واحدة؛ ولذلك هم في الكفر والإلحاد والزندقة متفاوتون.

[٣] فإذا أطاعهم فيما يأمرونه به من الكفر، خدموه، وأعانوه، فيظن من لا بصيرة عنده أن هذه كرامة، وأن هذا ولي لله ﷻ، دون أن ينظر إلى عمله، وحاله، وما هو عليه.

مِثْلُ: الْإِقْسَامِ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءِ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، [١] وَمِثْلُ: أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالنَّجَاسَةِ، أَوْ يَقْلِبَ(١) [٢] فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ أَوْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَهُنَّ وَيَكْتُبَهُنَّ بِنَجَاسَةٍ، [٣].

الشرح:

[١] فلذلك تجد هؤلاء المشعوذين عملاء الشياطين وعملاء الجن، تجدهم يتمتمون بألفاظ لا تفهم، وينادون أسماء غير معروفة، وهؤلاء هم أولياؤهم من الجن، بأسمائهم وكلامهم.

[٢] إذا أطاعهم، فأهان ذكر الله، فإنهم يخدمونه؛ كما لو كتب القرآن بالنجاسة، أو ألقاه في القاذورات، أو فعل ما يريدونه منهم، قدموا له الخدمة، فكلما كثرت مخالفاته، كثرت خدمتهم له، قد تكون الخدمة يسيرة؛ لأن انقياده لهم يسير، تكون خدمتهم له متوسطة، وقد تكون خدمتهم له شديدة بسبب ما في قلبه من الكفر والطاعة لهم والانقياد لهم.

[٣] يعبث بالقرآن، وينكس ألفاظه وحروفه، فإذا فعل هذا خدموه؛ لأن هذا من الاستهزاء بكلام الله وبكتاب الله ﷻ، ويظن من يظن أن هذا كرامة، وأن هذا ولي من أولياء الله، وأنه عرف هذا السر، مع أنه من تلقين الشيطان.

ويكتبون القرآن بمادة نجسة، أو يكتبونه في محل نجس.

---

(١) يعني: يقرؤها من آخرها إلى أولها.

فَيُغَوِّرُونَ لَهُ الْمَاءَ وَيَنْقُلُونَهُ بِسَبَبِ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، [١] وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ إمَّا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا مَدْفُوعًا مَلْجَأً إلَيْهِ. [٢] إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا، [٣].

الشرح:

[١] يغور الماء، فيقول: أنا عندي مقدرة على تغوير الماء، فيصدقونه بذلك، أو يحملونه إلى الجهة التي يريد بدون أن يمشي على رجليه، أو يركب مركوبا معتادا، وإنما يطيرون به في الهواء، ويوصلونه إلى المكان الذي يريد، ويردونه إلى مكانه، فيظن المغرورون أن هذا من أولياء الله، وأن هذه كرامات، ولا ينظرون إلى عمله وإلى عقيدته، وما هو عليه؛ حتى يتبين لهم هل هو ولي أو شيطان.

[٢] إذا صار يهوى امرأة، ولو كانت بعيدة، أحضروها له، يحملونها، ويأتون بها له. إما أنهم يحملون هذه المرأة وهذا الصبي في الهواء، يحضرونهما عنده، وإما أنهم يسوقونه، يسوقون الإنسان، يمشي راغبا إلى هذا الشخص، يسوقونه، ويأتي برغبته إلى هذا الشخص؛ لأنهم يدفعونه.

[٣] الشيخ بين هذه الأمور التي يغتر بها الجهال، ويغتر بها بعض الناس، فيظنون أنها حصلت كرامة من الله؛ لأنه ليس باستطاعة الإنسي أن يعمل هذه الأشياء، فيقولون: هذه إنما تحصل من الله على يد ملك من الملائكة؛ لأنه ولي، ولا يدرون أن هذا يحصل بعمل الشيطان الذي قيضه الله له بكفره

وشركه؛ امتحانا له، وعقوبة له، هذا يحتاج إلى فقه في دين الله، ومعرفة في دين الله، وألا يغتر الإنسان بحال من الأحوال يراها إلا بعد أن يفحص صاحب هذه الحال، هل هو مؤمن تقي، أو كافر شقي؛ حتى يعرف أنها كرامة، أو أنها خارق شيطاني.

وَالْإِيمَانُ بِهَا إِيمَانٌ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. [١].

وَالْجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيَاطِينُ وَالْأَصْنَامُ، [٢].

الشرح:

[١] الإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، الجبت هو: السحر، والطاغوت هو: الشيطان. فمن آمن بالجبت والطاغوت، حصلت له هذه الأمور، وهذا شأن اليهود؛ يؤمنون بالجبت والطاغوت، وكذلك من سار على نهجهم.

[٢] كل ما عبد من دون الله، فهو عبادة للطاغوت، فإن كان المعبود راضيا بهذا، فهو الطاغوت، وإن كان المعبود لا يرضى بهذا، وينهى عنه - كأولياء الله الذين يعبدونهم بعد الموت، كالمسيح ﷺ -، فإن عبادتهم ليست لهؤلاء الصالحين، وإنما هي عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان الذي أمرهم بها، وإلا فالمعبود لا يرضى بهذا، بل ينكره، ويجاهد عليه، فهم يعبدون الشيطان الذي أغراهم بهذا الأمر. وهذا المعبود بريء من ذلك كل البراءة، وينكرها يوم القيامة، سواء الملائكة أو غيرهم ينكرون أن هؤلاء عبدوهم، وإنما يقولون: كانوا يعبدون الجن، أي: الشياطين ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]، الله بين كل شيء، ووضح كل شيء في القرآن، ولكن أين الذي يقف مع القرآن ويتدبر آياته؟! الله أخبر أن الإنس يستمتعون بالجن بسبب أن الإنس يكفرون بالله، ويطيعون الجن، ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، الله بين هذا في القرآن. من كان يؤمن بالله ويتقيه ظاهرا وباطنا، لا تقربه الشياطين، وإنما ما يحصل على يده من خوارق العادات إنما هو كرامة أجراها الله على يده، وليست من خوارق السحرة والكهان والشياطين، فيجب الفرق بين هذا وهذا؛ لئلا يلتبس الأمر كما التبس على كثير من الناس.

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَمْ يُمْكِنْهُمْ الدُّخُولُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ مُسَالَمَتُهُ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرُوعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ كَانَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ أَبْعَدَ عَنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [١].

الشرح:

[١] لأن المساجد هي بيوت الله ﷻ، وهي مهبط الملائكة والرحمة والسكينة، والشياطين لا تقرب المساجد، إنما تقرب الأمكنة القذرة، أو تقرب المحلات الخفية، والسراديب المظلمة، والكهوف البعيدة، والأماكن السرية، هذه محلات الشياطين. أما المساجد، فهي بيوت الله، يجتمع فيها المسلمون، ويلقى فيها العلم والذكر، فلا تقربها الشياطين. فأنت تجد الذي يعمر المساجد، ويتردد إليها سالما من هؤلاء الشياطين، تجد عليه الصلاح، والاستقامة؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: ١٨]، الآية وضحت هذا أن الذين يعمرون مساجد الله هم أهل الإيمان، وأن الشياطين وأولياء الشيطان من الناس لا يقربون المساجد، بل ينفرون منها، ويفرون منها، وهذا شيء ظاهر.

* * *

وَكَانَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ يُعَظِّمُونَ الْقُبُورَ وَمَشَاهِدَ الْمَوْتَى، [١] فَيَدْعُونَ الْمَيِّتَ، أَوْ يَدْعُونَ بِهِ، أَوْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَهُ مُسْتَجَابٌ أَقْرَبُ إِلَى الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] كما سبق أن القبور لا تجوز العبادة عندها: لا الصلاة، ولا الدعاء، إلا الدعاء للميت، فلا بأس، أما الدعاء للزائر، فلا يجوز أن تدعو الله لنفسك عند القبر، فدعاء الأموات هذا شرك أكبر، والدعاء عند الأموات هذا بدعة، ووسيلة إلى الشرك، وكذلك الدعاء بالأموات؛ كأن تتوسل بهم إلى الله، هذا بدعة ووسيلة إلى الشرك - كما سبق -، فدعاؤها أو الدعاء عندها، أو الدعاء بها كل ذلك لا يجوز.

[٢] فالذي يعتقد أن الدعاء عند القبور مستجاب هذا قريب حاله من الأحوال الشيطانية؛ لأن الله لم يشرع لنا الدعاء عند القبور، وإنما شرع لنا الدعاء في المساجد، التي هي بيوته.

فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١). [١].

الشرح:

[١] «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» السبب: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» هذا هو سبب اللعنة، ومعنى مساجد أي: مصليات يصلون عندها، ويدعون الله عندها؛ رجاء أن الدعاء عندها، والصلاة عندها مستجابة، أفضل من غيرها، فلذلك لعنهم الله؛ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته، والنبي ﷺ ذكر لنا ذلك تحذيرا لنا من أن نتشبه بهم، ونفعل مثل فعلهم، ونتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ كما اتخذها اليهود والنصارى مساجد، ولكن مع الأسف تجد في كثير من البلاد أن المسجد الذي ليس فيه قبر لا يتجه إليه إلا النوادر من الناس، ولا يرغبونه، والمسجد الذي فيه قبر تجد الناس معتكفين فيه، جالسين فيه، ويصلون فيه الفرائض، فهو يضاهي المسجد الحرام. الآن الصلوات الخمس تبث من المسجد الحرام، ويسمعها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ويضاهون المسجد الحرام، فيبثون الصلاة عند القبور: قبر فلان، وقبر فلانة، الست فلانة، وقبر فلان، ويذيعون وينشرون الصلاة عندها؛ مضاهاة للمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، فهؤلاء لاشك لعب بهم شياطين الإنس والجن، والصلاة

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

في المسجد الذي فيه قبر لها قيمة عندهم، وأما الصلاة في المسجد الذي ليس فيه قبر، فلا يرغبونها، وهذه مصيبة. مع أن المسجد الذي ليس فيه قبر هو من بيوت الله، وهو الذي يصلى فيه، أما المسجد الذي فيه قبر، فهو من بيوت الشيطان، ولا تجوز الصلاة فيه، ولا تقبل، ولا تصح.

* * *

وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ: «إِنَّ مَنْ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْت مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا سُدَّتْ إلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ، إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١). [١].

الشرح:

[١] «إِنَّ مَنْ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ...»، هذه إشارة إلى خلافة أبي بكر من بعده، لما أحس بقرب أجله ﷺ قال هذا الكلام؛ توطئة لاستخلاف أبي بكر من بعده، وأمر أن تسد كل خوخة - يعني: فرجة، أو الباب الذي يدخل منه، يدخل منه بعض الصحابة - إلا خوخة أبي بكر، من أجل ماذا؟ من أجل أن يصلي بالناس، وأما سائر الناس، فيدخلون من الأبواب المعروفة التي يدخل منها المصلون، لكن هذه خوخات خاصة، يدخل منها بعض الصحابة ﷺ، يصلون مع الرسول ﷺ، فأمر بسدها إلا خوخة أبي بكر، هذا إشارة إلى استخلافه رضي الله عنه، وهو أمنّ الناس بصحبته لرسول الله، وبماله - ذات يده يعني: بماله -، فهذا من فضائل أبي بكر الصديق، وفيه دلالة على أنه هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وهذا بإجماع الصحابة ﭫ، أجمع الصحابة ﭫ على بيعة أبي بكر ﭬ، فهذا فيه رد على الرافضة الذين يقولون: إن الخلافة بعد الرسول ﷺ لعلي ﭬ، وأنه الوصي، هو وصي الرسول، والوصاية هذه باطلة لا أصل لها، علي ﭬ من الخلفاء الراشدين، لكن ليس هو أحق بالإمامة من أبي بكر وعمر وعثمان ﭫ، هذا مخالف لإجماع الصحابة ﭫ، ومخالفة لدلالة النصوص على تقديمهم وفضلهم ﭫ، هذا صدر الحديث، وتبرأ أن يكون له من أهل الأرض خليل، لماذا؟ لأنه خليل الله، وخليل الله لايكون له خليل آخر؛ الخلة لا تقبل الاشتراك، فلذلك مع حبه لأبي بكر ﭬ، ومع فضل أبي بكر ﭬ، لم يتخذه خليلا، وإنما اتخذه صاحبا من أصحابه، «أمنكم علي بصحبته»، فأثبت لأبي بكر الصحبة، وبين أنه أفضل الصحابة ﭫ، وأمنهم على رسول الله ﷺ؛ لأنه حماه، ولازمه منذ بعثه الله إلى أن توفاه الله، وأبو بكر ﭬ إلى جانبه يحميه، ويحفظه، ويمده بالمال، ويؤيده، حتى توفي رسول الله ﷺ. آخر الحديث هو محل الشاهد.

«إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. . .»، هذه وصية ثانية، بعدما أوصى أو أشار إلى خلافة أبي بكر، حذر من شيء آخر، وهو البناء على القبور، خشي أن يبنى على قبره؛ كما بُني على قبور الأنبياء من قبله، وهذا من نصحه لأمته ﷺ، هذا من نصحه لأمته، خشي أن يتخذ حيال قبره ما اتخذ حيال قبور الأنبياء السابقين على يد اليهود والنصارى، فمن كمال نصحه ﷺ حذر من هذا قبل أن يموت بخمس - أي: بخمس ليال - قرب وفاته ﷺ.

«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، هذا نهي بعد نهي. من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد، هذا فيه النهي عن التشبه بهم، ثم قال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، هذا نهي آخر تأكيد للأول، ثم قال تأكيدا ثالثًا: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»؛ تأكيدات للنهي عن البناء على قبور الأنبياء، ومن باب أولى البناء على من دونهم من الأولياء والصالحين، إذا كانت قبور الأنبياء لا يبنى عليها، وأن من بنى عليها، فهو ملعون، فكيف بمن بنى على من دونهم من الأولياء والصالحين، هو ملعون أشد اللعن، نسأل الله العافية!

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ فِي مَرَضِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، [١] وَذَكَرُوا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]. [٢].

الشرح:

[١] والكنيسة هي محل عبادة اليهود والنصارى.

[٢] لما ذكرت له زوجاته اللاتي هاجرن إلى الحبشة ما رأين في أرض الحبشة - الحبشة كانوا نصارى، يبنون الكنائس -، فرأين كنيسة مزخرفة ومزينة، فيها تصاوير للمسيح وهو مصلوب بزعمهم، تصاوير للصالحين؛ كما فعل قوم نوح، الشيطان ما مات، الذي زين لقوم نوح زين لمن بعدهم، ولا يزال يزين، فبين ﷺ يحذر أمته من هذا الصنيع، «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»؛ ملعونون، وهم شرار الخلق عند الله، في الحديث الآخر: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[٢]، فهم شرار الخلق، وهم يعتقدون أنهم من صلاح الخلق، وأن هذا محبة للصالحين، وأن هذا ترغيب في الخير، هم شرار الخلق - والعياذ بالله -؛ لأنهم فعلوا فعلا يبعدهم عن الله، وفعلوا فعلا يغري بالشرك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) يأتي تخريجه قريبا إن شاء الله.

ويغرر بالناس، المساجد يجب أن تكون خالية من القبور، خالية من الصور، تقام لذكر الله وللصلاة، وعبادة الله وحده لا شريك له، هذه مساجد الله التي أمر ببنائها، ونهى عن بناء المساجد على القبور، وأخبر أنه من فعل اليهود والنصارى، وأن من فعله يستحق اللعنة، وأنه من شرار الخلق عند الله، وما أكثر المساجد المبنية اليوم على القبور! ولا حول ولا قوة إلا بالله! وإذا نهو عن ذلك، قالوا: أنتم لا تحبون الصالحين، ونحن لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله. كما قال المشركون: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هذه حجة الأولين، هي حجة هؤلاء.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ [١] عَنْهُ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»(١). [٢].

الشرح:

[١] في مسند الإمام أحمد، وصحيح أبي حاتم؛ أي: ابن حبان، صحيح ابن حبان.

[٢] من شرار الخلق الذين تدركهم الساعة، وهم أحياء؛ لأن الله يقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة، يرسل ريحا طيبة، فتقبض روح كل مؤمن، ولا يبقى إلا شرار الخلق تقوم عليهم الساعة، الساعة لا تقوم على مؤمن. هذا صنف: الذين تدركهم الساعة، وهم أحياء.

والصنف الثاني - وهو محل الشاهد -: الذين يتخذون القبور مساجد، وهم يظنون أنهم من صلاح الخلق، وأن هذا الفعل من محبة الصالحين، والاقتداء بهم، وأن الذي لا يفعل هذا لا يقدر الصالحين، ولا يحبهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

وَفِي «الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أنه قال: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»(١). [١] وَفِي «الْمُوَطَّأِ» عَنْهُ ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] لا تجلسوا على القبور؛ لأن هذا فيه إهانة، نهى عن إهانة القبور. «وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»، هذا فيه النهي عن الغلو في القبور، فنهى عن التساهل، ونهى عن الغلو في حق القبور، فلا يتساهل في شأنها وتداس، ويجلس عليها، ولا يغلى فيها، غلو اليهود والنصارى، فيصلى إليها.

[٢] «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، الوثن هو ما عبد من دون الله، سواء كان شجرة، أو حجرا، أو قبرا، أو صنما، كل ما عبد من دون الله يقال له: وثن، أما ما عبد من دون الله، وهو على صورة إنسان أو حيوان، هذا يقال له: الصنم، النبي ﷺ دعا ربه، فقال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» كما اتخذت القبور، فهذا دليل على أن الغلو في القبور يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ﷻ، وهذا في قبر الرسول الذي هو أشرف قبر، فكيف بغيره من القبور؟! ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله(٣):

وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ الْقَبْرَ الذي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الْأَوْثَانِ

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢).

(٣) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

فَـأَجَـابَ رَبُّ الـعَـالَمِينَ دُعَـاءَهُ ... وَأَحَـاطَـهُ بِـثَـلاثَـةِ الجُدْرَانِ

حَـتَّـى غَـدتْ أَرْجَـاؤهُ بِـدُعَـائِـهِ ... فِي عِـزةٍ وَحِـمَـايَـةٍ وَصِـيَـانِ

أحاط قبر الرسول ﷺ بثلاثة الجدران؛ فلا يراه أحد، ولا يدخل إليه أحد أبدا، فهذا من رحمة الله ﷻ.

وَفِي «السُّنَنِ» عَنْهُ ﷺ أنه قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»(١). [١].

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذا حديث آخر: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ يعني: لاتكرروا زيارته والسلام، لا يكرر هذا، كلما دخل المسجد، يذهب ويسلم على الرسول، هذا غير مشروع، هذا بدعة، إنما إذا قدم من سفر، سواء كان من أهل المدينة، وهو قد سافر، أو كان قادما إلى المدينة من غير أهل المدينة، فإنه يزور قبر الرسول ﷺ، ويسلم عليه، ولا يكرر هذا، كلما دخل، يذهب إلى القبر، هذا من اتخاذه عيدا، العيد هو ما يعتاد ويكرر، هذا مما يصيره عيدا؛ يعني: يعتاد ويكرر الذهاب إليه وزيارته، وهذا يفضي إلى الشرك به، ودعائه من دون الله، هذا من سد الوسائل المفضية إلى الشرك، حتى وإن كان الزائر يريد السلام، السلام هذا مبتدع، الذي يتكرر كلما دخل، هذا مبتدع، وهذا يعلق قلوب العوام والجهال بقبر الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٨٢)، وفي الأوسط (١/ ١١٧)، وأصله عند أبي داود (٢٠٤٢) بلفظ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧).

[٢] وهذا أيضا فيه بيان أنه لا ميزة للصلاة والسلام عليه عند قبره، لا ميزة لذلك، ومن يصلي ويسلم عليه من بعد، ولو في أقصى الأرض؛ لأن الصلاة والسلام يبلغان للرسول ﷺ، فلا حاجة إلى أنك تأتي عند قبره لتصلي وتسلم عليه، قال ﷺ: «حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ» يعني: في أي مكان «فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»، فلا حاجة أن تذهب للقبر، وتقول: أنا أصلي، وأسلم على الرسول، أنت ومن بالأندلس سواء؛ كما قال ذرية الحسن والحسين: «مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا سَوَاءٌ»(١)؛ يعني: في أقصى المغرب، سواء عند القبر أو بالأندلس سواء، هذا من باب المثل، حتى لو كنت في الصين، أو في أقصى المعمورة، صليت وسلمت على الرسول، يبلغ هذا، فلا حاجة إلى أنك تذهب إليه، وهذا فيه رحمة بالمؤمنين، وتيسير على المؤمنين، وفيه سد لوسيلة الشرك، ومنع التردد على قبره ﷺ.

---

(١) هذا قول الحسن بن الحسين بن علي رضي الله عنه، انظر: الفتاوى الكبرى (٢٧/ ١٢٢).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»(١). [١].

الشرح:

[١] تكرر أن الرسول ﷺ أخبر أنه يبلغ السلام من بعد؛ فلا حاجة إلى الذهاب إلى قبره، وهذا سد لذريعة الشرك والغلو، وفيه تخفيف على المسلمين، وإلا حُرِمَ الناسُ أجر الصلاة والسلام عليه في أي مكان، إذا كان السلام عليه عند قبره فقط، فهذا تضييق، يحرم الناس في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا قال: «حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ»، هذا تيسير على الناس، وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»(٢)، فيفوت على الناس هذا الفضل العظيم، لو أنه لا يقبل إلا من كان عند قبره، ليس كل الناس يأتون عند قبره، ولا يتيسر لهم هذا. فهذا من التيسير، تيسير من ناحية، وسد لوسيلة الشرك، وهذا هو المقصود من ناحية أخرى، الحمد لله الدين واضح لا لبس فيه لمن طلبه.

---

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٣٨٧). بلفظ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ في الأرض يُبَلِّغُونِي من أُمَّتِي السَّلَامَ».

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ ﷺ: «أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمْعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْك وَقَدْ أَرَمْت - أَيْ بَلِيت - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ»(١). [١].

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، [٢].

الشرح:

[١] وهذا تعليل آخر، التعليل الأول: أنه يبلغ الصلاة والسلام عليه، والتعليل الآخر أنه ﷺ لا تأكله الأرض كما تأكل أجساد الناس، أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض، هذه ميزة لهم عن غيرهم.

[٢] الله ذكر عن قوم نوح أنه لما نهاهم عليه السلام عن عبادة الصالحين، وأمرهم بعبادة الله وحده، تواصوا، وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، ما هذه الآلهة؟ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا، صوروا صورهم، ونصبوها، فزين لهم الشيطان عبادتها، فعبدوها، فهذا فيه أن الغلو في القبور قديم، وأن

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٠٨٥).

الغلو في الصالحين قديم من عهد قوم نوح، والشيطان يدعو إليه، فيجب الحذر من هذا، وقالوا مثل هذا للرسول ﷺ، لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥-٦]، لا تتركوها، اصبروا عليها، لا يضلكم هذا الرجل، اصبروا على آلهتكم، (آلهة) اعترفوا أنها آلهة، وهل هناك آلهة؟ الإله واحد ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، هم يقولون: لا، هناك آلهة كثيرة. ولما قال لهم أيضا قولوا: لا إله إلا الله. قالوا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، هذه دعوة المرسلين جميعا؛ أنهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلم يأت محمد ﷺ ببدع، وإنما هو كإخوانه النبيين، كلهم ينهون عن دعاء غير الله ﷻ من أولهم إلى آخرهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء: ٣٦].

فَكَانَ هَذَا مَبْدَأَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ(١). [١] فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ لِيَسُدَّ بَابَ الشِّرْكِ، [٢].

الشرح:

[١] يعني من قوم نوح، (مبدأ) أول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح، وإلا كانوا في الأول صالحين، وعلى التوحيد من عهد آدم، إلى أن صوروا الصور، ونصبوها، فحينئذ حدث الشرك بسبب هذه الصور، فدل على أن نصب الصور والغلو في الأموات يفضي إلى الشرك.

[٢] مساجد يعني: مصليات، وإذا بني عليها، فالأمر أشد، لكن حتى لو لم يبن عليها، فالذي يذهب إلى القبور، ويصلي عندها، اتخذها مساجد، ولو ما بُني عليها مساجد.

فالذي يذهب إلى القبور، ويدعو عندها، هذا يدعو الله ﷻ، لكن دعاءه في هذا المكان فيه تشبه بالذين يدعون القبور، وإن كان لا يدعو إلا الله، لكن لما تشبه بهم، خشي أن يفعل مثل فعلهم، فهذا فيه سد الوسائل المفضية إلى

---

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «صَارَتْ الْأَوْثَانُ التي كانت في قَوْمِ نُوحٍ في الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كانت لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كانت لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سبأ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ من قَوْمِ نُوحٍ، فلما هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمْ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ». وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٨، ٩٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧)، وفتح الباري (٨/ ٦٦٩).

الشرك؛ كما أنه نهى ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها، مع أن المصلي يصلي لله، لكن لما كان المشركون يعبدون الشمس؛ عند غروبها يسجدون لها، وعند بزوغها يسجدون لها، فالمسلم لا يتشبه بهم، وإن كان لا يصلي إلا لله، فهذا من سد الذريعة المفضية إلى الشرك. ولا يزال من المشركين من يسجد للشمس عند غروبها إلى الآن، طوائف من المشركين يسجدون للشمس عند طلوعها وعند غروبها، فالشر لم ينقطع. في وقت قريب جاؤوا بقناة من القنوات بطائفة يسجدون للشمس، يصورونهم وهم يسجدون للشمس عند غروبها، وعند طلوعها، الشر لم ينقطع، نسأل الله العافية!

كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَوَقْتَ غُرُوبِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ، وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَقْتَ الطُّلُوعِ وَوَقْتَ الْغُرُوبِ، فَتَكُونُ فِي الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ مُشَابَهَةٌ لِصَلَاةِ الْمُشْرِكِينَ، [١] فَسَدَّ هَذَا الْبَابَ. [٢] وَالشَّيْطَانُ يُضِلُّ بَنِي آدَمَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَمَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَدَعَاهَا - كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ - فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يُخَاطِبُهُ وَيُحَدِّثُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ. [٣].

الشرح:

[١] تخرج بين قرني شيطان، هذا أيضًا سبب آخر للنهي ؛ أن الشيطان يخرج معها، فلذلك نهي ؛ لئلا يكون السجود تشبهًا بالذين يسجدون للشيطان؛ لأن هناك من يعبدون الشيطان.

[٢] انظروا إلى أن الرسول ﷺ سد الباب من جهة المكان ؛ فلا يصلى عند القبر، وسد الباب من جهة الزمان ؛ فلا يصلى عند طلوع الشمس وعند غروبها ؛ خشية أن يتشبه بعباد الشمس.

[٣] ويظن أنه الكوكب الذي يسجد له، أو الشمس وهو شيطان.

وَالشَّيْطَانُ وَإِنْ أَعَانَ الْإِنْسَانَ عَلَى بَعْضِ مَقَاصِدِهِ، فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ أَضْعَافَ مَا يَنْفَعُهُ، [١] وَعَاقِبَةُ مَنْ أَطَاعَهُ إِلَى شَرٍّ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. [٢] وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ، [٣].

الشرح:

[١] الشيطان قد ينفع الإنسان في بعض مقاصده، لكن المضرة أكثر، وهي: ضياع الدين، والشرك بالله ﷻ، فإذا كان الشيء فيه مصلحة قليلة، وفيه مفاسد كثيرة، فإنه يحرم، ولا ينظر إلى ما فيه من المصلحة القليلة.

[٢] من أطاع الشيطان، فلا شك أنه خاسر، وأن عاقبته إلى شر إلا أن يتوب، والشيطان لا يقف عند حد، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] الشيطان يتدرج بالإنسان شيئا فشيئا، حتى يوصله إلى النهاية في الكفر والإلحاد، يطمع منه في أول شيء باليسير؛ ليؤسس معه، ثم ينتقل معه شيئا فشيئا حتى النهاية بالكفر.

[٣] هذا سبق أنه ما يحتج بحصول المقصود والحاجة، أما إذا كانت الوسيلة والعمل شرك، لا يحتج بحصول الحاجة وحصول المقصود، فإن الشيطان أيضا يأتي إلى عباد القبور، ويخرج عليهم بصورة الميت، ويخاطبهم، ومن يعبد الصنم، يأتي ويدخل في الصنم، ويخاطبه، وهو يظن أنه الصنم، وهو الشيطان، وهكذا، الشيطان عنده مقدرة لا يراها الإنس، ولا يقدر عليها؛ فيغر بني آدم.

وَكَذَلِكَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِمَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا الْمَيِّتَ أَوْ دَعَا بِهِ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ. [١] وَيَرْوُونَ حَدِيثًا هُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ: «إِذَا أَعْيَتْكُمْ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»(١). [٢].

الشرح:

[١] فإن الشيطان يتمثل له، ويخاطبه، ويظن أن هذا هو الميت خرج إليه، وقضى حاجته، وهو الشيطان؛ لأن الميت لا يخرج من قبره، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا، إنما هذا هو الشيطان يخرج له.

[٢] سبحان الله! هل هذا حديث عن الرسول ﷺ الذي ينهى عن الشرك، ويسد كل الوسائل المفضية إليه؟! هل يهدم هذا كله بهذا الكلام، فيقول: إذا أعيتكم الأمور - يعني: إذا أعجزتكم الأمور -، فعليكم - هذا حث - عليكم بأصحاب القبور؟! هذا يصدر من نبي؟! لا يصدر هذا من عالم محقق، بل لا يصدر هذا من عامي مسلم، فكيف يصدر من نبي؟! كيف يصدر من خاتم النبيين ﷺ؟! فهذا علامات الوضع عليه ظاهرة على متنه، وسنده موضوع أيضا، فهو موضوع متنا وسندا، ومخالف للقرآن والسنة، ولكن يتمسك به من يتمسك.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان (١/ ٢١٥): «هذه أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأوثان».

وَإِنَّمَا هَذَا وَضْعُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الشِّرْكِ. [١].

وَيُوجَدُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالنَّصَارَى وَالضُّلَّالِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَحْوَالٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ [٢] يَظُنُّونَهَا كَرَامَاتٍ وَهِيَ مِنْ الشَّيَاطِينِ، مِثْلُ: أَنْ يَضَعُوا سَرَاوِيلَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَيَجِدُونَهُ قَدْ انْعَقَدَ، [٣].

الشرح:

[١] هذا من وضع من فتح باب الشرك للناس، فليس حديثا عن الرسول ﷺ، ولا يصدق مسلم عامي - فضلا عن العلماء - أن هذا حديث عن الرسول ﷺ، الذي مكث ثلاثا وعشرين سنة ينهى عن الشرك، ويأمر بتوحيد الله، يأتي بهذا الحديث الذي يهدم كل دعوته! حاشا، وكلا.

[٢] يعني: عند القبور، هي تسمى مشاهد، ولا تسمى مساجد.

[٣] يضعون عند القبر سراويل مفتوحًا، فيجدونه قد انعقد، من الذي عقده؟ هل السروال عقد نفسه؟ لا، هذا شيطان عقده؛ ليغرهم.

أَوْ يُوضَعُ عِنْدَهُ مَصْرُوعٌ فَيَرَوْنَ شَيْطَانَهُ قَدْ فَارَقَهُ. [١].

يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ هَذَا لِيُضِلَّهُمْ، وَإِذْ قَرَأْت آيَةَ الْكُرْسِيِّ هُنَاكَ بِصِدْقٍ بَطَلَ هَذَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ؛ [٢] وَلِهَذَا حُمِلَ بَعْضُهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَسَقَطَ. وَمِثْلُ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، فَيَظُنُّهُ الْمَيِّتُ وَهُوَ شَيْطَانٌ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ. [٣].

الشرح:

[١] أو يأتون بالمصروع إلى القبر، فيرون شيطانه قد فارقه، ويقولون: هذا ببركة الولي. وهو شيطان تركه، وكان ملابسا له، ثم تركه؛ لأجل أن يغرهم -والعياذ بالله-.

[٢] هذا من علامات بطلان خوارق الشياطين؛ أنها إذا قرئ القرآن، بطلت، وتعطلت، فإذا قرأت آية الكرسي، بطلت هذه الخرافات والخوارق الشيطانية، هذا من علامة أنها ليست كرامات.

[٣] حمله شيطان، فعلى فطرته قال: لا إله إلا الله. فسقط على الأرض، وهرب الشيطان، وانطرد. والشيخ رحمه الله وضح غاية الإيضاح، ولكن يعتذر بضيق الموضع، وإلا عنده أكثر من هذا.

وَلَمَّا كَانَ الِانْقِطَاعُ إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْبَوَادِي مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ صَارَتْ الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا تَأْوِي إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْجِبَالِ، [١].

الشرح:

[١] المطلوب من المسلم أن يكون صادقا في سره وعلانيته، واضحا لا يضمر غير ما يتكلم به، والإسلام - ولله الحمد - دين ظاهر، ليس سريًّا، أو منظمة سرية؛ كما يسمون المنظمات السرية، بل الإسلام علانية؛ كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، دين ظاهر في نفسه، وظاهر على غيره من الأديان منتصر عليها، ليس فيه خفاء أو أسرار، إنما هو ظاهر للعيان، فالذين يتنحون، ويعتزلون المسلمين، يعتزلون مجالس العلماء في المساجد أو في دور العلم، وينزوون إلى المغارات والكهوف والاستراحات، وما أشبه ذلك، هؤلاء عندهم شيء مكتوم، لا يحبون أن يظهر أحد عليه، وهذا ليس من الإسلام، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة)[١] يتناجون في شيء من أمور الدين، أمور الدين واضحة، ما فيها خفاء، إنما تكون السرية في الأمور غير الصحيحة، التي يتكتم عليها، أما الإسلام - ولله الحمد -، فهو علانية، وظاهر على رؤوس الأشهاد، ينادى به على رؤوس الأشهاد في

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٣٥)، وتلبيس إبليس (١/ ٨١).

المآذن، على رؤوس المآذن، وينادى به في الدروس العلمية عند العلماء، ينادى به في دور العلم المعروفة، ليس فيه شيء سري، لا يعطى إلا لأناس خاصين؛ كما عند الفرق الضالة، كما عند الدروز وغيرهم في الخلوات، والأسرار التي يخفونها حتى عن أولادهم وتلاميذهم، فدين الإسلام علانية، ظاهر واضح، فإذا رأيت من ينتحون عن مجالس العلم، وعن حضور المساجد، حتى الجمع والجماعات لا يصلون مع المسلمين - من يتبنى هذا الفكر ينعزل عن المسلمين، ولا يصلي لا جمع ولا جماعات -، فهذا واضح أنه مكر من الشيطان، أو تكون لهم سراديب وخلوات يختفون فيها، هذا ليس دين الإسلام، دين الإسلام للجميع، ويعلن للجميع، ولهذا لما اعتزل واصل بن عطاء الغزال وأتباعه عن مجلس الحسن البصري، ماذا نتج عن هذا؟ نتج عن هذا مذهب المعتزلة الضال المنحرف، الذي لا يزال المسلمون يعانون منه، فدين الإسلام دين الجماعة، ودين المحبة في القلوب، دين التعاون على البر والتقوى، فمن صفات المنحرفين أنهم يختفون، ويبيتون أشياء، يبيتون أشياء للمسلمين، ولو كانوا صرحاء، لبرزوا مع الناس، فهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فدين الصوفية هو من هذا النوع، فلهم خلوات، ولهم أمكنة يختفون فيها، ويلقن بعضهم بعضا دين التصوف، ومنهم من يعتزل أربعين يوما، ثم يخرج على الناس، وقد انفتح عليه باب معرفة وباب فهم، وهذا كله من الشيطان، فالشياطين تحضر الأمكنة الخالية، فالشياطين لا تحضر في المساجد، ولا تحضر دروس العلم، إنما تحضر في المغارات

والكهوف والأشياء الخفية؛ حتى يلقنوا هؤلاء المغرورين هذه الأسرار الخبيثة، فإذا رأيت قوما ينعزلون، ويخرجون من البلد، ويجتمعون في مكان فاعلم أن عندهم أمورا باطنة خبيثة، لو كان عندهم خير، ما أخفوه، كانوا أعلنوه في المساجد وفي الدروس، فكونهم ينعزلون، فهذا دليل أن عندهم شرا، لا يحبون أن أحدا يطلع عليه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨]، فهذا شيء مسبوقون إليه، يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله، إذا صاروا في غار، أو في كهف، أو في استراحة، أو في مكان خال، الناس لا يعلمون عنهم، فإن الله يعلم ما هم عليه، ويعلم ما يبيتون من القول، وسييسر للمسلمين القضاء عليهم؛ كما هو معروف في التاريخ من القضاء على هذه الفرق الضالة.

مِثْلِ: مَغَارَةِ الدَّمِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون، وَجَبَلِ لُبْنَانَ الَّذِي بِسَاحِلِ الشَّامِ، وَجَبَلِ الْفَتْحِ بِأَسْوَانَ بِمِصْرِ، وَجِبَالٍ بِالرُّومِ وَخُرَاسَانَ، وَجِبَالٍ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَبَلِ اللُّكَام، وَجَبَلِ الأحيش، وَجَبَلِ سولان قُرْبَ أردبيل، وَجَبَلِ شُهْنَك عِنْدَ تَبْرِيزَ، وَجَبَلِ ماشكو عِنْدَ أَقْشَوَان، وَجَبَلِ نَهَاوَنْدَ، [١] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجِبَالِ الَّتِي يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بِهَا رِجَالًا مِنْ الصَّالِحِينَ [٢].

الشرح:

[١] يبحثون عن الكهوف والجبال يختفون فيها؛ من أجل أن يدبروا أمرهم ضد المسلمين، وينفثوا سمومهم التي في صدورهم، ومنهم شيخهم في هذه المغارات الشيطان، شيخهم الشيطان سول لهم وأملى لهم، نسأل الله العافية!

[٢] وهذه المشكلة أنهم يظنون أن بها رجالًا من الصالحين، من رجال الغيب، الذين يسمونهم: رجال الغيب، وهم شياطين، يمكن أن يتصوروا لهم، ويأتوهم في صورة رجال، ويجلسوا معهم، ثم يلقنوهم هذه الأفكار الخبيثة؛ لأن الشيطان إذا انقطع الإنسان عن إخوانه المسلمين، تسلط عليهم، ولهذا حث النبي ﷺ على الجماعة، ونهى عن الانفراد، وقال: «إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»[1]، وإن الشيطان ذئب الإنسان،

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٣٣٠)، والسخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٣٧٧)، وأخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧) بنحوه.

فالمسلم يكون مع المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ولذلك شرع الله لنا الاجتماعات في العبادة؛ الصلوات الخمس، في الجمعة، في الأعياد، في عرفة، اجتماعات يجتمع فيها المسلمون، ليس كل واحد يذهب لجبل أو لغار، ويقول: أنا أعبد الله. لما سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَجُلٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ، لَا يَشْهَدُ جُمْعَةً وَلَا جَمَاعَةً؟ فَقَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ»(١). وأنتم تسمعون في كل خطبة: «وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ»، هذا حديث، هذا نص حديث: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ»(٢)، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٦٦)، وأصله عند النسائي(٤٠٢١) بلفظ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ...».

مِنْ الْإِنْسِ وَيُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، [١] وَإِنَّمَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ الْجِنِّ، فَالْجِنُّ رِجَالٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ رِجَالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]. [٢].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظْهَرُ بِصُورَةِ رَجُلٍ شعراني، جِلْدُهُ يُشْبِهُ جِلْدَ الْمَاعِزِ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ إِنْسِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ جِنِّيٌّ، [٣].

الشرح:

[١] رجال الغيب، وهم شياطين. رحمه الله ما أوسع اطلاعه! وما أعظم نصحه للمسلمين!

[٢] كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، الجن لهم رجال، يظهرون في صورة رجال.

[٣] وشيطان الإنس أخطر على المسلمين من شيطان الجن، يقولون: شيطان الإنس. الإنس لهم شياطين؛ قال ﷻ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فأخبر أن للإنس شياطين، وهم أخطر من شياطين الجن؛ لأن الشيطان الجني إذا ذكرت الله، فر، أما شيطان الإنس، إذا ذكرت الله مرة، ذكره مائة مرة، وهو على ما هو عليه من الضلال، ولا يذهب، فهو أخطر على الناس منه، الضالون من الإنس أشد من شياطين الجن. هل الإنسي يكون في لون الماعز، وفي صورة الماعز؟ هذا شيطان.

وَيُقَالُ: بِكُلِّ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ الْأَرْبَعُونَ الْأَبْدَالُ، [١] وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ الْأَبْدَالُ هُمْ جِنٌّ بِهَذِهِ الْجِبَالِ، [٢] كَمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَهَذَا بَابٌ لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِبَسْطِهِ وَذِكْرِ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ، [٣] الَّذِي كُتِبَ لِمَنْ سَأَلَ أَنْ نَذْكُرَ لَهُ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُعْرَفُ بِهِ جُمَلُ ذَلِكَ. [٤].

الشرح:

[١] والأبدال ليسوا هؤلاء، ورد فيهم أثر، الأبدال سموا أبدالا؛ لأنهم يخلف بعضهم بعضا، وهم رجال صالحون، وقليلون في القرون - إن صح فيهم الأثر -، وهم ليسوا هؤلاء الجن، هؤلاء صالحون، علماء.

[٢] وليسوا الأبدال.

[٣] يكفينا ما ذكرت.

[٤] اطلاع الشيخ شيء عجيب، وإحاطته بالأخبار والأشياء، فتح الله عليه فتحا عظيما، وهذا ببركة العلم والعمل، والعلم النافع والعمل الصالح، والدعوة إلى الله. وهذا المؤلف كله جواب لمسألة واحدة: سئل عن الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وما كتبه على أنه مؤلف، كتبه على أنه جواب لسؤال.

وَالنَّاسُ فِي خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: [١].

قِسْمٌ يُكَذِّبُ بِوُجُودِ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرُبَّمَا صَدَّقَ بِهِ مُجْمَلًا وَكَذَّبَ مَا يُذْكَرُ لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِكَوْنِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ. [٢].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَوْعٌ مِنْ خَرْقِ الْعَادَةِ كَانَ وليًّا لِلَّهِ. وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خَطَأٌ؛ [٣].

الشرح:

[١] كما سبق بيانه: أناس غلوا في نفيها كالمعتزلة، ينكرونها، ينكرون خوارق العادات، يسمون الآن: العقلانيين، ينكرون المعجزات، وينكرون الكرامات، يقولون: ليس هناك كرامات، وأناس غلوا في إثباتها، حتى عدوا خوارق الشيطان من الكرامات. هؤلاء غلوا في الإثبات، والوسط هم الذين أثبتوا الكرامات، أثبتوا المعجزات والكرامات على ضوء الكتاب والسنة، ونفوا ما عداها، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة.

[٢] بل العقلانيون أنكروا حتى معجزات الأنبياء، العقلانيون المعاصرون أنكروا حتى معجزات الأنبياء، لكن المعتزلة الذين هم سلفهم أثبتوا معجزات الأنبياء، وأنكروا كرامات الأولياء، يقولون: لئلا تشتبه كرامة الولي بمعجزة النبي.

[٣] هذا الذي غلا في الإثبات لم يفرق بين الكرامة وخارق الشيطان. والذي غلا في النفي، والذي غلا في الإثبات كلاهما مخطئ.

وَلِهَذَا تَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ نُصَرَاءَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. [١].

وَأُولَئِكَ يُكَذِّبُونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَنْ لَهُ خَرْقُ عَادَةٍ. [٢].

الشرح:

[١] أثبتوا الكرامات، حتى للكفار من اليهود والنصارى؛ لأن عندهم خارق العادة كرامة مطلقا، لا يفرقون بين الكرامة، وبين خارق الشيطان.

[٢] أولئك الذين ينفون. والشيطان حضر مع الكفار في بدر؛ كما ذكر الله، حضر مع الكفار في بدر يحرضهم على المسلمين، يقول: إني جار لكم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، فلما رأى الملائكة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، هرب مدبرا، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فهو يحضر معهم، لكن إذا رأى قوة المسلمين، ورأى ذكر الله، ورأى الملائكة، انهزم.

وَالصَّوَابُ: الْقَوْلُ الثَّالِثُ، وَهُوَ: أَنَّ مَعَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ﷻ؛ [١] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: ٥١][٢].

وَهَؤُلَاءِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّة. [٣].

الشرح:

[١] معهم من ينصرهم من جنسهم من الكفار، والشياطين، كما حضر في بدر.

[٢] الشاهد في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [المائدة: ٥١]، فالذي يحضر معهم إنما هو من جنسهم من الكفار، وليس من المسلمين.

[٣] العبادة إذا كانت على غير الشريعة، فهي عبادة باطلة، هناك عباد، النصارى عباد ورهبان، يبكون، وينقطعون عن الدنيا، ويخلون في الصوامع، ويبكون بكاء شديدا، وهم في النار؛ لأنهم على غير شريعة الله ﷻ، العبادة إذا كانت ليست على طريق صحيح، فهي باطلة، وتعب بلا فائدة، والزهد يزهدون أيضا، عندهم زهد في الدنيا، زهاد من الهند وغيرها، يزهدون في الدنيا، ليس الزهد قاصرًا على المسلمين، الكفار فيهم زهاد، لكن على غير طريق صحيح، زهد على غير طريق صحيح، وإلا مثلا غاندي رئيس الهند، والذي خلصها من الإنجليز، هذا زاهد،

وتارك للدنيا ، ويتغذى من حليب عنز معه، يذهب بها إلى المؤتمرات من الزهد، لكنه زنديق وكافر. فالزهد منه زهد صحيح شرعي، ومنه زهد كذب.

تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ، فَيَكُونُ لِأَحَدِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ؛ [١] لَكِنَّ خَوَارِقَ هَؤُلَاءِ يُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا حَصَلَ مَنْ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ، [٢] وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا، وَمِنْ الْإِثْم مَا يُنَاسِبُ حَالَ الشَّيَاطِينِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهِمْ؛ لِيُفَرِّقَ اللَّهُ بِذَلِكَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ. [٣].

الشرح:

[١] فرق بين الكرامات التي هي من الله، وبين خوارق الشيطان التي تجري على يد الفاسق والمنحرف والكافر، هذه خوارق شيطانية. كرامات الأولياء لا تتعارض؛ لأنها من عند الله، وأما خوارق الشياطين، فهي تتعارض؛ لأنها باطل، والباطل لا يتفق، بل يختلف.

[٢] وتبطل عند ذكر الله ﷻ، خوارق الشيطان تبطل عند ذكر الله، كرامات الأولياء تزيد مع ذكر الله ﷻ، وتقوى.

[٣] لما ناظر شيخ الإسلام البطاحية -الذين هم الرفاعية-، قالوا: نحن ندخل النار، ولا تضرنا، فقال لهم: أنا أدخل معكم النار بشرط أننا نغسل أرجلنا، هم كانوا يضعون على أرجلهم أشياء مضادة للنار، ويمرون عليها، ويقولون: دخلنا فيها؛ لأنهم وضعوا على أرجلهم واقيا، قال: أنا أدخل معكم النار، لكن نغسل أرجلنا بكذا وكذا قبل الدخول، فلما قال ذلك، أبوا؛ لأنه عرف مكرهم وحيلهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وَالْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْأَثِيمُ: الْفَاجِرُ. [١].

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُقَوِّي الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ سَمَاعُ الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ، [٢].

الشرح:

[١] لأنهم قالوا: إن القرآن إنما هو سحر، تنزلت به الشياطين على محمد. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢]، إلى أن قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، الشياطين ما تتنزل على أولياء الله، إنما تتنزل على أعداء الله؛ لتفتنهم.

[٢] هذا فرق آخر بين خوارق الشيطان وكرامات الرحمن: كرامات الرحمن تقوى مع ذكر الله ﷻ، وخوارق الشيطان تقوى مع المعاصي، مع الغناء والدفوف؛ لذلك يحضرون الدفوف، ويقولون: نحن أولياء، ويحضرون الدفوف والمغنيين، ويغنون، ويضربون الدفوف، ويسمون هذا ذكرًا لله، وهو ذكر للشيطان. هذا لهو وباطل، فخوارقهم تنشط مع المعاصي والدفوف والمزامير، والأغاني الماجنة، أما كرامات الأولياء، فإنما تزيد بذكر الله ﷻ، وبطاعة الله، هذا فرق.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَر رضي الله عنهما وَغَيْرُهُمَا مِنْ السَّلَفِ: التَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيقُ بِالْيَدِ، وَالْمُكَاءُ: مِثْلُ الصَّفِيرِ(١). فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ هَذَا عِبَادَةً. [١].

الشرح:

[١] سماع المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الكعبة ﴿مُكَآءً﴾، وهو الصفير، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، وهو التصفيق، يصفرون ويصفقون، ومن العجائب أنه في المباريات تسمع التصفيق والصفير، أما تسمعون هذا؟ سبحان الله! تسمع عندهم تصفيق وصفير، هذا من أين ورثوه؟ ورثوه من المشركين. فيتخذون التصفيق والصفير عبادة، وهو معصية.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَعِبَادَتُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالِاجْتِمَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَى اسْتِمَاعِ غِنَاءٍ قَطُّ، لَا بِكَفٍّ وَلَا بِدُفٍّ وَلَا تَوَاجُدٍ وَلَا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ، [١] بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ(١) [٢].

الشرح:

[١] ما اجتمع النبي ﷺ ولا أصحابه على الأغاني والدفوف، وإنما يجتمعون على تلاوة القرآن، على ذكر الله، وعلى دروس العلم. هذا الذي يجتمعون عليه، أما أولئك، فيجتمعون على المكاء والتصدية، والطبول، والمزامير، والأغاني التي تفسد القلوب، وتلهي عن ذكر الله ﷻ.

[٢] يكذبون على الرسول ﷺ، ويقولون: إنه حضر مجلس صوفية، وسمع الغناء:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي ... فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

يقولون: لما سمع الرسول هذا البيت، تمايل، حتى سقطت بردته. وهذا من الكذب على رسول الله ﷺ. الحمد لله أن الله قيّض لأحاديث الرسول الحفاظ المتقنين الذين نقدوها، وأخرجوا صحيحها من ضعيفها، من موضوعها، وميزوها؛ فلم يتمكن هؤلاء من الدس على رسول الله ﷺ،

---

(١) سبق بيان كذب هذه الحكاية (١/ ١٢٩).

وهذا مصداق لقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فلا يتمكن ملحد أو منافق أن يكذب على رسول الله ﷺ؛ لوجود هؤلاء الحفاظ.

وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمِعُونَ، [١] وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: ذَكِّرْنَا رَبَّنَا. فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ(١)، [٢].

الشرح:

[١] اجتمعوا على كتاب الله، ويقولون: هذا ذكر لله.

[٢] كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه له صوت حسن في القرآن، وكان النبي ﷺ يستمع إليه، وهو يصلي بالليل، ويتلذذ بصوته رضي الله عنه، وكان عمر رضي الله عنه إذا اجتمعوا، أمره أن يقرأ، وهم يستمعون، يتلذذون بالقرآن، ما يتلذذون بالمكاء والتصدية والدفوف والأغاني.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٩٦)، والدارمي (٢/ ٥٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٦).

وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ، [١] فَقَالَ لَهُ: «مَرَرْت بِك الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَجَعَلْت أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ» فَقَالَ: لَوْ عَلِمْت أَنَّك تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْته لَك تَحْبِيرًا(١). [٢] أَيْ: لَحَسَّنْته لَك تَحْسِينًا. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٢)، [٣].

الشرح:

[١] يعني: في الليل يصلي.

[٢] يعني: لو علم أن الرسول يستمع إليه، لزين صوته أكثر مما سمعه الرسول ﷺ؛ لأن الله أعطاه حسن الصوت.

[٣] ولذلك يستحب لقارئ القرآن أن يزينه بصوته، ولا يهذه هذَّ الشعر، أو ينثره نثر الدَّقل(٣)، وإنما يزينه بصوته، ويؤديه أداء حسنا؛ حتى يؤثر في نفسه، ويؤثر على السامعين، لكن لا يبالغ بما يسمونه التجويد الآن: يمطون القرآن، ويشتدون في الغنة ومخارج الحروف، حتى يولدوا حروفا زائدة، ويمللوا السامع، ويثقلون على المصلين بهذه التلاوة المتكلفة، القرآن إذا جاء عن اعتدال، أثَّرَ، وإذا جاء عن تكلف، فإنه لا يؤثر.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٩٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٢)، وأصله في البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢).

(٣) أخرج البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٠) قول ابن مسعود ﷺ: «لا تهذوا القرآن هذا الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»، والدقل هو: الرديء اليابس من التمر. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٤٦).

وَقَالَ ﷺ: «لَلَّهُ أَشْهَدُ أُذُنًا -أَيْ اسْتِمَاعًا- إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»(١)، [١].

الشرح:

[١] الأذن يطلق على السماع؛ كما قال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]؛ يعني: يستمع للوشاة، يصفون الرسول ﷺ بأنه يستمع للوشاة - قبحهم الله -(٢)، أذن يعني: يسمع. الله ﷻ يحب من عبده أن يتغنى بالقرآن، قال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»(٣)؛ يعني: يحسن صوته. المراد بالتغني: تحسين الصوت، لا أنه يجعله على شكل الأغاني والتمطيط، بل يتغنى يعني: يحسن صوته بالقرآن؛ لأنه يقرأ كلام الله، لا يقرأ كلام مخلوق، بل يقرأ كلام الله، فيستعد لإلقائه على أحسن ما يستطيع.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وأحمد (٦/ ١٩).
(٢) انظر: الطبري (٦/ ٤٠٥)، والقرطبي (٨/ ١٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَقَالَ ﷺ لِابْنِ مَسْعُودٍ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ»، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْت عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى انْتَهَيْت إلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُك»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنْ الْبُكَاءِ(١). [١].

الشرح:

[١] وممن استمع إليهم النبي ﷺ، وتشرفوا بسماع النبي منهم ابن مسعود رضي الله عنه، وكان متقنا لقراءة القرآن، فطلب منه الرسول ﷺ أن يقرأ عليه، قال: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فدل هذا على فضل استماع القرآن، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فدل هذا على فضل الاستماع للقرآن.

هذا دليل على أن الرسول وأصحابه إنما يتلذذون بالقرآن، لا بالأغاني والدفوف والمزامير، يتلذذون بالقرآن، وذكر الله ﷻ.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

وَمِثْلُ هَذَا السَّمَاعِ هُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨]. [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الأنبياء في سورة مريم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾، التوراة والإنجيل والقرآن والزبور كتب منزلة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، فيتأثرون بها، ويسجدون لله ﷻ عند سماعها. وقال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن، سجدوا، المراد بأهل الكتاب: المؤمنون منهم، المؤمنون من أهل الكتاب: كالنجاشي وغيره.

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. [١].

وَمَدَحَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ هَذَا السَّمَاعِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَاقْشِعْرَارِ الْجِلْدِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣] هذا في المؤمنين منهم ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤].

[٢] ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، القرآن يطلق عليه أنه كله متشابه؛ يعني: يشبه بعضه بعضا في الحسن، ويطلق عليه كله أنه محكم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]؛ يعني: أتقنت، بمعنى الإتقان، ويطلق عليه أن بعضه محكم، وبعضه متشابه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] [١]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. [٢].

الشرح:

[١] مثاني يعني: تكرر آياته، تكرر أخباره وقصصه؛ لأجل التأثير على القارئ والسامع، تجدون مواعظ القرآن وأخبار القرآن مكررة، هذه المثاني. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فهو يلين القلوب، ويلين الجلود ذكر الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

[٢] الشاهد من هذه الآيات كلها أن سماع المؤمنين هو القرآن، وليس الأغاني والألحان التي عند الصوفية، والكفار، والمشركين، هؤلاء سماعهم الأغاني، والدفوف، والمزامير، وأما المؤمنون، فسماعهم الذي يتلذذون به، وتلين به قلوبهم، وتقشعر جلودهم من مواعظه هو: القرآن الكريم، فرق بين هذا وهذا، ولذلك تجد المفتون إذا سمع القرآن، أغلق المذياع، وإذا سمع الأغاني، انبسط وفرح، وتجده لا يصبر على القرآن ولا دقيقة أو دقيقتين، أما الأغاني، يمكن أن يقضي كل ليله ونهاره

مع الأغاني والمزامير، بل إن بعضهم يترك عمله، أو يترك الصلاة، ويذهب إلى أغنية فلانة؛ لأنه جاء موعدها في البرنامج، فيذهب ويحضرها؛ لئلا تفوته؛ لأن قلبه مربوط بها - والعياذ بالله -.

وَأَمَّا السَّمَاعُ الْمُحْدَثُ - سَمَاعُ الْكَفِّ وَالدُّفِّ وَالْقَصَبِ - فَلَمْ تَكُنْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ يَجْعَلُونَ هَذَا طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، [١] وَلَا يَعُدُّونَهُ مِنْ الْقُرَبِ وَالطَّاعَاتِ؛ [٢].

الشرح:

[١] لا يجعلون الأغاني والدفوف والمزامير طريقا إلى الله، وإلى تليين القلوب، بالعكس الغناء والمزامير والدفوف تقسي القلوب، وتزرع النفاق في القلوب، وتزرع الشهوة والعشق في القلوب، بخلاف القرآن؛ فإنه يزرع الخشية والخوف والطمع فيما عند الله، والخوف مما أعد الله للكافرين.

[٢] كما يعده هؤلاء؛ لأن الصوفية يعدون الأغاني والدفوف من الطاعات، فلذلك يأتون بها إلى المساجد، ويقيمونها في المساجد، بدل القرآن.

بَلْ يَعُدُّونَهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ، حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ: خَلَّفْت بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ الْقُرْآنِ(١) [١].

الشرح:

[١] والتغبير هو: الأغاني، والمزامير، والدفوف. يقول الشافعي: أحدثوه في بغداد، ما كان معروفا عند السلف وأهل العلم.

---

(١) انظر: هذا الأثر في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٩١) في ترجمة الشافعي رحمه الله.
وفي لسان العرب (٥/ ٥) قال الأزهري: «وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيرًا، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طربوا، فرقصوا، وأرهجوا، فسموا مغبرة لهذا المعنى». قال الأزهري: وروي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا عن ذكر الله، وقراءة القرآن وقال الزجاج: سموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الفانية وهي الدنيا وترغيبهم في الآخرة الباقية.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٦): «التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الانسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الانسان إما التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وإما الضرب بقضيب على فخذ، وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف، أو طبل كناقوس النصارى، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهى على وجه الديانة والتقرب، فلا ريب فى ضلالته وجهالته».

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَارِفُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا وَافِرًا؛ وَلِهَذَا تَابَ مِنْهُ خِيَارُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ. [١].

وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْ الْمَعْرِفَةِ وَعَنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ كَانَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَمْرِ يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْخَمْرِ، [٢] وَلِهَذَا إِذَا قَوِيَتْ سَكْرَةُ أَهْلِهِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ، [٣] وَتَكَلَّمَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِهِمْ، وَحَمَلَتْ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، [٤].

الشرح:

[١] يعرفون الفرق بين سماع المؤمنين وسماع المنافقين والكفار.

[٢] يعلمون أن سماع المنافقين والكفار والفسقة هو من الشيطان، هو الذي زينه، وهو الذي يحضره، وهو الذي يحثهم عليه.

[٣] الأغاني تؤثر في النفوس تأثيرا أشد من الخمر؛ لأن سكران الخمر يفيق، أما سكران الأغاني والهوى، هذا لا يفيق(١):

قَالُوا جُنِنْت بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْت ... لَهُمْ الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

سكران الأغاني والهوى لا يفيق، وسكران الخمر يفيق فهو أشد.

[٤] إذا اشتد طربه، طار في الهواء، إذا اشتد طربه من الأغاني والدفوف، طار في الهواء، يطير من بين الحفل، ويقول: هذا كرامة. وهو من الشيطان.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٨٧).

وَقَدْ تَحْصُلُ عَدَاوَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا تَحْصُلُ بَيْنَ شُرَّابِ الْخَمْرِ، [١] فَتَكُونُ شَيَاطِينُ أَحَدِهِمْ أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ الآخَرِ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَظُنُّ الْجُهَّالُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، [٢] وَإِنَّمَا هَذَا مُبْعِدٌ لِصَاحِبِهِ عَنْ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّ قَتْلَ الْمُسْلِمِ لَا يَحِلُّ إِلَّا بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَتْلُ الْمَعْصُومِ مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ؟! [٣].

الشرح:

[١] تحصل من العشاق عداوة وغيرة من بعضهم على بعض؛ كما يحصل بين شراب الخمر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

[٢] ويظنون أن موته شهادة، وأنه مات من ذكر الله، يقولون: مات من ذكر الله. وهو مات من قتل الشيطان له.

[٣] الله ﷻ حرم قتل المسلم أشد التحريم؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، وفي الحديث: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[١]، هذه الثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

التي تبيح قتل المسلم: إذا زنا وهو محصن، إذا قتل نفسًا عدوانًا وظلمًا - يقتل قصاصًا -، إذا ارتد عن دينه، فإنه يقتل، ما عدا ذلك، فالأصل أن المسلم معصوم، ما معنى معصوم؟ يعني: محرم الدم، لا يجوز الاعتداء عليه. فكيف يظن أن ما يحصل على يد الشياطين من قتل بعض المسلمين أن هذا من كرامات الأولياء، وهو من أشد المحرمات؟! هل الكرامات تكون بالمحرمات والمعاصي، الكرامات إنما تحصل بالطاعات والاستقامة، واجتناب الحرام، ومن ذلك اجتناب قتل النفس التي حرم الله، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، والحق هو كما بينه الرسول ﷺ: الثيب الزاني، أو النفس بالنفس، أو التارك لدينه المفارق للجماعة. هذا هو الحق الذي يبيح قتل المسلم، وأما عدا ذلك، فالأصل عصمة دم المسلم.

وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، [١] فَلَمْ يُكْرِمْ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَزِيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ. [٢].

الشرح:

[١] غاية الكرامة التي تجري لأولياء الله لزوم الاستقامة على الحق والدين، ولا تحصل الكرامة بالخروج عن الدين إلى الكفر والمعاصي، وفعل المحرمات، لا تحصل الكرامة بذلك. وما يحصل بذلك، فليس كرامة، وإنما هو خوارق شيطانية، وأعمال شيطانية.

[٢] من علامة إكرام الله للعبد أن يوفقه لما يحبه ويرضاه من طاعة الله ورسوله، والاستقامة على الدين، هذا أعظم ما يكرم الله به العبد، فهو أعظم من الجاه والأموال والأولاد ومتاع الدنيا. فإن الله إذا من بالدين على عبد، فقد أكرمه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي الحديث «... **وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**»(١)، هذا هو غاية الكرامة، إكرام الله للعبد ليس في أن يعطيه المال، والولد، أو الجاه، والملك، وإنما إذا أعطاه الدين، فقد أكرمه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥]، كلا، فليس الإكرام بإعطاء هذه الأمور الدنيوية، أو المطامع الدنيوية، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٩٥)، وأحمد (١/ ٣٨٧) واللفظ له.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٦، ١٧]؛ يعني: ضيق عليه الرزق، فليست الكرامة والإهانة بأمور الدنيا، وإنما الكرامة والإهانة بأمور الآخرة، والعمل الصالح، وتقوى الله ﷻ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ كَالْمُكَاشَفَاتِ، [١].

الشرح:

[١] الخوارق منها ما يكون من جنس العلم: كالمكاشفات، والفراسة التي يعطيها الله لبعض عباده، هذا نوع من العلم يعطيه الله العبد، فيكون عنده قوة الفراسة، والاستنباط والاستدلال، هذا من كرامة الله ﷻ، وهو نوع من العلم. ولكن هذا العلم لا يحصل بالتعلم، إنما هو شيء يلقيه الله في العبد، وهو نتيجة لطاعة الله ورسوله، ومعرفة الله ﷻ، فيكون من الفرقان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فرقانًا تفرقون به، وتمييزًا تميزون به بين الحق والباطل، والضار والنافع، وبين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، هذا من أعظم أنواع العلم الفرقان الذي يجعله الله في قلب المؤمن بسبب تقوى الله، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ كَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، [١] وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْغِنَى عَنْ جِنْسِ مَا يُعْطَاهُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْغِنَى. [٢].

الشرح:

[١] وهذه مما لا يقدر عليه العبد، هذه إنما يجريها الله ﷻ على يد عبده، فهي من فعل الله، يجريها الله على يد عبده؛ يعني: يخرق له العادة؛ كأن يأتيه الرزق، وهو لم يسع إليه؛ كما حصل لمريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، يؤتى به إليها. هذا خارق للعادة، ومثل ما يجريه الله على يد بعض عباده المتقين من إجابة الدعوات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك. هذا لا يقدر عليه العبد، إنما هذا من صنع الله، ولكن سببه تقوى الله ﷻ، وهو من جنس الجزاء من الله ﷻ، فهو ليس من مقدور العبد.

[٢] ومن الخوارق: الغنى؛ أن يغني الله العبد بعلمه، وبماله، وبمقدرته، يغنيه الله عن غيره، هذا من أنواع الخوارق.

وَجَمِيعُ مَا يُؤْتِيه اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، ازْدَادَ بِذَلِكَ رِفْعَةً وَقُرْبًا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، [١] وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْبَةِ أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ وَإِلَّا كَانَ كَأَمْثَالِهِ مِنْ الْمُذْنِبِينَ؛ [٢].

الشرح:

[١] وهذا أيضًا من الفوارق بين الكرامات وخوارق الشيطان؛ أن الكرامة التي يجريها الله على يد عبده المؤمن يستعين بها على طاعة الله، وتقوي إيمانه ويقينه بالله ﷻ، بخلاف الخوارق الشيطانية، فإنها تعين العبد على الكفر، وعلى الشرك، وعلى المعاصي. الكرامات تعين العبد على الأعمال الصالحة، والخوارق الشيطانية تعين على الكفر، والشرك، وفعل الفواحش والمعاصي. أيضًا الكرامات تزيد صاحبها تواضعًا لله ﷻ وللخلق؛ فلا يترفع بها أن تجري على يده، لا يترفع بها ويعجب بنفسه، وإنما تزيده تواضعًا لله ﷻ، وتواضعًا مع الخلق، بخلاف الخوارق الشيطانية، فإنها تزيد الإنسان غلوًا وإعجابًا بنفسه وطغيانًا.

[٢] هذا من الفوارق بين الكرامات والخوارق الشيطانية. إذا اغتر بهذه الخارقة للعادة - اغتر بها: استعملها فيما يغضب الله ﷻ -، أهلكته،

صارت سببًا في هلاكه، إلا أن يتوب إلى الله، فإذا تاب إلى الله، ورجع عن هذا الغرور، وهذا الإعجاب والطيش، تاب الله عليه، وصارت في حقه نعمة. أو تكون له أعمال صالحة يمحو الله بها ما حصل منه من المخالفة؛ فإن الأعمال الصالحة يمحو الله بها السيئات، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1]. وإلا كان كأمثاله من المذنبين، يعني: تعرض للعقوبة.

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يُعَاقَبُ أَصْحَابُ الْخَوَارِقِ تَارَةً بِسَلْبِهَا، كَمَا يُعْزَلُ الْمَلِكُ عَنْ مُلْكِهِ، وَيُسْلَبُ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، وَتَارَةً بِسَلْبِ التَّطَوُّعَاتِ، فَيُنْقَلُ مِنْ الْوِلَايَةِ الْخَاصَّةِ إِلَى الْعَامَّةِ، [١] وَتَارَةً يَنْزِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْفُسَّاقِ، [٢].

الشرح:

[١] يعني: إذا استعمل هذه الخارقة في الذنوب والمعاصي، فقد عرضها لأن تسلب منه، وتمنع منه؛ عقوبة له، أو أنها تسلب منه كمال الولاية الخاصة إلى الولاية العامة، فهذه أنقص، الولاية العامة أنقص من الولاية الخاصة. على كل حال تصرفات هذا العبد فيما أعطاه الله من الكرامة إذا استعان بها على طاعة الله، زادته رفعة وإيمانًا، وإن استعملها في معصية، فقد عرضها إما للزوال، وإما للنقص.

[٢] يعني: حسب ما يريده الله ﷻ بحكمته في عقوبة هذا الإنسان، فإما أن يسلبه الكرامة، وإما أن تنقص كرامته، وإما أن يتحول من مطيع إلى فاسق، وهكذا سائر النعم التي ينعم الله بها على العبد، إذا استعمل النعمة في طاعة الله، وشكر الله عليها، زادها الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

فالكرامة نعمة من أعظم النعم، تحتاج إلى شكر، فإذا لم تشكر، تعرضت للزوال أو للنقص.

وَتَارَةً يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ. [١] وَهَذَا يَكُونُ فِيمَنْ لَهُ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ [٢].

الشرح:

[١] وهذا أشد - والعياذ بالله -؛ تارة يرتد عن الإسلام، فيصير كافرًا، هذا خطر عظيم، إن المسلم يجب عليه أن يتقي الله فيما أعطاه الله ﷻ، ويحافظ عليه، ولا يكون سببًا في هلاكه.

[٢] بأن يتحول من كونه صاحب كرامة إلى كونه صاحب خارق شيطاني، فيرتد عن الإسلام، فيتحول من كونه وليًّا لله إلى كونه وليًّا للشيطان، فهذا كله مما يوجب على العبد ومن أعطي كرامة من الكرامات الحذر من الغرور والانخداع، ويعتبر هذا ابتلاء وامتحانًا له من الله ﷻ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ شَيْطَانِيَّةٌ؛ [١] بَلْ يَظُنُّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَيَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَعْطَى عَبْدًا خَرْقَ عَادَةٍ لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى ذَلِكَ، [٢].

الشرح:

[١] بعضهم يظن أن خوارق الشيطان كرامات إلهية؛ من جهله بالكرامات، وعدم تفرقته بين الكرامة التي هي من الله، وبين الخوارق الشيطانية. والكرامات سببها الطاعة والتقوى، والخوارق الشيطانية سببها الكفر والمعاصي والذنوب، فيميز المسلم بين هذا وهذا.

[٢] وهذا أيضًا من أدق ما يجب التنبه له، وهو أن هذا الذي أعطاه الله هذه الكرامة، وأجراها على يديه سيحاسبه عليها: ماذا استعملها به؟ وماذا استعان بها عليه؟ وهل شكرها أم لم يشكرها؟ الله يحاسب على النعم: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، يحاسب على النعم، ومنها الكرامات. فلا يغتر العبد بالكرامة التي تجري على يده، ويغفل عن أنه سيحاسب عليها، ويناقش عليها يوم القيامة.

كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ [إِذَا] أَعْطَى عَبْدًا مُلْكًا وَمَالًا وَتَصَرُّفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَيْهِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالْخَوَارِقِ عَلَى أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَا مَأْمُورًا بِهَا وَلَا مَنْهِيًّا عَنْهَا، [٢] فَهَذَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُمُ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ، [٣].

الشرح:

[١] وهذا غرور، فالذي يظن أن الله لا يحاسبه على النعم، ولا يناقشه يوم القيامة على النعم، ويظن أن هذه النعم إنما جاءته عن استحقاق؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. فلم يعترف أن هذا من نعم الله عليه، ولم يعترف أنه لن يحاسب على هذا، فهذه غفلة -والعياذ بالله- عن الحساب: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ويوم الحساب عام لكل ما أعطي العبد يوم القيامة.

[٢] لا من خواصهم؛ لأن من يستعين بالكرامات على أمور مباحة، هذا المباح لا يثاب عليه، ولا يعاقب عليه، ولكن لا يكون من خواص الأولياء، يكون من عوام الأولياء، أو من عموم الأولياء، تنقص درجته بذلك، هذا إذا استعملها في المباح، تنقص درجته، لا كالذي يستعملها في محرم، أو في شرك، أو في معصية.

[٣] لأن أولياء الله يتفاوتون: المقربون، وأصحاب اليمين، وهم الأبرار، فالأبرار وأصحاب اليمين دون المقربين: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧

فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ٩]، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. الظالم لنفسه هو: العاصي الذي معصيته دون الشرك والكفر، هذا ظالم لنفسه، وهو من المؤمنين، لكنه ناقص الإيمان، فوقه المقتصد، وهو: الذي أدى الواجبات وترك المحرمات فقط، وقد لا يفعل المستحبات، ولا يترك المكروهات، إنما اقتصر على أداء الواجبات والفرائض، وتجنب المحرمات، هذا مقتصد، ثم فوقه السابق بالخيرات، وهم: الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات احتياطًا، هؤلاء هم السابقون. وقد ذكرهم الله في أول سورة الواقعة وفي آخرها، ذكرهم الله ﷻ في سورة الإنسان، وكذلك في سورة المطففين ذكر هذه الطبقات المؤمنة، وكلهم أولياء لله، لكن يتفاوتون في الولاية، فالسابقون أعظم الأولياء، ثم يليهم الأبرار، أصحاب اليمين: المقتصدون، ثم يليهم عموم المؤمنين الذين خلطوا بين عمل صالح وآخر سيء، عسى الله أن يتوب عليهم.

وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَأَعْلَى مِنْ هَؤُلَاءِ، [١] كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ أَعْلَى مِنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ. [٢].

وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ، [٣] كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا يَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ: كَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، [٤].

الشرح:

[١] السابقون أعلى من الأبرار.

[٢] العبد الرسول - مثل: محمد ﷺ - أعلى من النبي الملك - مثل: داود، وسليمان عليهما السلام، فداود وسليمان عليهما السلام نبيان وملكان، ومحمد ﷺ عبد رسول، والعبد الرسول أفضل من النبي الملك، هذا يدل على أن الأنبياء يتفاضلون: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكذلك سائر المؤمنين يتفاضلون، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

[٣] الكرامات هي لا شك أنها جزاء على الأعمال الصالحة، قد ينقص بها أجره عند الله ﷻ، فلهذا كان أهل الإيمان الصادق يحذرون من هذه الأمور أن تكون محسوبة عليهم، تؤخذ من أعمالهم ودرجاتهم، وهذا من عظيم خوفهم من الله ﷻ يريد كمال أجره عند الله، ولا يريد أن يؤخذ منه شيء في الدنيا.

[٤] فهو يتوب من الكرامات، ويخاف منها أكثر مما يخاف من الذنوب والمعاصي، هذا من فقههم ومعرفتهم بالله ﷻ.

وَتَعْرِضُ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ زَوَالَهَا، [١] وَكُلُّهُمْ يَأْمُرُ الْمُرِيدَ السَّالِكَ أَنْ لَا يَقِفَ عِنْدَهَا وَلَا يَجْعَلَهَا هِمَّتَهُ وَلَا يَتَبَجَّحَ بِهَا؛ [٢] مَعَ ظَنِّهِمْ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مِنَ الشَّيَاطِينِ تُغْوِيهِمْ بِهَا، [٣].

الشرح:

[١] لا يريدها؛ لأنه يعلم أنها تحسب من أجره، فهو لا يريدها، يريد أن يبقى أجره عند الله ﷻ.

[٢] يأمرون تلاميذهم، المريد السالك هو: التلميذ، كان العلماء ينهون تلاميذهم وأتباعهم عن التطلع إلى الكرامات؛ لما تسببه من المحاذير.

[٣] كيف إذا كانت خوارق شيطانية؟! إذا كانت كرامات من الله، ومع هذا كانوا لا يرغبونها، ويحذرون تلاميذهم وأتباعهم من التطلع إليها، وهناك من أولياء الله من لم تجر على يديه كرامات، كثير من أولياء الله لم تجر على أيديهم كرامات من الصحابة والتابعين. فليس من لازم الولي أن تجري على يده كرامة، أو خارقة، ليس هذا من لازمه؛ كما يظن بعض الجهال.

الخوارق من الأمور التي تجري على خلاف العادة، تخرق العادة، وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خوارق كرامة من الله لبعض أوليائه، تجري على أيديهم؛

إما لحاجة، وإما لحجة على خصومه، فهذه تسمى خوارق الكرامات.

القسم الثاني: خوارق شيطانية يعملها الشياطين مع أوليائهم من الإنس؛ ليضلوا الناس بها، ويغروا من تجري على يده أنه ولي لله، وهو ليس كذلك.

تقدم لنا أن الفارق بين هذه وهذه: أن من جرى على يده خارق إن كان مستقيمًا على طاعة الله مؤمنًا بالله، فهي كرامة، وهي من الله ﷻ، وأما إن كان الذي جرت على يده فاجرًا فاسقًا مضيعًا لحدود الله مرتكبًا لمحارم الله، فهذه ليست كرامة، وإنما هي خارق شيطاني، لا يغتر به. وهذا شيء واضح للناس؛ يعرف حالهم في الصلاح والفسق، يعرف ذلك.

فهذا هو الفرق بين الكرامة وبين غيرها، ثم إن الكرامة التي تجري على يد رجل صالح؛ هذا الرجل الذي تجري عليه لا يفرح بها، ولا يفتخر بها، بل إنها تزيده تواضعًا وخوفًا من الله ﷻ، ولا يترفع بها، بل يخاف من الله أن تكون استدراجًا له، ويخجل ويستغفر لئلا تكون استدراجًا له، فهو يستغفر الله ﷻ، ويتوب، ولا تغره هذه الكرامة، هذه حال المتقين الصالحين مع ما يجري على أيديهم، ولا يظهرونه للناس، بل يكتمونه مهما أمكنهم ذلك.

وقوله: (**وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ، كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى**)؛ لأنه يشعر بأنها نقص في إيمانه، وأنها لا تكون من باب الاستدراج، ولا يزكي نفسه، ولا يفتخر بهذه الكرامة، هذه حالهم، ثم أيضًا هناك من الصالحين الأتقياء من لم تجر

على يديه كرامة، ليس من لازم الولي أن تجري على يده كرامة، بل هناك من سادات الأولياء - كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وسادات الصحابة ﷺ - ولم يجر على أيديهم شيء من هذه الأمور، مع أنهم أتقى الأمة، وأبر الأمة، وأصدق الأمة، ما جرى على أيديهم خوارق، فهي ليست من لازم الولاية أبدًا. قد يكون ولي لله من خواص الأولياء، ولا تجري على يده كرامة.

وقوله: (كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى)؛ خصوصًا إذا نظر أن سادات الأولياء، لم يجر على يدهم مثل هذا، فهو يخاف أن يكون هذا من نقص درجته عند الله ﷻ.

يستغفر ويتوب، ويسأل الله أن يزيلها عنه، من تمام إخلاصه وخوفه من الله ﷻ يسأل الله أن يزيلها عنه.

يوصون تلاميذهم بألا يتطلعوا إلى الكرامات، وألا يجعلوها همهم، بل يحذرون منها؛ لأنها ابتلاء وامتحان، فهم يوصون طلابهم بألا يتحروا هذه الكرامات، أو يطلبوها، أو يحرصوا عليها. إذا حصلت له، لا يتبجح بها، ولا يتكبر بها، بل تزيده تواضعًا وخوفًا من الله ﷻ.

وهذا أيضًا من أسباب الحذر؛ أنها قد تكون من خوارق الشياطين، ولا تكون من الله ﷻ، فيزيد الابتلاء والامتحان عليهم.

فَإِنِّي أَعْرِفُ مَنْ تُخَاطِبُهُ النَّبَاتَاتُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ، وَإِنَّمَا يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، [١] وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَكَ يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ. [٢].

الشرح:

[١] الشياطين من باب الغش لبني آدم وإغوائهم يخاطبونهم من خلال بعض الجمادات أو بعض الأشجار والنباتات، ويظن أن النبات نفسه أو الشجر نفسه، أو النبات الذي يكلمه مع أن الذي يكلمه شيطان متلبس بهذه الشجرة أو هذا النبات، فالأمر خطير جدًا.

[٢] إذا أحس بهذا، وسمع هذا الصوت، فإنه يلجأ إلى الله، ويقرأ آية الكرسي، التي تطرد الشياطين، ولا تقرب من قرأها، فيذهبون، لو كانت كرامات، ما ذهب، وإنما هي خداع من الشيطان، فإذا قرأ آية الكرسي، فإن الشيطان يهرب وينهزم، فهي حصن للمسلم؛ آية الكرسي وغيرها من القرآن، لكن هي بالذات حصن للمسلم، يتحصن بها من الشياطين.

وَأَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَتُخَاطِبُهُ الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا، وَتَقُولُ: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخَاطِبُهُ بِذَلِكَ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، [٢] وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَتَكُونُ الْجِنُّ قَدْ أَدْخَلَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةٍ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ أَنْوَارٌ، أَوْ تُحْضِرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، [٣].

الشرح:

[١] الشيطان يتلبس بالطير، الشيطان أعطاه الله قدرة على هذا، ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أعطاه الله قدرة على ملابسة الناس والدواب، يتكلم على ألسنتها، ويظن الناس أنه نفس المخلوق هو الذي يتكلم، مع أنه الشيطان.

[٢] يحمله الشيطان، يظن أن هذا كرامة؛ أنه طلع من البيت بدون فتح الباب، ويظن أن هذا كرامة، مع أنه من الشيطان، حمله الشيطان، الشيطان عنده مقدرة؛ يدخل في البيوت، ويخرج منها، وهي مغلقة، يدخل ويخرج وهي مغلقة، ويحمل معه هذا المغرور، ويظن أن هذه كرامة له.

[٣] أو تتشكل على شكل أنوار، ويظن أن هذا ملك أو أن هذا أنوار، أو ملائكة، وهي شياطين تتلون كالغيلان. أو يحضر له من يطلبه؛ مثل: له ابن أو قريب بعيد وبينه وبينه مسافات، وهو مشفق على رؤيته، ينتهز

الشيطان هذا الشيء، فيحضر هذا الشخص، يحمله في الهواء، ويحضره عند قريبه، ويظن هذا المخدوع أن هذه كرامة له.

وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ صَاحِبِهِ، [١] فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ. [٢].

وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُ مُخَاطِبٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، [٣].

الشرح:

[١] إما أنه يحضر الشخص البعيد، ويحمله، وإما لا يحمله، ولكن يتصور بصورته؛ لأن الشيطان يتشكل أشكالًا مختلفة، قد يتشكل بشكل إنسان، يتشكل بشكل حيوان، بشكل طير، أشكال مختلفة.

[٢] لأنها حصن من الشيطان، إذا وفقه الله، وأحس بهذه الأمور، فإنه لا يغتر بها، بل يخاف أن تكون من الشيطان، فيبادر بالتحصن بآية الكرسي، فيقرؤها، فيذهب عنه الشيطان.

[٣] المهدي الذي يخرج في آخر الزمان من بيت النبي ﷺ من آل الحسن ابن علي رضي الله عنهما، فيقيم الدين، ويجاهد في سبيل الله، وينشر العدل في الأرض، هذا سيحصل؛ لأن النبي ﷺ أخبر عنه، ولابد أن يقع، ومن علامات الساعة، وهو قبل ظهور الدجال، من علامات الساعة الكبار، فالشيطان ينتهز هذا، ويقول له: أنا المهدي الذي بشر به النبي ﷺ. وهو شيطان مريد. أو يعد الشخص، يقول: أنت المهدي. وكم حصل هذا لكثير ممن يدعوا المهدوية، ادعى المهدوية كثير من الناس، تبين أنهم كذبة، وأن ما حصل لهم إنما هو من الشيطان، غرهم بذلك.

وَيَظْهَرُ لَهُ الْخَوَارِقُ، مِثْلُ: أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ، فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابُ الطَّيْرِ أَوْ الْجَرَادِ يَمِينًا أَوْ شَمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ، [١] وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِي أَوْ نَوْمُهُ أَوْ ذَهَابُهُ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ، مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ، [٢].

الشرح:

[١] يحضر له هذه الأشياء، التي تخطر بباله، يحضرها له؛ للغرور - والعياذ بالله -.

[٢] تحمله الشياطين إلى مكة، ويظن ذلك كرامة من الله ﷻ، مع أنها أعمال شيطانية، يطيرون به في الهواء، ولا يحتاج طائرة ولا سيارة ولا شيء، فيظن أن هذه كرامة من الله ﷻ، وهي في الحقيقة شيطنة وغرور من الشيطان، هذا كله يدل على أنه لا يغتر بهذه الأشياء، ولا ينخدع بها، ويجب التثبت فيها، ومعرفة الحق من الباطل فيها، التمييز بين ما هو صحيح وما هو كذب من خلال الكتاب والسنة، ومن خلال الشخص الذي تجري على يديه، وتصرفاته، ما هو كل من ظهر على يده شيء من هذه الأمور يبادر وينوه عنه، ويظن أنه المهدي، أو أنه كذا، ويظن أنه عيسى بن مريم عليه السلام، كم من ادعى أنه عيسى بن مريم عليه السلام من الكذب والخداع؟!

وَتَأْتِيه بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَتَقُولُ لَهُ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الكروبيون(١) [١] أَرَادُوا زِيَارَتَك، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ الْمُرْدَانِ؟! فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلِحَى، [٢].

الشرح:

[١] الكروبيون المقربون من الملائكة ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢] وهم حول العرش، الشيطان يغر الإنسان، ويأتيه بصورة جميلة، ويقول أنا من الكروبيين - أي: من الملائكة المقربين -، الشيطان ما يقصر في شيء لإضلال بني آدم؛ جميع الحيل وجميع الطرق: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧]، يأتي من كل جهة، يهلك هذا الإنسان، إلا من عصمه الله، واعتصم بالوحي واتباع الرسول ﷺ.

[٢] يتصور في اللحظة يكون على صورة أمرد، ثم يكون على صورة ملتحي في اللحظة من باب الفتنة والقوة والخداع.

---

(١) الكروبيون هم الملائكة المسبحون حملة العرش. انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٨٩).

وَيَقُولُ لَهُ: عَلَامَةُ إِنَّك أَنْتَ الْمَهْدِيُّ إِنَّك تَنْبُتُ فِي جَسَدِك شَامَةٌ، فَتَنْبُتُ، وَيَرَاهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ.

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَوْ ذَكَرْت مَا أَعْرِفُهُ مِنْهُ، لَاحْتَاجَ إلَى مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]. [١].

الشرح:

[١] الإنسان يتخذ الغنى والفقر مقياسًا للكرامة والإهانة، فإذا أغناه الله، ظن أن هذا من كرمه على الله، وأنه كريم عند الله، سعيد عند الله؛ لأن الله أعطاه هذا المال، ولم يدرِ أن المال ابتلاء وامتحان: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فهو ابتلاء وامتحان، والدليل على هذا أن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، شوف الكافر، وهو عدو لله ﷻ، لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء(١)، الله يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب؛ من باب الابتلاء والامتحان.

فهذا الإنسان يجعل المال هو المقياس للكرامة، ويجعل الفقر هو المقياس للإهانة، ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ [الفجر: ١٥]، ابتلاه: اختبره ﴿رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ [الفجر: ١٦]،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

الله ﷻ يبتلي بالغنى والفقر، ﴿فَقَدَرَ﴾ [الفجر: ١٦]، فقدر بمعنى: ضيق، ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، كلا، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، هذا نفي، ليس المال هو المقياس للكرامة، وليس الفقر هو المقياس للإهانة، وإنما المقياس تقوى الله ﷻ، والعمل بطاعته.

فمن رزق التقوى والعمل الصالح، فقد أكرمه الله، ومن حرم من التقوى ومن العمل الصالح، فقد أهانه الله، هذا هو المقياس الصحيح، أما المال، فيأتي أو يذهب، ما هو بميزان، كان خواص الأولياء فقراء، كان رسول الله ﷺ يربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان يأتي عليه الأيام لا يأكل ﷺ، وهو سيد الخلق، وكان الكفرة والجبابرة منعمين في أنواع من الترف وأنواع من المآكل والمشارب، منعمين، فليس هذا هو المقياس.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾، وَلَفْظُ (كَلَّا) فِيهَا زَجْرٌ وَتَنْبِيهٌ: زَجْرٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَا يُخْبَرُ بِهِ وَيُؤْمَرُ بِهِ بَعْدَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَصَلَ لَهُ نِعَمٌ دُنْيَوِيَّةٌ تُعَدُّ كَرَامَةً يَكُونُ اللَّهُ ﷻ مُكْرِمًا لَهُ بِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ يَكُونُ مُهِينًا لَهُ بِذَلِكَ، [١] بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَقَدْ يُعْطِي النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِمَنْ لَا يُحِبُّهُ، وَلَا هُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ؛ لِيَسْتَدْرِجَهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَحْمِي مِنْهَا مَنْ يُحِبُّهُ وَيُوَالِيه؛ لِئَلَّا تَنْقُصَ بِذَلِكَ مَرْتَبَتُهُ عِنْدَهُ، أَوْ يَقَعَ بِسَبَبِهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ. [٢] وَأَيْضًا كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، [٣].

الشرح:

[١] (كلا) حرف ردع وزجر، زجر عن هذا الاعتقاد وتنبيه على أن غيره هو الصحيح.

[٢] نعم، مثلما يحمي الطبيب المريض عن بعض المآكل والمشارب؛ لأنها تضره أو تقتله، فالله ﷻ يحمي عبده المؤمن من الدنيا؛ لأنها تضره، فهو يحميه منها.

[٣] هذا هو الفارق بين كرامات الأولياء وخوارق الشياطين باعتبار من تجري على يده؛ إن كان صالحًا مستقيمًا تقيًا، فهي كرامة، وأما إن كان فاجرًا فاسقًا كافرًا، فإنها خارق شيطاني، وليست كرامة.

فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ لَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، [١] فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشِّرْكِ: مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ، أَوْ بِالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ، وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ: كَالْحَيَّاتِ وَالزَّنَابِيرِ وَالْخَنَافِسِ وَالدَّمِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ، وَمِثْلِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ، لَا سِيَّمَا مَعَ النِّسْوَةِ الْأَجَانِبِ وَالْمُرْدَانِ، [٢].

الشرح:

[١] لكن أين من يتفكر في هذا، أو يتأمل في هذا؟! قليل من الناس.

[٢] وهذا من الفارق بين الكرامة وبين الخارق الشيطاني؛ أنها تزيد عند القرآن، والخارق الشيطاني يذهب عند القرآن ويضمحل، وقد يحصل خوارق شيطانية للفجرة عند مجالس اللهو والغناء والطرب، يحصل لهم خوارق، قد يطيرون في الهواء، يحصل منهم، بسبب الشياطين؛ لأنها مقارنة للكفر والعصيان، فهي من الشياطين غرورًا لهؤلاء، وأما إذا حصلت مع التقوى والاستقامة، فهي كرامة من الله ﷻ ليعين بها هذا العبد على طاعة الله ﷻ.

وَحَالَةُ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا، أَوْ يَنْقُرُ الصَّلَاةَ نَقْرَ الدِّيكِ، [١] وَهُوَ يَبْغُضُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَتَكَلَّفُهُ، [٢].

الشرح:

[١] هذه حالة الفجرة؛ أنه يرقص كل الليل، فإذا جاءت الصلاة، يعجز عن الصلاة، يصلي جالسًا، إن صلى، صلى جالسًا، يعجز عن الطاعة، مع أنه يرقص كل الليل، ويوم جاءت الصلاة، عجز أن يقوم، فهذه علامة الخوارق الشيطانية، وأيضًا لا يطمئن في الصلاة، ولا يتلذذ بها، وإنما ينقرها نقرًا؛ ليتخلص منها؛ لأنها سجن عليه، الصلاة سجن على الفجرة والفساق، يريدون التخلص منها، وهي جنة للأتقياء والأبرار، يناجون ربهم، ويتلذذون، ولذلك يقوم، ويطيل القيام، ولا يتعب؛ لأنه يتلذذ بهذا، ويناجي ربه ﷻ، بينما لو يقوم قيامًا يسيرًا في غير هذا، تعب، لو تقف قليلًا تنتظر واحد، تتعب، لكن لو يوفقك الله لقيام الليل، وتقوم قيامًا طويلًا، ما تتعب؛ تتلذذ بهذا.

[٢] هذا من العلامات؛ أنه يبغض سماع القرآن، ويحب سماع الشيطان - الأغاني والمزامير -، ولذلك تجده دائمًا يفتح المذياع على المزامير والأغاني، حتى وهو يمشي في الطريق، ويغلق القرآن، إذا جاء القرآن، يغلقه؛ لأنه لا يتلذذ به، ولا يحبه؛ فهو يغلقه، ويثقل عليه؛ لأنه ما يجتمع

الغناء والقرآن؛ كما يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا   فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

أي: لا يجتمع حب القرآن وحب الأغاني، يطرد أحدهما الآخر.

(١) انظر: النونية مع شرحها لأحمد بن عيسى (٢/ ٥٢١).

لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا ذَوْقٌ وَلَا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ، وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِيدَ. [١].

فَهَذِهِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ، وَهُوَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]. [٢].

فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ [٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، يَعْنِي: تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا.

الشرح:

[١] المواجيد والوجد هذا من اصطلاحات الصوفية.

[٢] من ترك القرآن، ابتلي بالأغاني والألحان، يبتلى بسماع الأغاني والألحان، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨] يعني: جاء يوم القيامة يقول للشيطان: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]، يندم، عندما يجد الجزاء، يندم على ما سبق.

[٣] ذكر الرحمن ما هو؟ القرآن، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾، الذي هو القرآن، فالقرآن ذكر، هو الذكر الحكيم.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ؛ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ(١). [١].

الشرح:

[٢] هذا - والله أعلم -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، هذا عذاب القبر؛ لأنه قد يكون في الدنيا منعمًا، ليس في ضنك، لكن هذا في القبر - والله أعلم -؛ أنه يكون في عذاب في القبر. فجزاؤه من جنس العمل، لما نسي القرآن، فإن الله نسيه؛ يعني: تركه، ما معنى نسيه؟ يعني: ذهل عنه، النسيان يطلق على الترك، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أي: تركهم في العذاب؛ لأن النسيان له معان، منها الترك، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ أي: نترككم في العذاب.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٦)، والطبري (١٦/ ٢٢٥).

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، [١] فَلَمْ يَبْقَ إِنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ إِلَّا وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاتِّبَاعِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، [٢].

الشرح:

[١] كما أن رسالة محمد ﷺ عامة للإنس، فهي عامة للجن؛ فهو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، فتجب على الجن طاعة الرسول ﷺ، كلهم لا يتخلف أحد، ولذلك لما سمع نفر من الجن القرآن، أعجبهم، واستمعوا له، وذهبوا إلى قومهم، ودعوهم إلى الله، وبلغوهم ما سمعوا من القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١]، دل هذا على أن الجن مخاطبون بالقرآن، وأن الرسول ﷺ مبعوث إليهم.

[٢] أن يصدق الرسول ﷺ فيما أخبر؛ في الأخبار الماضية والأخبار المستقبلة مما أطلعه الله عليه من علم الماضي والمستقبل، أخبر عنه، يصدق المسلم الرسول في هذا - الجني والإنسي -، ويطيعه فيما أمر، أمر ﷺ بأوامر، فيجب امتثالها.

وَمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِرِسَالَتِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْسِيًّا أَوْ جِنِّيًّا. [١].

وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، [٢].

الشرح:

[١] من بلغته الحجة ببعثته ﷺ في المشارق والمغارب من العرب والعجم والجن والإنس، فلم يؤمن، فهو كافر؛ من اليهود والنصارى، من أهل الكتاب، إذا لم يؤمنوا بهذا الرسول ﷺ، فهم كفار، لا شك في كفرهم، بل كفرهم أغلظ من كفر غيرهم؛ لأنهم عرفوا الحق، وعاندوه بعد معرفته. وسواء كان كتابيًّا أو غير كتابي.

[٢] هذه عقيدة لابد أن تعتقد أنه ﷺ مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، فمن قال: لا، ما هو مبعوث إلى كل الناس، مبعوث للعرب فقط، هو نبي، ولكنه نبي للعرب. هذا كافر، هذا مكذب لله ﷻ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالذي يقول: إنه ليس رسولًا إلى الناس كافة، هذا كافر، الذي يقول: إنه رسول إلى الإنس، وليس رسولًا إلى الجن، هذا كافر أيضًا، لابد من الإيمان بعموم رسالته ﷺ ووجوب طاعته والإيمان به على جميع الثقلين، هذا من أصول العقيدة.

وَقَدْ اسْتَمَعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ لَمَّا رَجَعَ مِنْ الطَّائِفِ، وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، عند مرجعه من الطائف، عندما دعا أهل الطائف، ولما قابلوه -والعياذ بالله- بالمقابلة السيئة، ورموه بالحجارة، وعاد ﷺ مهمومًا من عندهم، قيض الله له من الجن من يستمعون القرآن، ويبلغونه لقومهم.

ووادي نخلة بين الطائف ومكة، معروف الآن، النخلة اليمانية، النخلة الشامية، وادي.

دل على أن من سمع القرآن، يجب عليه أن ينصت له، ويقطع الشواغل؛ ليستفيد ويتأدب مع القرآن، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لا تنشغلوا عنه؛ لأنه يخاطبكم، فكيف يخاطبك الله، وأنت معرض عنه مدبر عنه -والعياذ بالله-؟!

وهذا دليل على أن من تعلم علمًا مما أنزله الله على رسوله أنه يجب عليه أن يبلغه للناس.

و هذا دليل على أنهم يؤمنون بموسى وبالتوراة.

فليس الإنسان بهواه يقول: أنا حر. لا ليس بحر، بل هو عبد لله، ويجب أن يطيع الله ﷻ، وأن يعبد الله، وأن يطيع الرسول ﷺ إن كان يريد النجاة لنفسه، فالإيمان بالله ورسوله هو الحرية في الحقيقة، هو الحرية الصحيحة، أما عدم الإيمان بالله ورسوله، فهو الذل والعبودية للهوى، للشياطين، لدعاة الضلال، يصير عبدًا لغير الله ﷻ، ولابد، الإنسان عبد مهما كان، إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره، ما يخرج الإنسان عن العبودية أبدًا، هو عبد، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله[1]:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ   فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

صاروا أرقة للشيطان ولأهوائهم، فالحرية الصحيحة هي الإيمان بالله، والعبودية والذل هي الكفر والشرك بالله ﷻ.

---

(١) انظر: النونية وشرحها لابن عيسى (٢/ ٤٦٦).

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ١-٦]؛ **أَيْ: (السَّفِيهُ مِنَّا) فِي أَظْهَرِ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ.**

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ[(١)]: كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْإِنْسِ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي قَالَ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا اسْتَغَاثَتِ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ ازْدَادَتِ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، [١].

الشرح:

[١] ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢-٣]، ثم ذكروا ما عليه أقوامهم من الضلال والضياع.

فكل هذه الآيات في إيمان الجن بالرسول ﷺ، ولومهم من لم يؤمن به من الجن. سفيهنا أي: سفيه الجن.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، هذا فيما ذكره

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٨/ ١٧٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).

الرسول ﷺ أنهم إذا نزلوا منزلًا في البر، يستعيذون بعظيم الوادي من الجن؛ أن يكف عنه سفهاء قومه، فالنبي ﷺ أمر المسلمين أن يقولوا: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق[١].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٠٨): عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةِ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ».

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٦ - ٨]. [١].

الشرح:

[١] الاستعاذة نوع من أنواع العبادة؛ فلا يستعاذ إلا بالله، فمن استعاذ بغير الله، فقد أشرك، أشرك في العبادة، وكانوا في الجاهلية لجهلهم بذلك كانوا يستعيذون بالجن، بدلًا من أن يستعيذوا بالله كانوا يستعيذون بالجن، فكان أحدهم إذا نزل منزلًا في وادي من الأودية، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، وهذا شرك، ولذلك النبي ﷺ علم أصحابه وعلم المسلمين في أن يتركوا هذا الشرك، وأن من نزل منزلًا، فإنه يقول: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، فإذا قالها، ما يضره شيء، ما دام في منزله ذلك. لأن من استعاذ بالله، أعاذه الله ﷻ، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، فهو يعيذ من استعاذ به، فهذا يدل على أن الاستعاذة لا تجوز إلا بالله، أو بصفة من صفات الله، وهي الكلام؛ لأن الكلام من صفات الله ﷻ.

فإذا استعاذ بكلام الله أو بكلمات الله التامات، فقد استعاذ بالله؛ لأن الاستعاذة بالصفة استعاذة بالموصوف، هكذا علم النبي ﷺ الأمة في الاستعاذة، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؛ مثلما جاء في هذا الحديث، فزادوهم: أي

زاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ أي : كبرًا وإعجابًا بأنفسهم . حيث إن الإنس خضعوا لهم، واستعاذوا بهم، وقيل : المعنى : زاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ لأن من استعاذ بغير الله ، أخافه الله ، من استعاذ بالله ، حماه الله ، وأعزه ، وحفظه ، ومن استعاذ بغير الله ، أذله الله ، وسلط عليه الجن وغيرهم ، فزاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ أي : خوفًا وضعفًا ؛ عقوبة لهم .

الشاهد من هذا أن الاستعاذة عبادة ، فلا تجوز إلا بالله ﷻ ، ودل هذا على أن كلام الله غير مخلوق ؛ لأن الاستعاذة لا تجوز بالمخلوق ، فدل على أن كلام الله صفة من صفاته ، وهو غير مخلوق .

وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَرْمِي بِالشُّهُبِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ، لَكِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الشِّهَابُ إِلَى أَحَدِهِمْ، [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ خلق النجوم، وذكر فوائدها؛ أنها زينة للسماء ورجوم للشياطين، زينة للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وأيضًا هناك فائدة ثالثة ذكرها الله، وهي الاستدلال بها في السفر: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالنجوم خلقت لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فيسير عليها المسافر، ويعرف الاتجاه الذي هو يريد، فهذا من فضل الله ﷻ، أما من اعتقد في النجوم أنها تنفع وتضر، وعبدها من دون الله - كحالة قوم إبراهيم أصحاب النمرود، الذين كانوا يعبدون الكواكب -، فهؤلاء خسروا وخابوا، فالنجوم لم تخلق لهذا، مخلوقة لهذه الفوائد الثلاث، والمخلوق لا يعبد، والنجوم مدبرة ومسيرة، ولهذا أراد إبراهيم ﷺ أن يكسر حجتهم.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، دل على أنه مدبر ومسير، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧]، يريد مناظرتهم، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، أقام عليهم الحجة ﷺ بهذه المناظرة العظيمة؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب من دون الله ﷻ.

والحاصل من هذا ما ذكره الشيخ وغيره من تفسير الآية، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٩]؛ أي: من السماء: ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ﴾ [الجن: ٩]، يسترقون السمع من الملائكة، ثم يلقونه إلى الكهان، ثم الكهان يكذبون مع الكذبة الواحدة مئة كذبة، ويلقونها على الناس، هذا في الجاهلية، فلما بُعث محمد ﷺ، حرست السماء بالشهب، فصاروا لا يستطيعون ما كانوا يفعلونه من قبل، لا يقدرون على استماع السمع، ومن استرق شيئًا منه، رمي بالشهاب، فيحرقه. وذلك حماية للوحي من أن تعبث به الشياطين، فهذا من فضل الله ﷻ.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَصَارَتْ الشُّهُبُ مُرْصَدَةً لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا، كَمَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، [١] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، [٢].

الشرح:

[١] حرس من الملائكة وشهب من النجوم، تنفصل شظية من النجم محرقة، فتصيب الشيطان الذي يسترق السمع، فتحرقه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٨].

[٢] ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: القرآن، ما تنزلت به الشياطين، وإنما تنزل به ملك، وهو جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ -١٩٤]، وما ينبغي لهم: ما يليق بالشيطان أن ينزل بالقرآن أو بالوحي، ولا يستطيع هذا، القرآن يحرقه ويقتله، فلا يقرب القرآن، فكيف ينزل به كما تقول المشركون؟! كيف ينزل به على محمد ﷺ؟!

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٢]، معزولون بالشهب والرصد الذي جعل الله في السماء، فالقرآن والوحي محفوظ فيما بين الله وبين رسوله محمد ﷺ، لا دخل للشياطين فيه، إنما الشياطين تشتغل مع الكهنة، لا مع الرسل، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، وهم الكهنة.

قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١٠-١١]، **أَيْ: عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى، كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: مِنْهُمُ الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ وَالنَّصْرَانِيُّ وَالسُّنِّيُّ وَالْبِدْعِيُّ، [١]** ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، **أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَهُ: لَا إِنْ أَقَامُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا إِنْ هَرَبُوا مِنْهُ، [٢].**

الشرح:

[١] يقولون: ما ندري ما هو السبب، هذه العلامات تدل على شيء سيحدث، وما ندري ما هو، ﴿لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وسيحصل شيء لأهل الأرض فيه الخير، كان كذلك، حصل الرشد والخير والقرآن والسنة والعلم النافع على يد هذا الرسول ﷺ، وانظروا إلى أدبهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، انظر! في الشر قالوا: (أُريدَ)، ولم ينسبوه إلى الله، وأما الرشد، فنسبوه إلى الله ﷻ.

[٢] الجن مختلفون؛ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الفاجر، ومنهم المتقي والعابد، ومنهم الفاسق، فهم مثل الإنس منقسمون، ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾. واعترف الجن أنهم لن يعجزوا الله ﷻ، ولن يخرجوا عن قدرته وعن قبضته ﷻ مع ما أعطاهم الله من الخفة والطيران وغير ذلك، وهم في قبضة الله ﷻ.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ : أي تيقنا، الظن يأتي بمعنى اليقين، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، يعني: يتيقنون أنهم ملاقو الله، لا الظن الذي هو بمعنى الشك، فالظن يأتي بمعنى اليقين.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، سواء بقينا في الأرض أم هربنا من الأرض، فنحن في قبضة الله، لن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه هربًا، لو هربنا من الأرض، فهم في قبضة الله ﷻ.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ﴾ [الجن: ١٣ - ١٤]، **أي: الظَّالِمُونَ؛ يُقَالُ: أَقْسَطَ إذا عَدَلَ، وَقَسَطَ إذا جَارَ وَظَلَمَ،** [١] ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن: ١٤ - ٢٤]. [٢].

الشرح:

[١] أعلنوا إسلامهم، هؤلاء النفر من الجن أعلنوا إسلامهم، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣]، فهذا يدل على أن الجن منهم مسلمون، ومنهم مؤمنون، ومنهم أتقياء، ومنهم أشقياء، ومنهم فجرة، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾؛ أي: الكفرة؛ من (قسط)؛ أي: جار وظلم، أما (أقسط)، فمعناه: عدل، (أقسط) اسم الفاعل منه (مقسط)، و(قسط) بمعنى جار، اسم الفاعل منه (قاسط)، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾؛ أي: الكفرة والفجرة.

الثلاثي (قسط) معناه: الجور، الرباعي (أقسط) معناه: العدل.

[٢] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]، قال الله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: الخلق، ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: على الدين الصحيح، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ مطرًا هنيئًا مريئًا، وإنما يحبس عنهم المطر بسبب كفرهم وذنوبهم، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وقيل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، أي: طريقة الكفر، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، من باب الاستدراج، والله يعطي الكافر النعم مع أنه كافر؛ لأجل أن يستدرجه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، المساجد تبنى لعبادة الله ﷻ، وإقام الصلاة: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، هذا الذي تبنى من أجله المساجد؛ لعبادة الله ﷻ، وإقام الصلاة، وذكر الله ﷻ، أما أن تبنى المساجد للشرك وعلى القبور وعلى الأضرحة، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد، هذه تسمى بالمشاهد، ليست مساجد؛ لأنها مبنية على الشرك وعبادة غير الله ﷻ، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، لا تستغيثوا بأحد غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه غير الله، فالاستغاثة نوع من أنواع العبادة، لاتكون إلا لله فيما لا يقدر عليه المخلوق.

أما ما يقدر عليه المخلوق، فيجوز أن تستغيث بأخيك، بقبيلتك أن يعينوك، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، هذا فيما يقدر عليه.

فالذين لم يطهروا المساجد من الشرك والبدع هؤلاء خالفوا ما شرعه الله ﷻ، الله شرع بناء المساجد للتوحيد وذكر الله ﷻ وإقام الصلاة، أما الذين يعمرونها بالاستغاثة بالمخلوقين ونداء المخلوقين والشرك والبدع والمحدثات، فهؤلاء دنسوا المساجد، وصرفوها عما هيئت له، فيجب أن تصان المساجد من أنواع الشرك ومن البدع ومن المحدثات، وأن تفرغ للصلاة وتلاوة القرآن وتعليم العلم النافع، هكذا تكون المساجد عند المسلمين.

إلا أن القبوريين أبوا إلا أن يجعلوها بيوت أوثان ومعابد شرك -والعياذ بالله-، ويسمونها مساجد.

ولما قام عبد الله أي محمد ﷺ، ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، ولا يدعو غيره، كانوا يدعون غير الله، معتادين على هذا، فلما قام رسول الله ﷺ يدعو الله وحده، تعجبوا من ذلك، تجمعوا عليه، استغربوا، ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾، فدل على أن دعاء غير الله شرك.

وهذا يدمغ الغلو بالرسول ﷺ واعتقاد أنه ينفع ويضر من دون الله، ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، الرسول لا يملك النفع والضر، الذي يملك ذلك هو الله ﷻ، فهو الذي يطلب منه النفع، ويستعاذ به من الضر، أما الرسول، إنما هو عبد ومبلغ عن الله ﷻ، فالغلو في حقه واعتقاد أنه يملك النفع والضر هذا شرك بالله ﷻ، فالذين يستغيثون بالرسول ﷺ، ويدعونه - خصوصًا في هذه الأيام التي يسمونها أيام المولد بزعمهم -، يحصل منهم

الشرك والاستغاثات والشكاوى للرسول ﷺ، ولا يرفعون أيديهم إلى الله يشتكون إلى الله، ويدعون الله، إنما يدعون الرسول ﷺ.

ويقولون: إنه يحضر الحفلات، وإنه يسمع دعاءنا. كل هذا من شياطين الإنس والجن، الرسول ﷺ بلغ رسالة ربه، وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل بعده؛ كتاب الله وسنته ﷺ، وبلغ البلاغ المبين، وليس له من الأمر شيء، قال الله ﷻ له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فلماذا هذا العمل القبيح في هذه الأيام؟!

يسمونه مناسبة المولد، وعيد المولد، ثم لا يعرفون الرسول ﷺ إلا في هذه الأيام، الرسول يعرف كل يوم خمس مرات على رؤوس المناير؛ أشهد أن محمدًا رسول الله، كل يوم خمس مرات على رؤوس المناير يعلى صوت بعدما يشهد ألا إله إلا الله يشهد أن محمدًا رسول الله؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، فلا يذكر الله إلا ويذكر معه الرسول ﷺ: في الأذان، والإقامة، والخطب، هذا رفع ذكره ﷺ.

إلا أنه لا يعرف ذكر الرسول إلا في هذه الأيام، هذه بدعة ظاهرة، بعضهم يقول: إنه يكفينا ما دام أقمنا المولد، يكفينا ندخل الجنة بهذا، ولو لم نعمل شيئًا.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾ [الجن: ٢١]، أعلن وصرح، أمره الله بذلك أنه يملك لأحد ضرًا ولا رشدًا، إنما يملك البلاغ والبيان، وقد بين ﷺ، بل هو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ﷻ، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي

مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢]، لو أراده الله بنقمة، ما أحد يمنع الله أن يعاقب عبده أبدًا، لا رسول ولا غير رسول.

إذا أراد الله الانتقام من عبد، فلن يجيره أحد، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]؛ يعني: الرسول ﷺ، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٥-٤٦]؛ يعني: لقتلناه شر قتلة، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٧]، ما أحد يمنع الله ﷻ إذا أراد عقوبة عبد أن يمنع العقوبة عنه.

هذا الذي يملك الرسول ﷺ، ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١ - ٢٣]، هذا الذي يملكه الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، فالمشرك والكافر له النار خالد مخلد فيها، وأما العاصي الذي معصيته دون الشرك، فهذا تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبه في النار، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه في النار، ولا يخلده فيها، بل يخرج من النار، ومآله إلى الجنة، فالآية هذه مجملة، تبينها الأدلة الأخرى، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، فهذه من آيات الوعيد، لا تدل على أن كل معصية كفر مخرج من الملة كما تقوله الخوارج.

فهذا من مجملات القرآن التي يرجع فيها، أو من المتشابه التي يرجع فيها إلى المحكم، يفسرها الآيات الأخرى.

حتى إذا رأى الكفار والمشركون ما يوعدون من العذاب، فسيعلمون

حينذاك من أضعف ناصرًا هل هو الرسول ﷺ أو هم، وأقل عددًا، الرسول ﷺ معه الله ﷻ وملائكته وعباده المؤمنون، أما هؤلاء، فليس معهم إلا الشياطين، ليس معهم أحد يعينهم وينصرهم.

ثُمَّ لَمَّا سَمِعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ أَتَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، وَهُمْ جِنُّ نُصَيْبِينَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحِ»[(١)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَرُوِيَ «أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِذَا قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، **قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»[(٢)]** [١].

الشرح:

[١] يعني في أرض العراق، جاءوا وسمعوا الرسول ﷺ، وهو يصلي بأصحابه ويقرأ القرآن في وادي نخلة بين مكة والطائف، لما انصرف من الطائف، وأهانوه وسخروا منه ﷺ، وفي رجوعه إلى مكة أدركتهم صلاة الفجر، وهم في وادي نخلة، فصلى بهم الفجر، وقرأ القرآن، فسمعت الجن هذا القرآن الذي لم يسمعوه من قبل، ولم ينزل مثله إلا على موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فذهبوا، وبلغوا قومهم، فأسلموا، وجاءوا يبايعون النبي ﷺ على الإسلام؛ لأن النبي ﷺ مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس.

قال ﷺ للجن أحسن ردًا منكم -يعني: الإنس- إذا سمعوا قول الله ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾، **«قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»**.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٤٥٠)، ورواه البخاري مختصرًا (٨٣٥٩)، و(٢٨٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال غريب، والحاكم (٣/ ٤٧٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٢)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٧٢).

وَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، سَأَلُوهُ الزَّادَ لَهُمْ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفًا لِدَوَابِّكُمْ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادٌ لِإِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ»(١). [١] وَهَذَا النَّهْيُ ثَابِتٌ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَبِذَلِكَ احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الِاسْتِنْجَاءِ بِذَلِكَ، وَقَالُوا: فَإِذَا مُنِعَ مِنَ الِاسْتِنْجَاءِ بِمَا لِلْجِنِّ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَمَا أُعِدَّ لِلْإِنْسِ وَلِدَوَابِّهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالْعَلَفِ أَوْلَى وَأَحْرَى. [٢].

الشرح:

[١] ولذلك نهى النبي ﷺ عن الاستجمار بالعظم والروث؛ لأن العظم طعام المسلمين من الجن يكسوه الله لحمًا، والروث يجعله الله علفًا، يرده الله علفًا لدوابهم.

[٢] إذًا هذا يدل على أنه لا يستجمر بالطعام، ولا بعلف دواب الإنس، العلف الذي يقدم للدواب لا يجوز لأحد أن يبول عليه أو أن يستجمر، وكذلك طعام الآدميين لا يجوز لأحد أن يستجمر به.

---

(١) هو جزء من حديث ابن مسعود ﷺ السابق.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَوْنِ الْجِنِّ سُخِّرُوا لِسُلَيْمَانَ عليه السلام؛ [١] فَإِنَّهُمْ سُخِّرُوا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ [٢].

الشرح:

[١] سليمان عليه السلام سخرت له الجن تعمل له ما يريد؛ لأن الله أعطاه ملكًا لا يعطيه أحدًا غيره، من ذلك أنه سخر له العفاريت والجن يعملون، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢] سخرها الله لسليمان تقوم بالعمران، فتغوص في البحار، وتأتي بالأشياء المطلوبة، ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٧]، يبنون له ويغوصون في البحار، ويأتون بالأشياء المطلوبة لسليمان عليه السلام بتسخير الله.

هذه ما حصلت للأنبياء إلا نبينا محمد ﷺ، فإنه أعطي أكثر مما أعطي سليمان عليه السلام، فإن الله بعثه إلى الجن والإنس بشيرًا ونذيرًا، فرسالته عامة.

[٢] سليمان عليه السلام نبي وملك مثل أبيه داود عليه السلام، مثل يوسف عليه السلام نبي وملك، أما نبينا ﷺ، فهو نبي، وليس بملك.

لِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمَنْزِلَةُ الْعَبْدِ الرَّسُولِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ الْمَلِكِ. [١].

وَكُفَّارُ الْجِنِّ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا مُؤْمِنُوهُمْ فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، [٢] وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنْ الْإِنْسِ [٣] وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ الْجِنِّ رَسُولٌ. لَكِنْ مِنْهُمْ النُّذُرُ(١)، [٤].

الشرح:

[١] خير الرسول ﷺ بين أن يكون نبيًا ملكًا وبين أن يكون نبيًا وليس بملك، فاختار أن يكون نبيًا، وليس ملك.

[٢] الجن مثل الإنس في الجزاء يوم القيامة، يدخلون النار، واختلف العلماء: هل الصالحون منهم يدخلون الجنة؟ والظاهر - والله أعلم - أنهم يدخلون الجنة مثل الإنس.

[٣] الرسل يكونون من الإنس، ولا يكونون من الجن، ويكونون أيضًا من الذكور، لا من الإناث من الإنس.

[٤] النذر: المبلغون، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ أي: مبلغين ومنذرين لهم من البقاء على الكفر والشرك، فهم مبلغون عن الرسل من الإنس، وليس منهم رسول.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨)، وشرح الطحاوية (١٦٦).

وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ(١).

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْجِنَّ مَعَ الْإِنْسِ عَلَى أَحْوَالٍ:

فَمَنْ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ يَأْمُرُ الْجِنَّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ وَيَأْمُرُ الْإِنْسَ بِذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ خُلَفَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَنُوَّابِهِ. [١].

الشرح:

[١] كمحمد ﷺ؛ فإنه يأمر الإنس والجن بما أمره الله به من عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

وقصد الشيخ من هذا الرد على الذين تخدمهم الجن، ويقولون: هذه كرامة من الله. وقد سبق لكم أن هذا ليس كرامة من الله، هذا غرور - والعياذ بالله -، وإنما الذي يأمرهم بطاعة الله ويدعوهم إلى الله هذا من الصالحين، أما الذي يستخدمهم في المحرمات وفي السحر وفي غير ذلك، وفي الأمور التي حرمها الله، فهذا استخدام محرم.

---

(١) انظر: كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٧١).

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، فَهُوَ كَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، وَهَذَا كَأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي مُبَاحَاتٍ لَهُ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ. [١].

هَذَا إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ فِي عُمُومِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مِثْلِ: النَّبِيِّ الْمَلِكِ مَعَ الْعَبْدِ الرَّسُولِ؛ كَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. [٢].

الشرح:

[١] هذا ما أدري، فتح الباب للإنس أنهم يستخدمون الجن في المباحات، هذا ما ينبغي فتحه للناس؛ لأن هناك من يدعي هذا، فالأحسن أن الإنسان يترك الجن، ولا يستخدمهم في شيء، يستعين بالله ﷻ، ويستعين بإخوانه من الإنس فيما أباحه الله.

[٢] قصد الشيخ من هذا الرد على الذين يستخدمون الجن في السحر وغيره والكهانة، ويدعون أن هذه كرامة، وأنهم من أولياء الله، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان، وليسوا من أولياء الله.

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِيمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ، إِمَّا فِي الشِّرْكِ، وَإِمَّا فِي قَتْلِ مَعْصُومِ الدَّمِ، أَوْ فِي الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْقَتْلِ، كَتَمْرِيضِهِ وَإِنْسَائِهِ الْعِلْمَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ، وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ كَجَلْبِ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ، فَهَذَا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَهُوَ عَاصٍ؛ إِمَّا فَاسِقٌ وَإِمَّا مُذْنِبٌ غَيْرُ فَاسِقٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَامَّ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ [١] فَاسْتَعَانَ بِهِمْ فِيمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ الْكَرَامَاتِ: مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى الْحَجِّ، أَوْ أَنْ يَطِيرُوا بِهِ عِنْدَ السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ، [٢].

الشرح:

[١] تأمل هذا القيد، تام العلم بالشريعة، هذا يستعين بهم في المباحات، يشترط أن يكون تام العلم بالشريعة، أما الجاهل، فلا يفتح له الباب في هذا.

[٢] السماع البدعي يعني: الغناء الذي عند الصوفية؛ يجتمعون، ويغنون، ويدفون بالدفوف، ثم تطرأ عليهم أحوال؛ يطيرون، ويقولون: هذه كرامات. وهي أعمال شيطانية، الذي طار بهم الشياطين، ما هم الذين طاروا، لكن الشياطين حملتهم لتغريهم.

أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى عَرَفَاتٍ وَلَا يَحُجُّ الْحَجَّ الشَّرْعِيَّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مَغْرُورٌ قَدْ مَكَرُوا بِهِ. [١].

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْجِنِّ، بَلْ قَدْ سَمِعَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلْبِيسَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَمْكُرُونَ بِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَوْثَانَ أَوْهَمُوهُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ، وَيَكُونُ قَصْدُهُ الِاسْتِشْفَاعَ وَالتَّوَسُّلَ مِمَّنْ صَوَّرَ ذَلِكَ الصَّنَمَ عَلَى صُورَتِهِ مِنْ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ شَيْخٍ صَالِحٍ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ صَالِحٌ، وَتَكُونُ عِبَادَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلشَّيْطَانِ.

الشرح:

[١] لا يجوز هذا، لا يجوز أن يستخدمهم في عبادات، وأنهم يذهبون به إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى بيت المقدس، لا يجوز هذا، لا يجوز أن يستعملهم في العبادات، إنما في المباحات إذا كان تام العلم. وهذا الذي ليس تام العلم، يقع في هذا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. [١].

وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا، فَيُقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ؛ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَلِهَذَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَغَاثَ بجرجس أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جرجس أَوْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إِلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَغَاثَ بِشَيْخٍ يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ لَمْ يَعْرِفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ نَقَلَ أَقْوَالَهُمْ لَهُ، فَيَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ مِنَ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةِ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ، فَقَالَ: يَرَوْنَنِي الْجِنُّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالزُّجَاجِ، وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ، قَالَ: فَأُخْبِرُ النَّاسَ بِهِ وَيُوصِلُونَ إِلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي فَأُجِيبُهُ، فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إِلَيْهِ.
وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إِذَا كَذَّبَ

بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا وَقَالَ: إِنَّكُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجَرِ الطَّلْقِ(١)، وَقُشُورِ النَّارِنْجِ(٢)، وَدَهْنِ الضَّفَادِعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِيَلِ الطَّبِيعِيَّةِ.

فَيَعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخُ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ وَاللَّهِ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيَلِ. فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمُ الْخَبِيرُ إِنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةٌ، أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حِينَئِذٍ مِنْ مخارق الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَائِهِ، لَا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَائِهِ. [٢].

وَاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَخُلَفَائِهِ، صَلَاةً وَسَلَامًا نَسْتَوْجِبُ بِهِمَا شَفَاعَتَهُ، آمِينَ.

---

(١) قال في المعجم الوسيط (ص٥٦٣): (حجر براق شفاف ذو أطباق، يتشظى إذا دق صفائح، ويطحن فيكون مسحوقًا أبيض، يذر على الجسم فيكسبه بردًا ونعومة...).

(٢) قال في المعجم الوسيط (ص٩١٣): (شجرة مثمرة، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، أوراقها جلدية خضر لامعة، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع، والثمرة عصارتها حمضية مرة، وتستعمل أزهارها في صنع زيت طيار يستعمل في العطور....).

الشرح:

[١] فكل مشرك سواء كان عبد الحجر أو الشجر أو الأصنام، فإنه إنما يعبد الشيطان؛ لأنه هو الذي أمره بذلك، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ يعني: الشياطين، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

[٢] الكرامات إنما تحصل عند ما يحبه الله ورسوله من الطاعات والعبادات، وأما خوارق الشيطان، عندما يبغضه الله ورسوله من الشرك، هذا الفارق بين الكرامة وخارق الشيطان.

تم بحمد الله

ثبت المراجع

١- أبجد العلوم. صديق حسن خان القنوجي. دار الكتب العلمية. ١٩٨٧م.

٢- الإبانة. أبو الحسن الأشعري. تحقيق د فوقية حسين. دار الأنصار - القاهرة ١٣٩٧هـ

٣- الأحاديث المختارة. الضياء المقدسي. مكتبة النهضة الحديثة ١٤١٠هـ.

٤- أحكام القرآن. أبو بكر الجصاص. دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ.

٥- الآداب الشرعية. ابن مفلح. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٦هـ.

٦- الإستقامة. ابن تيمية. تحقيق د/ محمد رشاد سالم. جامعة الإمام. السعودية ١٤٠٣هـ.

٧- أسد الغابة. ابن الأثير. جمعية المعارف ١٣٨٠هـ.

٨- الأسماء والصفات. البيهقي. مكتبة السوادي، جده ١٤١٣هـ.

٩- الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر. دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ.

١٠- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر ١٤١٥هـ.

١١- الاعتصام. الشاطبي. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
١٢- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. البيهقي. دار الآفاق الجديدة ١٤٠١هـ.
١٣- اعتقادات فرق المسلمين. محمد بن عمر بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ.
١٤- إعلام الموقعين. ابن القيم. دار الجيل بيروت ١٩٧٣م
١٥- الأعلام. لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.
١٦- إغاثة اللهفان. ابن القيم. دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ.
١٧- آكام المرجان في أحكام الجان. الشبلي. مكتبة القرآن، القاهرة.
١٨- التحفة العراقية. ابن تيمية. دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ.
١٩- المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم. مكتبة النهضة.
٢٠- الأنس الجليل. مجير الدين الحنبلي، مكتبة دنديس - عمان ١٤٢٠هـ.
٢١- الأنساب. عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الفكر. ١٩٩٨م.
٢٢- الأولياء. ابن أبي الدنيا. جمعية النشر والتأليف بالأزهر، الطبعة الأولى.
٢٣- البداية والنهاية. ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت.

٢٤- بيان تلبيس الجهمية. ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة الحكومة، مكة، ١٣٩٢هـ.

٢٥- تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي. دار الكتاب العربي ١٤٠٩هـ.

٢٦- تاريخ الخلفاء. السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ.

٢٧- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨- تاريخ دمشق. ابن عساكر. تحقيق: عمر بن غرامة العمري. دار الفكر، ١٩٩٥م.

٢٩- تاريخ واسط. أسلم بن سهل الواسطي، تحقيق: كوركيس عواد. عالم الكتب، ١٤٠٦هـ.

٣٠- تبيين كذب المفتري. ابن عساكر. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣١- تحريم آلات الطرب. الألباني. دار الصديق، الجبيل، السعودية، ١٤٢٠هـ.

٣٢- تخريج أحاديث الإحياء. الحافظ العراقي. دار طبرية.

٣٣- تدريب الراوي. السيوطي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. مكتبة الرياض الحديثة.

٣٤- تذكرة الحفاظ. الذهبي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥- *ترجمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي. وليد منيسي. دار الفضيلة، الرياض.*

٣٦- التعاريف. محمد عبد الرؤوف المناوي. دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ.

٣٧- التعرف لمذهب أهل التصوف. محمد الكلاباذي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ

٣٨- التعريفات. علي بن محمد الجرجاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٣٩- تفسير ابن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤٠- تفسير البغوي. الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرون. دار طيبة، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤١- تفسير الطبري. ابن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٢- تفسير القرطبي. محمد بن أحمد الأنصاري. دار الشعب، القاهرة.

٤٣- تلبيس إبليس. ابن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٤- التمهيد لشرح كتاب التوحيد. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. دار التوحيد ١٤٢٣هـ.

٤٥- التمهيد. ابن عبد البر. وزارة عموم الأوقاف، المغرب. ١٣٨٧هـ.

٤٦- تهذيب التهذيب. ابن حجر. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٤٧- تهذيب السنن. لابن القيم. دار المعرفة بيروت. مع معالم السنن للخطابي.

٤٨- تهذيب الكمال. المزي، تحقيق: بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٤٩- التوضيحات الحسان. ياسر برهامي. دار الخلفاء الراشدين، الأسكندرية ١٤٢٦هـ.

٥٠- تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد. سليمان بن عبدالله. مكتبة الرياض الحديثة.

٥١- تيسير الكريم الرحمن. ابن سعدي. تحقيق الشيخ ابن عثيمين. مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ.

٥٢- الثقات. ابن حبان. تحقيق السيد شرف الدين، دار الفكر، ١٣٩٥هـ.

٥٣- جامع العلوم والحكم. ابن رجب. مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ.

٥٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود طحان. مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ

٥٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية. تحقيق: على سيد صبح، مطبعة المدني، مصر.

٥٦- حلية الأولياء. أبو نعيم الأصبهاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٥٧- دائرة المعارف. بطرس البستاني. مطبعة المعارف، بيروت.

٥٨- الدر المنثور. السيوطي. دار الفكر، ١٩٩٣م.

٥٩- درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ.

٦٠- الدرر السنية في الأجوبة النجدية لعلماء نجد الأعلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. ١٤٢٠هـ.

٦١- دلائل النبوة. أبو نعيم. عالم الكتب، بيروت.

٦٢- دلائل النبوة. البيهقي. المكتبة السلفية، المدينة.

٦٣- دلائل النبوة. الفريابي. تحقيق: عامر حسن. دار حراء، مكة، ١٤٠٦هـ.

٦٤- ديوان ابن الفارض. مصطفى البابي ١٣٧٢هـ

٦٥- الرد على الزنادقة والجهمية. الإمام أحمد. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٩٣هـ

٦٦- الرد على القائلين بوحدة الوجود. علي القاري. دار المأمون للتراث١٤١٥, هـ.

٦٧- الرد على المنطقيين. ابن تيمية. دار المعرفة، بيروت.

٦٨- الرسالة القشيرية. أبو القاسم القشيري. دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٦٩- الروح. ابن القيم. دار الكتب العلمية. ١٣٩٥هـ.

٧٠- روضة الناظر. ابن قدامة. تحقيق: عبد العزيز السعيد. جامعة الإمام ١٣٩٩هـ.

٧١- زاد المسير. ابن الجوزي. المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٧٢- الزهد. أحمد ابن حنبل. دار الريان للتراث. ١٤٠٨هـ.

٧٣- الزهد. عبد الله بن المبارك. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية.

٧٤- السلسلة الضعيفة. الألباني. مكتبة المعارف. الرياض، ١٤٢٠هـ.

٧٥- السنة. ابن أبي عاصم. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

٧٦- السنة. عبد الله بن أحمد. تحقيق: د. محمد سعيد القحطاني. دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٦هـ.

٧٧- سنن ابن ماجه. دار الفكر، بيروت.

٧٨- سنن أبي داود. دار الفكر، بيروت.

٧٩- سنن البيهقي الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. مكتبة دار الباز ١٤١٤هـ.

٨٠- سنن الترمذي. تحقيق: أحمد شاكر. دار إحياء التراث، بيروت.

٨١- سنن النسائي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب ١٤٠٦هـ.

٨٢- سير أعلام النبلاء. الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ.

٨٣- شذرات الذهب. عبد الحي بن أحمد، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير ١٤٠٦هـ.

٨٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي. تحقيق: د/ أحمد الغامدي. دار طيبة، ١٤١٥هـ.

٨٥- شرح الأصول من علم الأصول. ابن عثيمين. دار البصيرة، مصر.

٨٦- شرح السنة. الحسين بن مسعود البغوي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

٨٧- شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.

٨٨- شرح النووي على مسلم. دار إحياء التراث، ١٣٩٢هـ.

٨٩- شرح الورقات في أصول الفقه. سعد الشثري. دار كنوز إشبيليا، ١٤٢٥هـ.

٩٠- شرح قصيدة ابن القيم. أحمد بن عيسى. تحقيق: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، ١٤٠٦ هـ.

٩١- شعب الإيمان. البيهقي. تحقيق: محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤٠١هـ.

٩٢- شفاء العليل. ابن القيم. دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ.

٩٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أحمد علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل. دار الفكر.

٩٤- صحيح ابن حبان. أبو حاتم البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ.

٩٥- صحيح ابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د. محمد الأعظمي. المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ.

٩٦- صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. بيت الأفكار الدولية.

٩٧- صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج النيسابوري. بيت الأفكار الدولية.

٩٨- صفة الصفوة. ابن الجوزي. دار المعرفة بيروت، ١٣٩٩هـ.

٩٩- طبقات الحنابلة. محمد بن أبي يعلى. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت.

١٠٠- طبقات الشافعية الكبرى. السبكي. تحقيق: د. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو. دار هجر ١٤١٣هـ.

١٠١- طبقات الشافعية. أبو بكر بن أحمد. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان. عالم الكتب ١٤٠٧هـ.

١٠٢- طبقات الصوفية. محمد بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

١٠٣- طبقات الفقهاء. أبو إسحاق الشيرازي. دار القلم، بيروت.

١٠٤- العبر في خبر من غبر. الذهبي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤هـ.

١٠٥- عقيدة الفرقة الناجية. الإمام محمد بن عبد الوهاب. المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ.

١٠٦- غريب الحديث. ابن الجوزي. تحقيق: عبد المعطي أمين. دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

١٠٧- فتاوى اللجنة الدائمة. مكتبة العبيكان.

١٠٨- فتاوى مهمة لعموم الأمة. ابن باز. دار العاصمة، ١٤١٣هـ.

١٠٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر. دار المعرفة، بيروت.

١١٠- فتح القدير. الشوكاني. دار الفكر، بيروت.

١١١- فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. توزيع رئاسة الإفتاء، السعودية.

١١٢- فتح المغيث. السخاوي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

١١٣- الفتوحات المكية. ابن عربي. دار الكتب العربية.

١١٤- الفردوس بمأثور الخطاب. الديلمي، تحقيق: السعيد زغلول. دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.

١١٥- الفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

١١٦- فصوص الحكم. ابن عربي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥هـ.

١١٧- فضائح الباطنية. أبو حامد الغزالي. مؤسسة دار الكتب.

١١٨- فضائل الصحابة. الإمام أحمد، تحقيق: وصي الله محمد عباس. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.

١١٩- فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي. دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

١٢٠- القول المفيد في حكم الأناشيد. عصام عبد المنعم المري. دار الفرقان، عجمان.

١٢١- الكامل في التاريخ. أبو الحسن الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٢٢- كرامات الأولياء. اللالكائي. تحقيق: أحمد الغامدي. دار طيبة.

١٢٣- كشف الخفاء. إسماعيل بن محمد العجلوني. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

١٢٤- كشف الظنون. مصطفى بن عبدالله القسطنطيني. دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ

١٢٥- لسان العرب. ابن منظور. دار صادر، بيروت.

١٢٦- لسان الميزان. ابن حجر. مؤسسة الأعلمي ١٤٠٦هـ.

١٢٧- لطائف الأسرار. ابن عربي. دار الفكر العربي.

١٢٨- المبسوط. السرخسي. دار المعرفة، بيروت.

١٢٩- المجروحين. ابن حبان. تحقيق: محمد إبراهيم زايد. دار الوعي حلب ١٣٩٦هـ

١٣٠- مجمع الزوائد. الهيثمي. دار الريان للتراث، القاهرة.

١٣١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.

١٣٢- مجموع مؤلفات الإمام المجدد. توزيع دار الإفتاء، السعودية.

١٣٣- مختار الصحاح. الرازي، تحقيق: محمود خاطر. مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ.

١٣٤- المدخل. ابن بدران، تحقيق: د. عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

١٣٥- المدونة الكبرى. الإمام مالك. دار صادر، بيروت.

١٣٦- مرآة الجنان. عبد الله بن أسعد اليافعي. دار الكتاب الإسلامي ١٤١٣هـ.

١٣٧- مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله. المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

١٣٨- مسند أبي داود الطيالسي. دار المعرفة، بيروت.

١٣٩- مسند أبي يعلى. دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ.

١٤٠- مسند أحمد. المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

١٤١- مسند البزار. مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٩هـ.

١٤٢- مسند الشهاب. أبو عبد الله القضاعي. مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

١٤٣- مسند عبد ابن حميد. مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ.

١٤٤- المصباح المنير. الفيومي. المكتبة العلمية، بيروت.

١٤٥- مصرع التصوف. برهان الدين البقاعي. دار الباز، مكة. ١٤٠٠هـ.

١٤٦- مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

١٤٧- مصنف عبد الرزاق. تحقيق: حبيب الأعظمي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

١٤٨- معجم الأدباء. ياقوت الحموي. دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.

١٤٩- المعجم الأوسط. الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله. دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٥٠- المعجم الكبير. الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد. مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.

١٥١- المعجم الوسيط. مجموعة من العلماء. دار الدعوة، استانبول.

١٥٢- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢هـ.

١٥٣- المغني عن حمل الأسفار. الحافظ العراقي. دار طبرية.

١٥٤- مفتاح غيب الجمع والوجود. الصدر القونوي. مخطوط. جامعة الملك سعود.

١٥٥- مقالات الإسلاميين. أبو الحسن الأشعري. دار إحياء التراث، بيروت.

١٥٦- الملل والنحل. الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة، ١٤٠٤هـ.

١٥٧- المنار المنيف. ابن القيم. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب، ١٤٠٣هـ.

١٥٨- المنتظم. ابن الجوزي. دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٥٩- منهاج السنة. ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة ١٤٠٦هـ.

١٦٠- المهذب. أبو إسحاق الشيرازي. دار الفكر.

١٦١- المواقف. عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، ١٤١٧هـ.

١٦٢- الموضوعات. ابن الجوزي. الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ.

١٦٣- موطأ مالك. دار إحياء التراث، مصر.

١٦٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال. الذهبي. دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

١٦٥- النبوات. ابن تيمية. المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

١٦٦- النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. وزارة الثقافة، مصر.

١٦٧- نزهة الأسماع في مسألة السماع. ابن رجب، تحقيق: د/ وليد الفريان. دار طيبة، ١٤٠٧هـ.

١٦٨- نقد المنقول. ابن القيم، تحقيق: حسن السماعي. دار القادري ١٤١١هـ.

١٦٩- النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير. تحقيق: طاهر أحمد الزواوي. المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ.

١٧٠- نوادر الأصول. الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، ١٩٩٢م.

١٧١- الوافي بالوفيات. ابن أيبك. تحقيق: أحمد الأرناؤوط. دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.

١٧٢- وفيات الأعيان. ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة، لبنان.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله الجزء الثاني، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات